قضايا في التحليل النفسي

الفتاة التي لم تستطع أن تتنفس	سيغموند فرويد
المرأة التي شعرت أنها مضطهدة	سيغموند فرويد
الرجل الذي عشق المشد	كارل ابراهام
الموسوسة	ساندور فرنشي
الطفلة التي لم تستطع أن تنام	ميلاني كلاين
القاتل المجهول	ثيودور ريك
الفتاة التي ما برحت تأكل	روبرت لندنر
الاندفاع نحو التفوق	الفرد ادلر
المراهقة الغاضبة	كارل روجرز

اختارها وترجمها بتصرف
إميل خليل بيدس

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

قضايا
في
التحليل النفسي

اهداءات ٢٠٠١

صيدلى/ حسن سعد الدين حجازى

الإسكندرية

الطبعة الخامسة
١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

مقدمة

في هذا الكتاب مجموعة مختارة من قضايا التحليل النفسي أجرتها طائفة محنكة من اتباع هذه النظرية التي أثبتت جدواها ، وبرهنت عن تأثيرها وفعاليتها .

وهذه النخبة الذين انتقينا قضاياهم وتحاليلهم ، رافقوا هذا الاجراء السيكولوجي المبتكر ، وساهموا في تطويره ووضع مبادئه .

التحليل بحد ذاته ، محاولة رائعة ، من شأنها ان تجوب النفس الباطنة وتستخرج الحقائق من مستودع العجائب هذا .

والتحليل ايضا مكن المعنيين ، علماء واطباء من تحطيم جدار الأعماق ، الذي طالما وقف حائلا منيعا ، وسدا لا يطال ، بين الانسان ومهمة الحياة .

انه تاريخ لمآس حية .

مأساة امرأة تشعر ان الناس يبيتون لها السوء .

مأساة رجل اتهم زورا بالقتل ولم يعرف كيف يدافع عن نفسه .

مأساة طفل لا يستطيع ان ينام .

وفي جميعها كلام يقال لكل انسان ،

وعبرة لكل انسان ،

تريه طريق الخطأ وطريق الصواب ،

وتجعله يأخذ حذره فلا يستهين بشذوذ طارىء تبرز فيه ملامحه ، أو في أحد افراد اسرته .

التحليل النفسي

في عام ١٨٨٠ ، اكتشف طبيب من فيينا اسمه جوزيف بروير اسلوبا جديدا تمكن عن طريقه من شفاء فتاة تشكو من هستيريا حادة • فقد خطر على باله أن العوارض مردها الى انطباع خلفته الايام التـي قضتها وهي تمرض اباها ، ولهذا اقنعها وهي في حالة سَرنمة (السير في حالة النوم) ان تنقب في ذاكرتها عن العلاقة بينمرضها ومرض ابيها ، وان تعيش من جديد هذه المشاهد التي اسفرت عن نشوء المرض ، دون ان تعيق التأثيرات التي تبرز اثناء العملية هذه •

وتبين له انها حينما هدأت ، اختفت العوارض نهائيا والى الابد •

واكتفى بما اكتشفه ، ولم يستأنف البحث الا بعد عشر سنين ، مـع سيغموند فرويد •

ففي عام ١٨٩٥ نشرا كتابا تحت عنوان « دراسات عن الهستيريا » ، حيث ورد ذكر اكتشافات بروير ، وبذلت المحـاولة لشرحها شرحـا وافيا بنظرية « تطهير العواطف » ••

بمقتضى هذه النظرية ، تنشأ اعراض الهستيريا عبـر طاقـة ذهنية محجوبة عن التأثير الواعي ومحولة الى أعصاب الجسم • ويكون العارض الهستيري بذلك بديلا عن عمل ذهني مغفل ، وتذكيرا بالمناسبة التـي كانت ستسفر عن ذلك العمل • وبمقتضى وجهة النظر هذه يكون الشفاء نتيجة

تحرير الشعور الذي ضل السبيل ، وتحويله الى طريق عادي طبيعي ، أي (ازالة العقد بالتحليل النفسي) •

وقد وفرت طريقة تطهير العواطف (تحليل العقد) اسباب النجاح في العلاج ، ولكن تبين ان الشفاء لم يكن نهائيا ، وانه يعتمد على الصلة الخاصة بين المريض والطبيب •

وقام فرويد الذي اضطلع وحده فيما بعد بالبحث ، باجراء بعض التعديل في الاسلوب فاعتاض عن التنويم المغنطيسي بالترابط الحر مع المريض • وابتكر عبارة « التحليل النفسي » ، الذي مع الوقت اصبح له معنيان :

١ ــ اسلوب خاص لمعالجة الخلل العصبي •

٢ ــ علم نشاط العقل الواعي ، والذي وصف ايضا بالسيكولوجية العمقية •

ويتزايد التأييد للتحليل النفسي كاجراء علاجي ، فانه يستطيع توفير الكثير من الامل لفئات من المرضى الذين انعدم الأمل في شفائهم •

والحقل الذي يطبق فيه عادة هو مرض العصاب المعتدل ــ الهستيريا ، والرهاب ، والاستحواذ (تسلط فكرة أو شعور تسلطا غير سوي) • ولا يستثنى التشوه الخلقي ، والكوابح الجنسية ، او الشذوذ الجنسي ، من فوائد التحليل النفسي ، وقد يشفى اصحاب تلك الحالات ، وقد يطرأ عليهم تحسن ملموس •

أما تأثيره في حالات العتاه الباكر ، وجنون الاضطهاد فمشكوك فيه •

ومن ناحية أخرى اثبت التحليل النفسي جدواه مع المصابين بحالات الكآبة ، مهما كانت درجة الاصابة •

ومهما كان الامر ، فان العلاج يتطلب جهدا عظيما سـواء مـن قبل الطبيب أو المريض • والطبيب المحلل يحتاج الى تدريب خاص شاق قبل ان يتمكن من اجراء التحليل • وينبغي لـه ان يضحي بوقت طويل وهو ينقب في دماغ كل مريض • بينما يتوجب على المريض ان يقدم التضحيات المادية والذهنية •

غير ان هذه الجهود والتضحيات تبررها النتائج المحمودة فـي معظم الحالات •

والتحليل النفسي ليس الترياق الشافي من جميع العلل ـ أجاهر •• واعلن •• كن سعيدا •• كن أمينا ـ كلا انه لا يقوى على جميع حالات الخلل العصبي ، وبالعكس ، فان تطبيقه يبدأ بايضاح المصاعب والعقبات التي تعترضه وتتكأد طريقه •• وكذلـك بايضـاح محدوديته ، وعـدم عموميته ، واستحالة اجرائه في كل حالة بلا تمييز •

والنتائج المتوخاة منه يتوقف مداها على احلال العمل الواعي مكان العمل غير الواعي • وهذا يتحقق بالتغلب على المقاومة الداخلية في ذهن المريض • وسيعير المستقبل اهمية للتحليل النفسي ، كعلم العقل اللاواعي اكثر منه كاجراء علاجي، لأن هذا ان تحقق ، كفيـل بـرد الروح واحياء النفس !

الفتاة التي لم تستطع ان تتنفس

سيغموند فرويد
SIGMUND FREUD

كاترينا ... في حالة هياج عصبي لا تهدأ لها ثائرة .. كادت تختنق وكان مرضها في نفسها .. ولم يكن مرضها في نَفَسِها .

سيغموند فرويد

اكتشف سيغموند فرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٩) التحليل النفسي رغم انفه . تعلم الطب ليعتاش ويكسب رزقه اثناء انكبابه على درس علم وظائف الاعضاء . وتركز اهتمامه على الدماغ والجهاز العصبي . واضطر بحكم الحاجة المالية الى دراسة امراض الجهاز العصبي المركزي.

وفي جهوده التي بذلها لتفهم ومعالجة الاضطرابات العصبية ، انتقل من علم وظائف الاعضاء الى علم النفس .. وقد درس التنويم المغنطيسي وتأكد له بعد اطالة ان العلاج به له صفة وقتية . وقد راقب مع طبيب لاسرة يدعى بروير مصابة بالشلل الهستيري تشفى من علتها حين تكلمت عن حوادث وقعت لها ، وكانت تظن انها نسيتها .

وقد استنبط اسلوبا جديدا اسماه التحليل النفسي ، كان المريض اثناء ممارسته يضطجع ، وهو يجلس وراءه ، فلا يراه المريض .

وكان يطرح عليه اسئلة تتصل بالاعراض الاولى من المرض ، ثم يامره ان يقص قصة حياته بالتفصيل . وهذا الاسلوب ما زال متبعا حتى اليوم في التحليل النفسي .

وقضية « الفتاة التي لم تستطع ان تتنفس » ، لم تكن تحليلا كاملا بالمعنى الصحيح . وهو نفسه اعترف انه لجا الى التكهن اكثر من لجوئه الى التحليل .

غير ان القضية هذه صورة واضحة عن محاولاته الباكرة في حقل التحليل .

ولم يلجأ الى التنويم المغنطيسي مع الفتاة ، فقد اكتفى بعقد سلسلة من الاجتماعات معها ، استعمل فيها من الاساليب ، ما اصبحت بعد وقت غير طويل الاساليب المألوفة التي يطبقها علماء النفس .

الفتاة التي لم تستطع ان تتنفس

اثناء توقفي عن العمل للراحة والاستجمام ، ذهبت في رحلة الى جبال الألب لكي انسى الطب والطبابة ولو لفترة قصيرة ، ولأنسى بنوع خاص امراض العصاب والاضطرابات العصبية •• وحققت ما تاقت اليه نفسي وصبت •• الا انه في يوم •••

قالت محدثتي الفتاة التي تبلغ الثامنة عشرة من عمرها ــ وكانت تعمل في النزل الجبلي الجاثم فوق قمة جبلية مشرفة على أروع ما شاهدت من مناظر في حياتي •

قالت محدثتي : « انت طبيب ، هذا أراه في سيمائك ! »

كان اسمها كاترينا •

واجبتها وأنا لا أكتم تعجبي : « أجل ، انا طبيب ، ولكن كيف استطعت ان تعرفي ؟ »

قالت : « منظرك وسمتك •• ثم توقيعك في سجل النزلاء • واني لأرجو منك ان تمنحني من وقتك ساعة ، أبثك فيها أشجاني ، واطلعك على آلامي •• أنا في حالة هياج عصبي ، وثورتي لا تهدأ وتقر •• وقد

استشرت من قبل طبيبا ، فأشار بدواء لم يكن لي منه فائدة • »

وتجاذبنا اطراف الحديث ، وتناقلناه في ليونة وتفاهم ؛ وسأسجله هنا بعد اسقاط شيء من التفاصيل التي لا مُوجب لها •

وأثّر فيّ حديثها تأثيرا قويا ، دفعني الى نسيان ما جئت في طلبه من راحة واستنقاه •• ولقد حرصت على استبقاء تعابيرها التي استرعت انتباهي واستحوذت على تفكيري • قلت :

« وماذا جعلك تستعينين بأكثر من طبيب ؟ أهو الوصب والنصب؟ أهو المرض ؟ »

« أعاني من ضيق في الصدر ، ولا استطيع ان اتنفس ! »

لم أعلل ما يصيبها في أول الامر بضعف الاعصاب •• ولكني ما لبثت ان رجحت اصابتها بعارض من العصاب ، وهو عادة يسبب ضيق النفس ، والشعور بالحاجة الى الهواء • »

وقلت : « اجلسي •• اشرحي لي حقيقة شعورك عندما تنتابك الازمة • »

قالت : « أصاب فجأة فأشعر اني غير قادرة على التنفس • يبدأ الضغط على العينين •• يثقل رأسي •• يطن •• فلا أكاد أتحمل الطنين •• يتبع هذا دوار ، فيخيل الي اني أتهافت وأنهار •• ثم يبدأ صدري يضيق ، يبدأ في الانضغاط ، فلا أتنفس الا بجهد • »

« ولا تشعرين بتآكل في الحلق ؟ »

« كأنه يرتبط •• صدري يرتبط ويتقيد بسيور ، وتكون حالتي حالة من يختنق • »

« وهل تشعرين بألم في الرأس ؟ بصداع ؟ »

« اجل ، بمطرقة تشقه وتحطمه . »

« ألا يفزعك الأمر ؟ »

« دائما أفزع وأرتعب .. أرى الموت ماثلا . أنا في العادة شجاعة .. اذهب الى كل مكان .. الى القبو انزل ، الى الجبل اصعد ، بل الى الجبال .. بيد أني أشعر كأن احدا يلاحقني ويقف ورائي ، ثم يمسك بـي فجأة بتشبث . »

انها ازمة عصابية حقا . تبدأ بتيار هوائي يسبق نوبة هستيرية .. أو بكلام آخر ، نوبة هستيرية محتواها العصاب .. فهـل تتضمن يـا ترى شيئا آخر ؟

وقلت : « وعندما تقع الأزمة ، أتفكرين دوما بالشيء ذاته ؟ أترين شيئا أمامك ؟ »

لعلنا عثرنا على أمر ينقلنا بسرعة الى الجوهر .

واستتليت : « هل تتعرفين على الوجه ؟ أعني ، أهو وجه مألوف لا تفتأين ترينه ؟ »

« كـلا .. »

« أتعرفين كيف نشأت الازمة ؟ »

« كـلا .. »

« متى أصابتك أول مرة ؟ »

« قبل سنتين ثنتين ، وأنا في صحبة عمتي . وكنـا نقيم علـى الجبل الآخر . كانت تملك نزلا .. أمضينا هنا ، في هـذا المكان سنة ونصف السنة ، ولكن النوبة تتكرر ، وكأنها لا تنسى موعدها معي ! »

هل أجري التحليل هنا ؟ لم أجرؤ على اللجوء الى التنويم المغنطيسي،

ولكن ربما ننجح بعد الحديث ، لأني موفق دائما في الحدس والتكهن •• كنت محظوظا في تكهناتي •• فأنا عانيت حالات العصاب مرارا وتكرارا تصاب بها الفتيات الصغيرات ، نتيجة الخوف الذي يغزو العقل البتول ، حينما تتكشف دنيا الجنس لهذا العقل •

وقلت بعد التفكير : « ان لم تعرفي ، فسأقول لك رأيي في السبب •• في ذلك الحين ، منذ سنتين ، انت رأيت أو سمعت شيئا أثار قلقك ، فجاشت نفسك بالاضطراب ، ووددت لو لم تشاهديه أو تسمعيه • »

فأجابت : « نعم ، نعم •• شاهدت عمي مع ابنة عمتي فرانشسكا • »

« ما قصتها ؟ أو ما قصتهما ؟ هلاّ حدثتني بها ؟ »

« لا ضير من هذا ، فأنت طبيب يجوز معك من الامور ما لا يجوز مع سواك • ان عمي ــ أي زوج عمتي بتعبير أصح ، عمتي التي التقيت ــ كان يدير معها نزلا • انهما الآن منفصلان بالطلاق ، وانا السبب ، لأني قلت ما رأيت ، وعلموا ان هناك علاقة بينه وبين فرانشسكا • »

« كيف اكتشفت العلاقة ؟ »

« هكذا ، فاستمع •• قبل سنتين ، أتى سيدان وطلبا طعاما • لم تكن عمتي في النزل ، وفرانشسكا التي كانت تطهو ، لم نقف لها على أثر • ولا عمي استطعنا ان نجده • بحثنا عنهما ، ولكننا لم نجدهما •• وفيما نحن نتقلب على نار الحيرة ابتدرني ألويس ابن عمتي يقول : ــ سنجد فرانشسكا مع أبي !

« وضحكنا •• غير ان افكارنا لم تكن قد ألفت هذه الامور • وذهبنا الى غرفة عمي ، فكان بابها مقفلا •• وقال ألويس : ــ هناك نافذة تستطيعين ان تري منها ما في الغرفة •

« وقصدنا النافذة ، غير انه أبى ان يرقى اليها ، فصعدت انا ، لم يكن هناك ما يدعو الى الخوف • ورأيت عمي فوق فرانشسكا ! »

« وبعد ذلك ؟ »

« وثبت ، بل سقطت ، واستندت الى الحائط ، ولـم استطـع ان اتنفس •• لقد ضاق صدري وانحبس عنه الهواء •• وكانت هذه البداية •• فارقني الادراك ، شعرت بشيء غامض •• وطنّ شـيء غامض فـي رأسي ! »

« هل حدثت عمتك فورا بما شاهدت ؟ »

« كلا ، لم أقل شيئا • »

« ولكن لماذا تولاك الخوف الشديد حين رأيتهما معا ؟ هل فهمت شيئا ؟ هل عرفت ماذا كانا يفعلان ؟ »

« كلا ، لم أفهم • كنت في السادسة عشرة من عمري •• لا أدري ماذا أخافني • »

« آنسة كاترين ، ان قدرت على تذكر ما ساورك ودار في عقلك من أفكار بعد رؤيتك لهما ، فانك بذلك تسدين أعظم خدمة لنفسك • »

« أجل ، ان استطعت •• غير ان خوفي الشديد طمس ذاكرتي • »

« قولي يا كاترين ، هل الرأس الذي يطالعك كلما ضاق نفسك ، هو رأس فرانشسكا كما رأيته في ذلك اليوم ؟ »

« كلا ، رأسها ليس بشعا كهذا الرأس الشنيع •• انـه رأس رجل ذلك الذي أراه • »

« لعله رأس عمك ؟ »

« لم أر وجهه بوضوح • كان الظلام يملأ الحجرة •• ولماذا يكون

وجهه مريعا ؟ »

« هذا قول صحيح • »

لقد أدنانا الحديث من الحقيقة ، وربما أعثر على السبب بعد حين •

قلت : « وماذا جرى بعد ذلك ؟

« الاثنان سمعا صوتا ، لأنهما أسرعا بالخروج • أما أنا ، فشعوري كان كئيبا • لم يبارح مخيلتي المشهد • فكرت في ما رأته عيناي والخوف يعقد لساني •• ثم بعد يومين ، وكان يوم أحد ، انهمكت في العمل • وفي صباح الاثنين اصابني دوار وقيء ، فلم أفارق الفراش • واستمر القيء ثلاثة ايام متوالية • »

القيء في هذه الحالة معناه الاشمئزاز والنفور ، لهذا سارعت أقول : « أظن ان نفسك غثت حينما وقع طرفك عليهما ، ولهذا أصبت بالقيء • »

« أجل ، أصابني هذا ، ولكن ، لماذا ؟ »

« لعلك رأيت شيئا عاريا •• كيف كان وضعهما ؟ »

« لم أتبين شيئا واضحا بسبب الظلام • ولكن الاثنين كانا مشتملين بالثياب • أجل ، ليتني عرفت سبب اشمئزازي ولغوبي • »

وأنا لم أعرف •• بيد اني رجوتها ان تصف لي ما خالجها ، فقد اسمع ما يعينني على التشخيص الصحيح •

وتحدثت الفتاة ، فروت ما تبع ذلك •• لقد أخبرت عمتها بما رأت ، وجرى عقب ذلك ما قلب الاوضاع •• فالنقاش الحاد المحتدم دار بين الزوج والزوجة ، وسمع الصغيران ما كان افضل لهما ان لا يسمعاه من الكلام ، وقررت العمة في النهاية ان تهجر زوجها ، ان تتركه مع

فرانشسكا •

أما فرانشسكا ، فقد حملت منه • وأما العمــة فانها غادرت المكان برفقة الصغيرين الى نزل آخر •

ولدهشتي العظيمة اسقطت الفتاة فجأة هــذا الخيط الــذي كدت امسك بطرفه وخاضت في حديث آخــر عــن مناسبات كثيرة سبقت تلك الحادثة ، حاول فيها عمها مراودتها عن نفسها ، وهي لمــا تتجاوز الرابعة عشرة •

ففي أحد الايام ذهبت معه في رحلة الى الوادي حيث قضيا ليلة في نزل صغير •

في تلك الليلة شعرت الفتاة ، وهما فــي قاعــة الجلوس ، بالنعاس ، فقامت الى الحجرة لتنام ، ومكث هو بالقاعة يشرب الخمر •

واستفاقت بعد ساعة لتشعر بجسده • فوثبت من الفراش وهي تقول: « ماذا تريد يا عمي ؟ لماذا لا تبقى في فراشك ؟ »

وحاول هو أن يظهر الامــر بمظهر فكاهي ، فقــال : « اذهبي أيتها السخيفة الحمقاء ، لا تعرفين ماذا ستأخذين • »

وأجابته : « لا اريد شيئا منك ، منعت عني النوم • »

وظلت واقفة قرب الباب ، وهي متأهبة للهرب فيما لو نهض وحاول الامساك بها • ولكنه نام • وعادت هي الى فراشها فنامت •

من حديثها مع عمها ، واسلوبها في دفعه عنها ، اتضح انها لــم تعرف يومها ان المحاولة كان هدفها الاغتصاب •• لقد غضبت لأنه حرمها النوم! أما الأخطر فهي غفلت عنه وجهلته •

وقصت علي حوادث اخرى حاول فيها العم ان يعتدي عليها •

ولما سألتها ان كانت شعرت بعـد هـذه الحوادث بضيق النفس ، أجابت بأنها شعرت بضغط على عينيها وعلى صدرها • ولكن ليس قويا ومؤلما كالضغط الذي شعرت بـه عندما رأت عمها مع فرانشسكا •

ثم مضت في حديثها فسردت وقائع عن اجتماعات اخرى بـين عمها وفرانشسكا •• حوادث مماثلة ، رأت فيها عمها يضاجع فرانشسكا •

ولما أتمت الحديث ، تضرج وجهها ، وانبسطت اساريرها ، وشعرت ، كما أيقنت ، بعبء ثقيل يرتفع عن صدرها •

هذه المشاهد ولا جرم ، فتحت عينيها شيئا فشيئا علـى الحقـائق ، ففهمتها ، ولكنها رفضتها •

وتبع ذلك فترة تطور في التفكير ، ثم فترة « حضانة » ، ومـا لبثت الأعراض ان تلاحقت •• واخذت تتقيأ ، فكان القـيء بمثابة البديل عـن الاشمئزاز •

بهذا اتضح السر ، ووجد للأحجية حل • فالتقيؤ لم يكن سببه رؤية الاثنين في وضع فاضح ، بل كان تحريكا لذكرى استيقظت في أعماقها •• ربما ذكرى محاولة الاعتداء عليها التي قام بها عمها •

وقلت لها : « الآن عرفت ما دار في فكرك حينما نظرت الـى داخل الغرفة •• لقد أخذت تحدثين نفسك وتقولين : ـ الآن هو يفعل معها مـا حاول ان يفعله معـي ! ولقـد لغبت نفسك وغثت ، لأنك تذكرت كيف استيقظت مرتعبة في تلك الليلة ولمست جسده ! »

قالت : « محتمل هذا ، لعلي شعرت بالاشمئزاز والنفـور •• ولعل الخوف استحوذ علي • »

أجل •• اصابت •• استحوذ عليها النفور والاشمئزاز •

قلت : « تحدثي وكوني صادقة •• ماذا كان شعورك نحوه •• نحو جسده ؟ »

ولم تجبني جوابا واضحا صريحا • ابتسمت في حيرة غير قليلة ، وكأنما الحديث قد لبى الطلب ، ووفى بالغاية • وبدا في وجهها اقتناع آخر بأن ما استنتجته انا هو الصحيح •• غير اني لم اتغلغل اكثر في عمقها • وتوقفت عند هذا الحد •

وارتاحت نفسي ، فالحديث معها كان أكثر سهولة من الحديث مع سيدات المدينة اللواتي يتصنعن الحشمة تصنعا ، ويتخذن من الاجفال من كلام مقال وسيلة لبلبلة أفكار محدثهن •

ولكن ، مهلا ••• ما سبب الهلوسة ؟

ما حكاية الرأس الذي ملأ قلبها رعبا ؟

وسألتها عن ذلك مستوضحا مستحثا ، فأجابت :

« الآن عرفت •• فالرأس رأس عمي ! الآن تجلى هذا بكل وضوح •• فحينما شجر الخلاف ، أظهر عمي امتعاضا وغضبا ، وأنحى علي باللائمة لأني لولا ثرثرتي لما وقع الطلاق ••

وكان يتهددني كلما رآني • وكنت أفر من شدة الذعر •• كنت أتوقع دائما ان يمسك بي من ظهري •• فالوجه الذي كان يتراءى لي دائما هو وجهه المشتعل غيظا • »

هذه المعلومات ذكرتني بأن أعراض الهستيريا الاولى ــ القيء ــ قد اختفت ، ولكن نوبة العصاب لازمتها بمحتوى جديد •• ولهذا عالجت حالة هستيرية ، لم يلبث جانب كبير منها ان تلاشى •• لأنها بعد وقت قصير حدثت عمتها بما اكتشفته •

قلت لها : « هل اطلعت عمتك على محاولاته معك ؟ »

قالت : « نعم ، ليس فورا ، ولكن بعد ان قطع اجراء الطلاق شوطا •• وقد قالت عمتي : ــ سنكتم هذا الامر الآن، اما اذا أثار الصعاب ليعرقل اجراءات الطلاق ، فاننا نجهر بها • »

أرجو من صميم قلبي ان يكون لحديثنا الاثر المرغوب في اقالة عثرة الفتاة التي أصيبت حساسيتها الجنسية بالرضوض قبل الاوان •



لا اعترض البتة على ما يذهب اليه كثيرون من ان حل قضية الهستيريا هذه كان بالتكهن والحدس اكثر منه بالتحليل • والذي لا شبهة فيه هو ان الفتاة المريضة تقبلت كشيء محتمل كل شيء اقحمته في قصتها ، ولكنها رغم هذا لم تكن في وضع يسمح لها بالتعرف عليه كأمر اختبرته •

ان قضية كاترينا حالة نموذجية ففي كل عارض هستيري مرده الى الرض الجنسي ، يجد الانسان ان التجارب السابقة للتمخض الجنسي، التي لا تخلف أي تأثير على الصغير ، تتلقى فيما بعد قوة صادمة حينما تكتسب الفتاة الصغيرة المعرفة وتتفهم حياتها الجنسية •

ان الظاهرة الهستيرية في حالة كاترينا لم تعقب فورا تلقيها الصدمة ، ولكنها تبدت بعد فترة من الحضانة • والقلق الذي اظهرته كاترينا كان هستيريا ، أي كان حاصل ذلك القلق الذي شعرت به بعد كل صدمة جنسية • ومجرد بروز صورة الاتصال الجنسي في شكل من الاشكال في احساس انسان بتول يستحث ولا شك شعورا جياشا بالتوق القلق •

المرأة التي
شعرت
انها مضطهدة

سيغموند فرويد

SIGMUND FREUD

مـــن قضايا جنـــون الاضطهاد المعاكسة لنظرية التحليل النفسي للمرض •

سيغموند فرويد

هذه القضية تظهر حساسية فرويد لتفاصيل معينة ، كما تبرز مقدرته على تلمس الاساس والسبب . وترويه ، وعدم تسرعه في تقبل ما يقوله المريض .

اسلوب رائع يتبعه فرويد في تقصيه للدوافع السيكولوجية التي تقرر الموقف والاسلوب الذي يتبع .

ومع ان هذه القضية ، او هذه الحالة المرضية لم يعالجها فرويد ، الا انها تمثل تحليله التغلغل في حالة مدمرة من حالات الانسان المرضية ـ حالة الشعور بالاضطهاد .

وهو مرض رهيب يتميز بالاوهام المتسمة بالشك في كل انسان ، والتخوف من كل انسان ، كائنا من كان .

وقد اهتم فرويد بهذه الحالة اعظم اهتمام، ، لانها كما خيل اليه تناقض نظرية كونها في ان الشعور بالاضطهاد هو نتيجة مقاومة مريرة يبديها امرؤ ضد تكاثف نزوات الشذوذ الجنسي ونزعاته ، ولان المصاب بشعور الاضطهاد لا يجرؤ على تعشق انسان من نوعه ، فهو يتحول بعاطفته الى كراهية وشك .

في هذه القضية تحول حب فتاة ملتهب الى حقد ملتهب .. وحاول فرويد اماطة اللثام عن السبب ... وتساءل : هل هو منبعث من شذوذ جنسي ؟ وهل اشتهاء الجنس المغاير الذي يتنازع مشاعرها ، كان قناعا للشذوذ الجنسي ؟

وما اكثر اعمال العنف التي تبدر من مواطن مسالم ، ويتمثل فيها نزوات انسان يشعر بالاضطهاد .. ولو كان المواطن العادي ملما باعراض الشعور بالاضطهاد .. لو كان الانسان العادي غير المطلع على النواحي السيكولوجية ، عارفا بهذه الاعراض ، لنجا الكثيرون ، ولارتفع الهم وانجاب الغم .

واحدى الصفات التي يتصف بها المبتلى بشعور الاضطهاد ، اهراعه في كل مناسبة متاحة الى دور القضاء للانتقام من بلاءجسمه الوهم .

ومما يدعو الى الاسف ان معظم رجال المحاماة يغضون عن الظاهرة ، ولا يترددون في اقامة الدعاوى .. اما هذه القضية ، فقد فهم المحامي سرها ، واتصل بفرويد وتشاور معه .

المرأة التي
شعرت
انها مضطهدة

قبل بضع سنين اتصل بي محام معروف واستشارني بقضية اثـارت الشكوك في نفسه ، فقد طالبته امرأة شابة بحمايتها من مضايقات رجل استدرجها الى علاقة حب •

وصرحت بأن الرجل خدعها مستغلا ثقتها بـه ، وجلب شهودا فـي السر ليصوروها اثناء مطارحتهما الغرام ، وانه ان شاء ان يهددها بالصور ويرغمها على الاستقالة من وظيفتها ، فلن يحول دون غايته حائل ، ولـن يزعه وازع من ضمير •

وكان المحامي اريبا بعيد النظر ، علمته تجربته ان يتحرى الحقيقة قبل الاقدام على اجراء ما • وقد تبين الطابع المرضي للشكوى •• وقـال وهو يعرض القصة علي انه مهما كان المظهر بعيدا عن التصديق ، فكثيرا ما يكون الواقع الاليم ، ولهذا فانه سعى الـي كطبيب نفساني يستشيرني ويأخذ رأيي ••• ووعد بزيارتي مرة ثانية مصحوبا بالمدعية •

واني قبل ان استمر فـي سرد التفاصيل ، اعترف بأني موهت فـي المواقع والاسماء ضنا على سمعة الناس المعنيين • ولكن فيما خلا هذا لـم ابدل شيئا أو احور في شيء •

بعد ايام التقيت المريضة • كانت في الثلاثين من عمرها ، وقد زها حسنها وتألق جمالها ، وبدت اصغر سنا مما هي • كانت ناضجة الانوثة يستهويها كل رجل يقع نظره عليها • وقد اعلنت صراحة انها تكره تدخل الطبيب في قضيتها •• وصدقت مقالها لأنها ما كانت لتأتي لـولا الحاح المحامي عليها •• ولولا الحاحه لمـا رضيت بسرد قصتها على مسمع مني • هذه القصة التي سأوردها فيما يلي ، وقد سببت لي اشكالا ، ووضعتني في مأزق •

لم يبدر منها وهي ماضية في سردها ما يدل على شعور بالخجل كما توقعت ، وكما أتوقع من كل امرأة تجيئني مطالبة بالمشورة ، وكان هذا دليلا على الاثر الذي خلفه الخوف في نفسها، من ناحية، وعلى الخبرة والشجاعة اللتين اكتسبتهما من عملها ، من ناحية أخرى •

فقد عملت منذ سنين فـي شركـة تجارية كبيرة ، واحتلت منصبا مسؤولا • وارضاها العمل وابهج نفسها ، فأقبلت عليه بجد واخلاص مما جعل رؤساءها يحترمونها ويقدرونها •

لم تحفل بالرجال وحب الرجال ، وعاشت مع امها في هدوء ودعة • وكانت المعيل الوحيد لها والامل الوحيد •

كانت وحيدة ، مات أبوها قبل سنين عديدة •

في الآونة الاخيرة اخذ موظف فـي الشركة نفسها يوليها اهتمامه ، ويظهر لها ودا ومحبة • وكان من كبار الموظفين ، مثقفا مهذبا جميل الطلعة جذاب الملامح •

وبادلته هي مشاعر الود والصداقة • ولكن الزواج لاسباب ظاهرة لـم يكن واردا • بيد ان الرجل لـم يذعن ، او يقطـع علاقته بهـا لهذا السبب •

وزعم لها بالكلام المقنع انــه مــن أسخف الامور التضحية للتقاليد والعرف ، بما تاقا اليه •• وان حقهما في المتعة لا ينازعه أحــد ، ولا يجرؤ انسان على الذم فيما اختارا من مباهج الحُياة التي تخصب الحياة •

ولما قطع على نفسه وعدا بألا يعرضها للخطر ، جعلت تتردد عليه في شقته اثناء ساعات النهار • وكانــا يضطجعان فــي الفــراش ويتغازلان ويتبادلان القبل •• وتضاعف ميله اليها بعد الذي رآه من مفاتنها • وفي غمرة حبهما يوما ، افزعها صوت شبيه بالتكتكة ، صدر مــن مكان وراء طاولة الكتابة الكبيرة الموضوعة قرب النافذة • وكان الفراغ بين الطاولة والنافذة محجوبا بستارة صفيقة •

وسألته مجفلة عن كنه الصوت ، فقال لها ، كما زعمت ، انه صادر على الارجح من الساعة الصغيرة الموضوعة على الطاولة •

وسأعلق الآن على هذا الجزء من قصتها •

عندما غادرت الشقة ، التقت على السلالم رجلين تهامسا فيما بينهما لما رأياها • وكان أحدهما يحمل بيده شيئا في لفافة بدا لها أشبه بصندوق صغير • وقد غمها ما رأته • وما كادت تصل الى منزلها حتى انشغلت بربط الامور بعضها ببعض ••

الصندوق ولا غرو هو الكاميرا والرجل مصور اختفى وراء الستارة الصفيقة اثناء وجودها في الحجرة • والتكتكة كانت صادرة عــن مصراع الكاميرا •• وقد التقط الرجل الصورة فور رؤيته لهــا فــي وضع يؤاخذ عليه • وهذا ما اراد تصويره وتسجيله •

وهجست نفسها بالشك منــذ تلك اللحظة وأوجست خيفــة مــن حبيبها ، فلاحقته بما اختلجها من ريب ، وضايقته وأثقلت عليه •• وجعلت

تلح وتطلب التفسير لما جرى ، وبالتالي الاعتراف بالذنب .. بل كتبت له خطابا طويلا كله ملامة وتعنيف .

وعبثا حاول اقناعها بنزاهته ، واخلاصه لها .. فان ما بدأته زاد مع الايام ، حتى برم بها برما شديدا .

بالحسنى قال لها انها مخطئة ، وبالحزم نبهها الى ما ترتكبه من طيش ونزق .. واخيرا رأت المحامي واطلعته على الواقعة وأرته مكاتيب حبيبها التي يؤكد لها فيها انه بريء مما نسبته اليه .

وقد طالعت المكاتيب هذه فأعجبتني وخلفت في انطباعا جيدا عن الرجل .. وكان الرجل قد قال في احدى هذه الرسائل انه يأسف كل الاسف ان تتحطم علاقة نبيلة جميلة كهذه على صخرة الاوهام .

ورأيت في القضية شيئا أكثر من حالة مرضية وتشخيص عارض مرضي . وقد وضعت دراسات متعددة عن التحليل النفسي ، ذهب فيها واضعوها الى القول بأن المقاسي من شعور الاضطهاد ، هو شخص يكافح ضد تكاثف النزع والميول الشاذة جنسيا .. حقيقة نابعة من الافتتان بالنفس .. وتفسير آخر توصل اليه العلماء في هذا الصدد ، هو ان المضطهد في الباطن هو انسان يحبه المريض ، او احبه في وقت مضى . والجمع بين مركبات الرأيين يقودنا الى النتيجة المفروغ منها بأن المضطهد يجب ان يكون من جنس المضطهَد نفسه . لم نزعم ان الفرضية التي تقول بأن شعور الاضطهاد يقرره الشذوذ الجنسي هي صحيحة ، ولكن موقفنا هذا سببه ندرة ما عالجناه من مثل هذه العلة وما راقبناه ..

والفرضية كانت من الفرضيات التي لاعتبارات معينة لا تبرز اهميتها الا متى صدق التطبيق العلمي . ففي الاجتهاد النفسي نجد العديد من الحالات التي يتخيل فيها المريض نفسه مضطهدة من قبل شخص ينتمي الى

الجنس الآخر ، وقراءة هذه القضايا شيء ، والاتصال الشخصي بالمريض شيء آخر •

وان ملاحظاتي وتحليلاتي ، وكذلك ملاحظات وتحليلات اصدقائي اثبتت وجود الصلة بين الشعور بالاضطهاد والشذوذ الجنسي •• الا ان هذه القضية تناقض هذا الرأي ، فالفتاة بدت كأنها تدافع عن نفسها ضد حب الرجل بتحويله مباشرة الى مضطهِد : ولم يظهر أي دليل على تأثير امرأة ، ولا على نشوب صراع ضد ارتباط بالشذوذ الجنسي •• أو انتماء للشذوذ الجنسي •

وقد يبدو في هذه الظروف ان أهون سبيل كان اهمال النظرية القائلة بأن الوهم الاضطهادي بلا استثناء منشؤه الشذوذ الجنسي ، وفي نفس الوقت اسقاط كل شيء نابع من النظرية تابع لها • فاما ان يصير الى التخلي نهائيا عن النظرية ، والا بالنظر الى الانحراف عن توقعاتنا ، ينبغي لنا ان نؤيد المحامي ونفترض ان هذا لم يكن تركيبة الشعور بالاضطهاد ، بـل اختبار فعلي أوّل بصدق وصحة •

بيد اني لمست طريقة اخرى يمكن بهـا تأجيل النطق بالحكم • فقد تذكرت ما جنحنا اليه وجنح سوانا اليه من رأي خاطىء عن اناس كانوا يشكون المرض الجسمي ، لمجرد تقصير الطبيب عن اجراء الدراسة اللائقة الوافية ، ولم يستطع لهذا السبب تكوين الرأي الصحيح عنهم • وعليه فاني قلت اني اعجز من ان أكون الرأي الفوري ، وطلبت الى المريضة ان تلم بي مرة ثانية ، عندما تكون قادرة علـى احاطتي بقصتها مـن جديد وبتطويل ، وباضافة أي تفاصيل اخرى اغفلت امرها في اول زيارة •

وبفضل المحامي ضمنت الوعد من المريضة المترددة • كما انه أعانني من ناحية اخرى باعرابه عن عدم جدوى حضوره •

والقصة التي روتها المريضة في المقابلة الثانية لم تتعارض مع قصتها السابقة ، غير ان الاضافات التي قدمتها بددت الشكوك والصعاب ..

أول أمر جديد علمته هو انها زارت الرجل في شقته مرتين لا مرة واحدة ، وانها في المرة الثانية سمعت الصوت المريب فداخلها القلق .

في قصتها الاولى ، كتمت أو اغفلت ذكر الزيارة الاولى ، لأنها لم تجد ضرورة لذكرها ، فهي بدأت وانتهت بسلام دون ان يعكرها أمر مفاجيء . ولكن شيئا ما حدث في اليوم التالي للزيارة الاولى هذه . فدائرتها في مكان عملها كانت تحت اشراف سيدة وسط اشتعل رأسها شيبا كما قالت .

وفهمت منها ان المرأة كانت ترعاها وتختصها بحبها ، وان كانت أحيانا تعاكسها . وقد اعتبرت نفسها الاثيرة عندها . ولكنها بعد الزيارة الاولى التي قامت بها الى شقته بأيام قليلة رأته في المكتب يوما يبحث مع السيدة الكهلة في شؤون العمل .

وبينما كان الاثنان يتحدثان بصوت منخفض ، شعرت هي فجأة انه كان يطلعها على مغامرتهما ، ولا ريب في ان بين الاثنين علاقة حب غابت عنها معرفتها . فالمرأة الكهلة اذن اطلعت على السر وعرفت كل شيء ، واثبت هذا تصرفها مع الفتاة .. وكلامها ايضا دل على انها عرفت . ولما سنحت لها الفرصة واجهت حبيبها بما اتضح لها .

فاعترض الرجل بطبيعة الحال ، اعترض بشدة على ما اسماه « تهمة سخيفة » . وتمكن بعد لأي من ازالة ما ساورها من شكوك مصدرها الوهم والتصور ، مما ارجع الثقة الى نفسها ، وشجعها على زيارته ثانية في شقته بعد بضعة اسابيع .

ونعرف باقي القصة مما قالته عن المصور والصورة .

هذه المعلومات تزيل أي تردد اعتراني فيما كونته من رأي عن طبيعة شكوكها المرضية . فمن السهل ان نلاحظ ما شعرت به نحو المرأة المتقدمة في السن ، فهي استعاضت بها عن امها ، واعتقدت ان حبيبها رغم صغر سنه ، وضعته في مصاف أبيها . و « عقدة الامومة » هذه جعلتها تشك بوجود علاقة حب بين هذين الشخصين غير المتكافئين في شيء ، مهما كان الاحتمال ضئيلا في وجود مثل هذه العلاقة الغرامية بينهما .

وهذا على كل حال ، يزيل التناقض عن المتوقعات المنتظرة من نظرية التحليل النفسي ، بأن نشوء حالة اضطهاد وهمي كان نتيجة صلة شاذة جنسيا ــ صلة عنيفة قوية .

فالمضطهد الأساسي ــ القوة القاهرة التي تريد المريضة ان تتخلص من تأثيرها ــ هي هنا ليست رجلا بل امرأة . فالمرأة الكهلة ــ في اعتقادها ــ عرفت سرها ولم توافق على فعلها . واندت رفضها للعلاقة بالتلميحات والكلمات العابرة . وتمسك المريضة بحب انسان من جنسها قاوم محاولتها الرامية الى اتخاذ حبيب من الجنس الأخر .. فحبها لأمها أضحى الناطق بجميع هذه الميول ، ولعب دور « الضمير » فسعى الى ردع خطوة فتاة تخطوها لأول مرة في طريق العلاقة الجنسية الطبيعية ــ وهي خطوة خطرة من نواح كثيرة .. وتسنى لهذا الرادع اعاقة وافساد هذه العلاقة مع الرجال .

عندما تعرقل ام او تردع تصرف ابنتها الجنسي الطبيعي ، تكون في سبيل اعاقة عملية طبيعية عادية وضعت الاحداث تفاصيلها ورسمت خطوطها في ايام الطفولة ، وحوافزها قوية لاواعية، وتلاقي موافقة المجتمع وتأييده . وواجب الابنة ان تحرر نفسها من هذه السلطة او التأثير ، فتقرر

بطريقة منطقية جذرية ما يكون عليه نصيبها من المتعة الجنسية ، ومـا لا يكون •

فاذا سقطت في محاولتها للانعتاق ضحية العصاب، فهذا معناه وجود « عقدة الام » ، وهي من أعنف مـا يكون عـادة ، ويستحيل كبحها او تحجيمها • والصراع بين هذه العقدة والاتجاه الجديد الذي تتخذه الشهوة الجنسية يكون عرضة لشكل من اشكال العصاب حسب مزاج الشخص • وتفاعل العصاب هذا لا تقرره علاقاتها الراهنة بأمها الحقيقية ، بل علاقتها الطفولية بالصورة الذهنية لأمها •

نعرف ان المريضة فقدت اباها منذ سنين كثيرة • ونفترض ايضـا انها ما كانت لتبقى منعزلة عن الرجال ، فتبلغ الثلاثين من عمرها دون انتخالطهم لو لم تكن مدعومة بصلة عاطفية قوية تربطها بأمها ، وهذه الدعامة تحولت الى نير حينما بدأت الشهوة الجنسية تتحول الى رجل استجابة لتودده الملح •

وحاولت الانعتاق ، حاولت ان تتحرر من ربقة هـذه الصلة الشاذة جنسيا ، ومزاجها مكنها منتحقيق هذا في صورة مـن شعور الاضطهاد الوهمي الخادع • فغدت الام تلك المرأة المسؤولة بروحها العدائية الناقمة الحاقدة ــ في رأيها •

وكانت تستطيع ان تتغلب على المرأة وعلى العقدة لولا « عقدة الام » التي احتفظت بالقوة الكافية لابقاء الفتاة في معزل عن الرجال •

وهكذا ، عندما انتهت المرحلة الاولى من الصراع ، كانت المريضة قد ابتعدت عن امها دون ان تقترب نهائيا من الرجال ، ثـم نجـح الرجل بما أظهره من اصرار على اجتذابها اليه اجتذابا كاملا ، فقهرت معارضة الام في ذهنها واصبحت تواقة الى منح حبيبها لقاء ثانيا •

وفي الجديد الذي جد لم تظهر الام •• لم تبرز بقوتها •• ونفوذها •• ولكن في وسعنا ان نؤكد انه في الطور الاول ، لـم يكـن الحبيب المضطهـد مباشرة ، ولكن عبر الام التي لعبت صورتها الدور الأول فـي الوهم الخادع •

قد يظن الواحد منا ان المقاومة قد تم التغلب عليها الآن ، وان الفتاة التي طال ارتباطها بأمها تمكنت اخيرا من حب رجل • ولكن بعد الزيارة الثانية ، انبعث وهم جديد باستغلال حاذق لصوت طارىء ، فدمر هـذا الحب وحقق الغاية من عقدة الام • وما زال الامر يدق عن الفهم ، فكيف تحمي امرأة نفسها من حب رجل بوهم الشعور بالاضطهاد ؟

ولكن قبل معالجة هذا الوضع معالجة في الصميم ، لنلق نظرة على الظروف التي طرأت فكانت الاساس لهذا الوهم المضلـل الثـاني الذي استهدف الرجل •

مستلقية نصف عارية على الاريكة بجانب الرجل، سمعت صوتا أشبه بتكتكة ، او بضربة متكررة • لم تعرف السبب ولكنها توصلت الى تفسير بعد التقائها رجلين على السلالم ، يحمل احدهما بيده صندوقا مكسوا ••

وأيقنت فـور رؤيتهما ان احدا مـا بنـاء لتعليمات من حبيبها راقبها ليختار المشهد المطلوب فيلتقطه بآلته •• ليلتقط الصورة الفاضحة التـي اراد حبيبها ان يحظى بها •

ولا أزعم ابدا ان الوهم لم يكـن ليحصل لـولا انبعـاث الصوت المتكتك ، بل بالعكس ، هناك شيء محتوم وراء الحادث ، لا بد من رؤيته، شيء كان مقيضا له ان يثبت وجوده عنوة في المريضة ، في اللحظة التـي افترضت وجود علاقة غامضة بين حبيبها والمرأة الكهلة ، بديلة امها •• ففي مستودع النزوات العصابية لدى كل عصابي ، وربما لدى كـل انسان ،

هناك هوى قلما يغيب ، وفي وسع التحليل ان يكشف عن حقيقته • انها نزوة مشاهدة الاتصال الجنسي بين الاب والام •

واسمي هذه النزوات ـ هوى رؤية الاتصال الجنسي بين الابوين ، والاغواء ، والاخصاء، وسواها ـ « نزوات بدائية » ، وسأبحث بالتفصيل في مجال آخر ، منشأها ، وعلاقتها بالتجربة الفردية •

فالصوت الطارىء الخفي كان لعب دور العنصر المحرض الذي نشط الهوى على الاصغاء والاستماع ، وهذا جزء اساسي في العقدة الابوية •

ولسنا في حل من وصف الصوت بأنه «عرضي» لا، فمثل هذا الصوت كما بين لي « اوتو رانك » ، هو على العكس جزء لا غنى عنه من هوى الاصغاء ، والهوى يعيد اصدار الاحداث التي تفضح قيام الاتصال الجنسي بين الابوين ، او الاصوات التي يخشى الصغير المصغي ان تصدر عنه فتشي به •

ولكننا الآن نعرف اين نقف •• فحبيب المريضة كان بعد أبيها ، وهي نفسها احتلت مكان امها • ودور « مرهف السمع » دور الابن الصغير او الابنة الصغيرة انيط ـ في خيالها ـ بشخص ثالث • نستطيع ان نرى بأية اساليب تحررت الفتاة من اعتمادها في الشذوذ الجنسي على امها • كان هذا بواسطة حركة تراجعية : فبدلا من اختيار امها كاداة الحب ، تماثلت معها ، فأصبحت « امها » • واحتمال حدوث هذا التراجع يدل على منشأ الافتتان بالذات في اختيار « الشيء الحبيب » ، وبالتالي لحالة جنون الاضطهاد في ذاتيتها •

وفي وسع الانسان ان يقيم سلسلة متتالية من الافكار التي لا تسفر الا عن النتيجة نفسها : « اذا فعلتها امي ، فأنا استطيع ان افعلها ، فلي ما لها من حقوق ! »

ويتسنى للمرء ان يخطو خطوة اخرى في عدم اعتباره الصوت حادثا عرضيا • ولسنا نطالب القارىء ان يتبع اتجاه تفكيرنا حتى النهاية ، فغياب التحليل الاكثر تغلغلا والاشد عمقا يجعل من المستحيل فـي هذه القضية المضي باسراف في الترجيح• فالمريضة ذكرت اثناء المقابلة الاولى معي، انها طالبت حبيبها فورا بالتفسير ، وانه قال لها انه صادر على الارجح مـن الساعة الصغيرة الموضوعة على الطاولة •• واني لأنسب الى سهو الذاكرة ما قالته وتبين انه خاطىء • ويتراءى لي على الارجح ، انها في أول الامر ، لم تتفاعل مع الصوت مطلقا ، وانه اصبح ذا مغزى بعد رؤيتها الرجلين على السلالم •

اما حبيبها الذي لم يسمع صوتا في الغالب ، فلعله في مناسبة لاحقة، قال لها بعد الهجوم الذي شنته عليه ، والشكوك التي وجهت دفتها اليه :

« لا أدري أي صوت قد تكونين سمعت ، لعلـه صـوت الساعة الصغيرة ، فهي تتكتك احيانا ••• »

هذا الاستعمال المختلف للانطباعات ، وهذا الايداع الذي في غير موضعه لمـا يتذكره الانسان ، يحدث كثيرا ما في مرض جنون الاضطهاد ، لأنها من صفاته •

غير اني لم أر الرجل ولم أكلمه لأسبر غوره ، ولهـذا يستعصي علي مواصلة التحليل ، وبالتالي لا استطيع اثبات فرضيتي •

ويسعني ان اطيل قليلا في تحليل « الحادث » المزعوم • لا أصدق ان الساعة صدرت عنها تكتكة ، لا ولا اصدق ان صوتا من الاصوات قد سمعت ، لأن وضع المرأة يبرر تعرضها لسماع ضربة أو نقرة أو تكتكة في نظرها • وهذا كان ما ابرزته لاحقا كادراك حسي لعنصر من الخارج • مثل هذا الامر يرافق الاحلام • امرأة مريضة كنت اداويها من الهستيريا قصت

علي مرة حلما خاطفا لم تجدله أي علاقة بشؤونها وبأفكارها •• لم تجد له تعليلا •

حلمت ان احدا طرق الباب ، ثم استفاقت • لم تجد الطارق ، لم يطرق شخص الباب ، ولكنها في ليال سابقة استفاقت وهي تحس بحاجة ماسة الى التغوط : وهكذا صار عندها حافز على الاستفاقة من نومها فور شعورها بتحرك في امعائها • كان هناك « طرقة » في نظرها •

وفي حالة مريضتنا المصابة بشعور الاضطهاد ، أضع مكان الصوت الذي سمعته شيئا شبيها بهذا • ولست ضامنا لصحة كلامها ودقة وصفها لما حصل بينها وبين حبيبها في بيته ، ولكن حالة تقلص منعزل في البطن قد يبرر قولها ان الامعاء لم تتحرك • وفي رفضها التالي للرجل ، لا شك في ان عدم تجاوبها مع اللذة الجنسية قد لعب ولا غرو دورا كبيرا ، بالاضافة الى دور « الضمير » •

ولنأخذ بعين الاعتبار من جديد الواقع الاكيد بأن المريضة حمت نفسها من حبها لرجل ، او عصمت نفسها عن حب رجل ، بهذا الوهم الاضطهادي • ومفتاح التفهم لهذا الامر يوجد في تاريخ نشوء هذا الوهم الخادع • هذا الوهم في مستهل الامر كان مسلطا كالسلاح ضد المرأة ، ولكن الآن على اساس جنون الاضطهاد ، تحقق الانتقال من الهدف المرأة الى الهدف الرجل • وهذا التحول هو من اعراض جنون الاضطهاد ، وعادة نجد ان الضحية المضطهَدة تبقى مركزة على الاشخاص ذاتهم ، وبالتالي على جنس الشخص الذي انتمى اليه هدف حبها ، قبل تحول جنون الاضطهاد •

الا ان الاضطرابات الصابية لا تمنع تطورا او تحولا مثل هذا ، وملاحظاتنا قد تكون مماثلة لملاحظات سجلناها في حالات كثيرة أخرى ، ولملاحظات سجلها سوانا من الباحثين •

الرجل الذي
عشق المشد (الكورسي)

كارل ابرهام
KARL ABRAHAM

ملاحظات عن التحليل النفسي لقضية فتشية القدم والكورسي أي تركيز الشهوة على القدم والمشد

كارل ابرهام

كارل ابرهام (١٨٧٧ ـ ١٩٢٥) كـان مـن اول تلاميذ فرويد . في عام ١٩٠٧ اتى الـى فيينا كضيف على جمعية الاربعاء السيكولوجية . وهي مجموعة صغيرة من الرجال كانت تجتمع وتتباحث في امور التحليل النفسي ، ومنها تفرعت الجمعيات والمؤسسات المهتمة بالتحليـل النفسي .

واثناء مزاولة ابرهام للتحليل النفسي في برلين ، حيث غـدا رئيسا لمجموعـة المحللـين النفسيين الصغيرة ، كـان مـن اعضاء الفئـة المنتميـة الـى فرويـد . وكـان اول مـن طبـق التحليل النفسي في دراسة الذهان او الهواس . وخاصة في معالجة الحالات الاكتئابية .

كان اهتمامه منصبا الى أبعد حد على مرحلـة التطـور الطفولي : الفمي ، عندمـا ينـال الطفل اللذة بالرضاعة والعض .. والشرجي ، أي ، نيـل اللذة مـن حركـة افـراز البراز .. والتناسلي ، او المرحلة الجنسية .

في هذه القضية يظهر ابرهام اهتماما كبيرا بمناطق الشهـوة الجنسية ، فيعالـج حـالة فتشية (الهيام الجنسي بشيء) .

وننوه هنـا انه بعد انتشار معرفة التحليـل النفسي ، قلت ظاهـرة الفتشية ، ونـدرت اعراضها . وقد بين في بحثه ان الانحراف الجنسي لا يتميز بنشاط الممارسة وغزارتهـا ، خلافا للاعتقاد السائد بأن المنحرف شخص خطر بسبب افراطه في الممارسة الجنسية .

وهذه القضية تفيد ايضا بما تفسره وتوضحه من طبيعـة الكبت ، او الكبت الجزئي . والمحلل النفسي لدى استعماله كلمة كبت يعني عـادة استثناء المشاعر والافكـار التـي يرفضها العقل الواعي .

الرجل الذي عشق المشد

لم يعر المحلل النفسي معضلة الفتشية (Fetishism) اهتماما خاصا الا منذ عهد قريب . وقد اظهرت المتابعة والملاحظة ان الفتشية في حالات كثيرة توجد في نفس الشخص الذي يوجد فيه العصاب .

وقد اشار فرويد الى هذا الواقع ، ورجع بظاهرة الفتشية الى مجموعة خاصة من الكبت . واطلق عليها اسم « الكبت الجزئي » . وتبعا لهذا نبذت فكرة التباين والاختلاف بين الفتشية والعصاب .

ان تحليل قضية فتشية الحذاء والمشد التي ازمع ان اخوض في بحثها ، مكنني من التوصل الى نتائج هامة عن النشوء النفسي لهذا النوع من الفتشية .. وقد ايدت قضايا اخرى وجهة نظري .

يجب الافتراض ان اساس هذا الشذوذ تركيب جنسي معين متميز بالقوة المتفوقة لبعض الغرائز الاساسية . وان مركبات الظاهرة الفتشية تتكون نتيجة تعاون بين عنصرين ، الكبت الجزئي المذكور سابقا ، وعملية تنحية سنوسعها بحثا وتفصيلا .

وسأورد الآن موجزا للقضية ، اقتضبه قدر الامكان . حينما جرى التحليل ، كان المريض طالبا في الكلية التكنيكية يناهز الثانية والعشرين من العمر . في البدء ــ بدء العلاج ــ اعطاني دفترا ضمنه سيرة حياته

الجنسية • واول ما استرعى نظري فيه انه عندما بلغ سن الحلم اختلف عن لداته الذين يماثلونه في سنه ، من حيث صدوفه عن مشاركتهم في التوق الجنسي الى النساء • لم يختبر شعور الحب بمعناه الطبيعي مع اصدقائه ، نأى عنهم وازور • ومعرفته عن حقائق الجنس الأهم ووظائفه حصل عليها في وقت متأخر جدا • وحينما حاز تلك المعرفة استحوذت عليه فكرة ممضة •• ايقن من عجزه الجنسي •• ونفسه نفرت نفورا شديدا من الحصول على اللذة الذاتية باليد التي يمارسها احداث يبلغون ما بلغه هو من العمر •

لقد تحول ميله الجنسي الى اتجاه آخر • فعندما ناهز الرابعة عشرة من عمره ، بدأ يربط نفسه ، ويكرر هذا كلما اطمأن الى مكان وتأكد من عدم وجود انسان • واستمد اللذة من الكتب التي يدور الكلام فيها عن تقييد حركة الانسان وشد وثاقه ــ مثلا روايات الهنود الحمر الذين كانوا يربطون الاسرى الى وتد ويعذبونهم وينكلون بهم • ولكنه لم يعمد قط الى ربط احد غير نفسه ، كما لم يحب قط ان يقيده انسان آخر ويعذبه •

ولما بلغ الخامسة عشرة ، واثناء اقامته في منتجع صحي ، رأى صبيا في الثامنة ، أو العاشرة • واسترعى الصبي انتباهه بحذائه الجميل اللامع • وكتب في سيرة حياته :

« كل مرة نظرت فيها الى حذائه ، شعرت بلذة قصوى وتمنيت ان تتكرر الفرحة ، كي انظر ، وكي ابتهج ! »

وتحول هذا الاهتمام والميل الى النساء ، او الى أحذية النساء ، ونما هذا الميل الشديد الى الاحذية الانيقة فأصبح حبا ملتهبا :

« عيناي انجذبتا الى احذية النساء وكأن الانجذاب حصل بقوة سحرية ••• الحذاء البشع أوقع النفور في قلبي ، ملأ وجداني

بالاشمئزاز ! »

ومنذ ذلك الحين بدأت تختلجه « لذة عمقية » كلما رأى حذاء لطيفا تنتعله امرأة . الا ان شعور المتعة كــان يتحول احيانا كثيرة الى انفعال عنيف ، خاصة عندما يرى جزمة امرأة جلدية لها كعبان مرتفعان ، كالتي تستعملها المرأة المشبوهة . لم تكن مشاهدته للحذاء تثيره فقط ، بــل الصورة الذهنية الزاهية للعناء التي تتكبده صاحبة الحذاء وهي تروح وتغدو كأنها تستهويه أيضا .

ولكي يتذوق الاحساس مباشرة وشخصيا، احساس الالم من انتعاله، والالم المتأتي من ضغطه على القدمين ، بدأ ينتعل حذاءه بطريقة خاطئة ، الفردة اليمين في القدم اليسرى ، والفردة الشمال في القدم اليمنى .

وبدأ اهتمامه بالكورسيه يتكون بعــد نضــوج اهتمامه بالحذاء . وعندما ناهز السادسة عشرة استولى على مشد لأمه وجعل يقيد نفسه بكل احكام . واخذ احيانا يشده على جسده ويلبس فوقه ثيابه .

والوصف التالي الذي أورده في دفتر سيرته يظهر مدى مــا بلغه من شذوذ في تصرفاته :

« اذا رأيت امرأة او فتاة تضع المشد استطيع ان انال الانتصاب . وطالما تمنيت في هذه المناسبات ان أكون امرأة .. لطالما تمنيت لو اني خلقت امرأة ، فاني عند ذلك استطيع ان اربط نفسي بالمشد ، وانتعل حذاء النساء ، وامشي بالكعب العالي ، وأقف على واجهات تزينها الكورسيهات، دون أن ألفت انتباه أحد لما أفعل .. وهذا مستحيل ، ولكني أتلهف دومــا الى حيازة الثياب النسائية وارتدائها والتلفع بها .. أحن الى الكورسي ، أحن الى الحذاء ! »

هذا الغرام ملأ احلام يقظته . وفي الليل كانت احلاما مفعمة بالشهوة

•• يحلم بالكورسي وبالحذاء في مختلف الاوضاع ••• يحلم انه يضم الكورسي والحذاء الى صدره ، وانه يقبل الكورسي والحذاء •

وكما قلنا كان ينقب في كل مكان عن كتاب سادي يقرأه ، ولكنه حرص على سره ، واسدل عليه ستارا صفيقا من الكتمان •• ولم يكتشفه احد ، أو يسمع بـه الا حينما لجأ الى طبيب مختص ، فحوله هـذا الي لأجري لـه التحليل النفسي ، ولكني شككت بالنتيجة ، ولم أتوقع للعلاج أي نجاح يذكر ، فالداء مستفحل تمكن منه وتغلغل فيه •

بيد ان الاسباب الاتفاقية العرضية القديمة التي لها دلالة كبرى في علم اسباب الميول الفتشية، لم أتمكن من اكتشافها وانا ادرس هذه الحالة• فرؤيته لأمه وهو صغير تضع المشد ، مجرد رؤيته لهـا تفعل هذا ، لا تعتبر في حاله صدمة نفسية • وتعلقه بالكورسي ثم بالحذاء انما هـو تعبير عـن انحراف موجود أصلا ، ولذا لم أجد أي رابط مرضي بينه وبينها •

والامر الذي يبرز بوضوح وسفور في هذه القضية وفـي مثيلاتها من القضايا ، هو الانخفاض الكبير في نشاط المريض الجنسي • بل انني لا استطيع ، بعد الدراسة المسهبة ان انسب اليه أي نشاط جنسي ، غير قيامه في وقت سابق بربط نفسه وتقييدها • فهـو لـم يمارس عمليا أي محاولة سادية جنسية •• هو لم يخرج عن نطاق الارضاء الذاتي •

لم نجد دليـلا ثابتا على نشاط جنسـي ، ولكننا وجدنا ان غريزته الجنسية تبدت في ولع المشاهدة ، في النظر ، في الشخوص •• هذا كان شغفه ••

ولكن ، حتى هذه الغريزة الابصارية تحولت ، فخرجت من حقلها، ولبست معنى جديدا • لم توجه الى اجساد • والى صفات جنسية ، بل الى اجزاء معينة من الملابس والثياب ، أي انها لم توجه الـى الجسد العاري بل

الى ما يكسوه •• وان اختصاصه كان الحذاء الضاغط والكساء العاصر للجزء الاعلى من جسد المرأة • ولم تذهب رغبته الجنسية الى أكثر من هذا• بل اكتفت وقنعت وتوقفت• فالامر اذن ولوع مرضي متركز على هدف جنسي تمهيدي •ورغم كل هذا الافتتان فانه لم يشغف الا بالحذاء الطريف الجميل اللامع •• اما الحذاء البشع غير الظريف ولا النظيف فقد كان مبعث اشمئزاز لشعوره •

اذن نحن ازاء حالة يتعاظم فيها الميل الفتشي ، وجنبا لجنب معه يبرز الميل الى رفضه عاطفيا ، كما هي حالة العصابي وموقفه •

فالمستوى الجمالي الذي يشترطه ويطلبه فتشي الحذاء في هدفه الجنسي يظهر لهفة عظيمة الى جعله مثاليا •

ورغم ان نشاطه الجنسي انخفض الى حد كبير ، ورغم ان غرائزه وجدت البهجة والرضا بحصولها على الاهداف الجنسية التمهيدية ، واكتفت بها ، الا انه ليس من الضروري افتراض وجود ضعف اساسي في غريزته الشهوانية • وقد اثبت البحث والفحص في السابق ان الغرائز المهتاجة المسرفة في الطلب ، الملحة في نيل الأرب ، يمكن ان تكبح وتشل بالكبت • والتحليل الذي اجريناه لهذه الحالة الآن تضمن حالة مماثلة ، حالة كبت •

فالحقائق التي توضحت اثناء الدرس والتحليل ، بينت ان غريزته السادية ، ولذته الجنسية كانتا فائقتي القوة والعنف •• ولكن الغريزتين كليهما ، المجتمعتين في نقطة واحدة ، تناولهما الكبت فشلّهما •

واتضح ان غرائز مكملة اخرى اشتملها هذا الكبت ايضا • فالحاجة الخاصة التي يشعر بها الفتشي الى القيمة الجمالية في اهدافه الجنسية، تبين ان الشهوة الجنسية فيه قد سعت في الأساس الى غايات معينة تبدو غير جميلة

اطلاقا للكبار عامة وتسبب لهم الشعور بالنفور والاشمئزاز . وقد قال لي الاستاذ فرويد مـرة ان خبرته اثبتت لـه ان كبت اللذة الشمية البرازية (حب الغائط) ، او حب رائحته ، لعب دورا بارزا فـي التنشؤ العقلي للفتشية القدمية . وقد اثبتت تحرياتي الخاصة صدق هذه النظرية .

في قضيتي هذه وجدت ان لذة المريض فـي تشمـم روائح الجسم الكريهة كانت في الاساس مفرطة في قوتها . فكبت هذه اللذة التشممية ، ومتعته الجنسية من النظر ، ونشاطه الجنسي ، أفضى الى تكوّن مجموعة ـ كحـل وسط ـ وهـذه المجموعة أو المجموعات تؤلف الصفات المميزة والمبرزة لفتشية القدم .

وثمة حالات فتشية يخرج فيها الشذوذ الجنسي عن القياس فلا يتأثر بالكبت .. أي يتمتع متعة كاملة واعية بالروائح الكريهة . فمن فتشية الشم يستمد الفتشي متعته من رائحة العرق ، ورائحة القدم القذرة ، وهذا يغذي ايضا في المريض غريزة التلذذ البرازي ..

والمريض هنا مر فـي مرحلة مطابقة لفتشية الشـم .. وبعد التعديل اللاحق كبتت رغبته الشمية .. لذته فـي النظر تصعدت الـى لذة في رؤية حذاء له قيمته الجمالية .

ولكن كيف تطورت غرائزه الشمية الى القدم ، بدل تحولها الـى اعضائه التناسلية وافرازاتها .

من بعض الملاحظات علمت ان الغريزتين قد ركزتا فـي البدء علـى منطقة الاعضاء التناسلية ، وان مناطق اخرى شهوانية قد بكرت بالدخول في منافسة مع المنطقة التناسلية ، كالفم والشرج .. وسيطرة هذه المناطق الاخرى مسألة مألوفة نعرفها مـن الانحراف الجنسي ، وكذلك من تحليل العصاب والاحلام .

وفي الواقع تبين من التحليل ان المنطقة التناسلية قد تعرضت في وقت مبكر للمزاحمة الشديدة من منطقة الشرج • فالاهتمام الجنسي الصرف في اول مراحل طفولته اخلت مكانها لاهتمام بعمليات الافراز البرازي •• وفي سن الحلم اجتاحته موجة ثانية من الكبت بهدف « انثوي » مماثل •

وقد احتفظ لوقت طويل جدا بتلك الافكار الطفولية ، التي تمثلت له فيها عمليات البراز كممارسة جنسية • وكانت لرمزية أحلامه صفات مطابقة • فلذة النظر ، ولذة الشم ، قبل ان تركز على القدم ، وجهت الى عملية التبويل والتغويط ، والى المواد المفرزة •

وكانت ذكرياته عن الطفولة الباكرة متصلة على الاكثر بالصورة المنطبعة في ذهنه عن الرائحة ، وعلى الاقل بالنظر • واذا لفت انتباهه الى تلك الفترة من حياته ، فانه يستعيد افكارا استحواذية • أحدها رائحة حمض اليوروفورم والبيروكسيلين ، وهما مادتان استعانت بهما أمه يوم كان طفلا • وفكرة استحواذية اخرى كانت في منتجع بحري ، حيث رأى أمه تخوض الماء • والمعنى الحقيقي للمشهد كما فسره معارفه هو كالآتي :

« لقد لوث نفسه بضع مرات بغائطه ، فكانت امه تحمله الى البحر لتزيل الاوساخ • »

وثمة ذكريات عديدة اخرى عن الرائحة وهو في سن الطفولة المتأخرة •• مثال ذلك ، تذكر انه وجد في حجرة أمه علبة من شعر تفوح منه رائحة مقبولة عنده •• وتذكر انه كان يتعلق بأمه ويعانقها لكي يشم رائحة ابطها •

وتذكر شيئا آخر يرجع تاريخه الى طفولته الباكرة ••• كانت اخته الرضيعة على صدر امه ، فدنا هو منها ولمس صدرها الآخر بفمه ، فأحب الرائحة المنبعثة من جسد أمه •

ودام ولع الصبي بامه الى سن العاشرة ، وكان كثيرا مـا ينام فـي فراشها •• ولكن لما بلغ العاشرة تحول شغفه برائحة الجسد الى نفور •• اصبح لا يحتمل رائحة الجسد النسائي • وفي الوقت ذاته ، وبينما لذته من الرائحة اخذت تكبت ، ضعف اهتمامه الجنسي بالمرأة وتحول الـى أقرب ذكر له ، الى أقرب هدف •• الى ابيه • وفي هذا التحول ، اصبح اهتمامه الاول والاكبر منصبا على الافرازات الجسدية • اصبحت هذه العملية مركز الثقل في تفكيره وخاصة متى بـدا لـه أبوه فـي وضع غير سوي ، مثلا قيامه بافراز البول أمام اولاده ، واتسع خياله لمشاهد شتى من هذا القبيل سواء عن نفسه وهو يبول او عن ابيه •

ورافق تحوله الى أبيه، رغبته في ان يكون امرأة ، وهي رغبة لازمته حتى بعد سن الحلم • ولكن هذه الرغبة كما يؤكد لم يصحبها ميل الـى ممارسة الجنس كأنثى ، واقتصرت على ميـل شديد الـى انتعال حذاء بأشرطة ، ومشبدات ، وابهاج نفسه بالنظر اليها في واجهات الدكاكين دون ان يلفت اليه الانتباه •

وبالفعل كما اوردنا ، حاول بضع مرات استعمال المشـد والحذاء العالي الكعب •

اما رغبته في ان يكون امرأة ، فقد عبر عنها بلا وعي بأساليب متعددة سنأتي على ذكرها •

ودوافع التمرد والغيرة الطفولية اتجهت وجوبا الى ابيـه والى امه مراوحة ، وكانت هذه المواقف متزاملة مع اخيلـة المـوت والاخصاء •• والاخصاء كان احيانا نزوة ساكنة ، واحيانا اخرى ناشطـة • وكـانت تصوراته عن الاخصاء منصبة على هدف ، هوامه •• وهي التي اعطاها خياله الطفولي عضو الذكر التناسلي •• اما خياله الصامت الساكن فقد

استهدف امنيته ليكون امرأة • وقد انبعثت هذه الرغبة فـي فتـرة اعتقد اثناءها ان للانثى ما للذكر من عضو تناسلي ، الا انها حرمته بالاخصاء • هذه الافكار والآراء لعبت دورها في تكوين أحلامه •

كان يحلم ان عليه بتر اصبع امرأة ، او ان عليه اجراء عملية لرجل ـ لأبيه ـ وان امه بعد العملية ساعدته في خياطة الجرح • في احلام اخرى ، كان يجب قطع رأس طفل ••

وعاوده حلم معين مرارا ، حلم ان رجلا كـان يطارده بسكين فـي يـده ••

اما تطور عقدة الاخصاء ونموها وتضخمها ، فانها تثبت مـا عاناه من عنف الدوافع السادية الماسوشية •

في خياله الجامح لـم يقتصر الاخصاء على التخنيث بل ، تناول ايضا فكرة طالما داعبت خياله ، هي فكرة عجزه عن افراز البول بعد الاخصاء •• من هنا نبعت افكار متعقدة اخرى •

المصاب بالعصاب الـذي تكـون منطقـة الشرج والمنطقة الاحليلية مبعث شهوة لـه ، يتصف بالميل الى استبقاء برازه • وهذا الميل كان قويا عند مريضنا • فذكرياته عن الطفولة تتناول الممارسة الملذة من هذا القبيل ، التي كان يغرق فيها نفسه ، ويفرط ويسرف • وقد اتصل بها ايضا عارض عصبي ـ تقطع في البول ـ جعله يؤخر افراز البول قدر ما استطاع •••

مثلا كان يحب ان يرى الهنود في خياله وهم يقيدونه بوتد ، فيضطر الى استبقاء افرازاته في مكانها داخل المثانة والامعاء • فهذا الهوى تضمن عنصرا ماسوشيا ايضا •

فكرة أخرى تفتق عنها ذهنه ، وكلف بها كلفا شديدا ، تصور انه كان

مستكشفا قطبيا ، وان البرد القارس منعه من فك عرى ثيابه ، حتى لوهلة، استجابة لنداء الطبيعة •• وتجاربه في تقييد نفسه وربطها أملاها مـــا أملى سواها من بواعث • وتجدر الاشارة ان هذه التصرفات كان يقوم بها فـــي بيت الخلاء •

والتقييد هذا الذي يلعب دورا كبيرا فـي تخيلات السادي ونزواته وأوهامه ، وكذلك في تخيلات الماسوشي ، ظهرت عند هذا المريض فـــي عمليـــة التفريغ المعوي والمثاني • فربط نفسه بالمشد ، وربط نفسه بالحبل سبب له ضغطا على المثانة والامعاء ، وفي نفس الاوان أشعره بلذة ، كما يشعر المصاب بالماسوشية التعذيبية ••• حتى انه عندما جرب الكورسي اول مرة ، سبب له هذا الضغط انتصابا ، فأفرز سائلا ! وهو ايضا كان يستهدف من هذا الربط والتقيد ، عصر الاعضاء التناسلية وحشرها !

هذا المريض، كانت المنطقة الشرجية مسيطرة عليه ومستأثرة باهتمامه• في طفولته كان يمارس عادة شهوانية جنسية غريبة •• كان يجلس وكعب حذائه مضغوط على منطقة الشرج •• وفي مذكراته وجدنا صلة مباشرة بين القدم والشرج •• فالحذاء يمثل بعضو الذكر ، والشرج بعضو الانثى ، وقويت الصلة هذه باكتسابه لذة الشم ••

لقد وجدت شهوته الذاتية اللذة الفائقة فـــي الروائح المنبعثة مـــن افرازاته البولية والبرازية • اما الرائحة المنبعثة مـــن الجلـــد ، والمنطقة التناسلية ، والقدمين ، فكانت تتيح له اللذة في سن سابقة ، في سن الطفولة وما بعدها بقليل • ولكنه بعد ان استعان بقدمه تلك الاستعانة ، فقد اصبح للقدم في خياله الواعي ما للعضو التناسلي من معنى •

وكانت اكثر احلامه الشمية تتكون في بيت الخلاء •

والحلم الذي كان لا يفارق مخيلته هو ما اشتهاه من حشر انفه ، بين

الشطرين ليشتم ما يحب ان يشتمه !

وشهوة النظر فيه تركزت بصورة كبيرة ، كما ذكرنا ؛ على افراز الغائط والبول . كان يرى أخاه وأباه بعين مخيلته في وضع تغوطي وتبويلي ، وكانت المياه المفرزة رمز معظم هذه الاحلام .

دنيا هذا المريض كانت دنيا عجيبة لا تصلها بدنيا الاحرار ، بدنيا الانسان الطبيعي أي صلة .

اوهام غزت رأسه .. وأخيلة تمثلت له حقيقة .. كعب اعتبره عضو التناسل ، وعضو التناسل النسائي اعتبره عضو تناسل ذكري ..

وجربت معه الاساليب ، حاولت ان اساعده ولو جزئيا .

لم افلح كثيرا في التحليل النفسي معه .. لم أتمكن من ازالة اعراض الفتشية ، ولكن التحليل مكنني الى درجة كبيرة من اضعاف سيطرة الشذوذ الجنسي عليه .. كما اني ساعدته على مقاومة اغراء الحذاء النسائي ، والمشد ، في داخله .. وكانت غرائزه الجنسية الطبيعية تتحرك احيانا اثناء جلسات التحليل .

الا ان حالته فاقت في خطورتها كل حالة عرضت لي .. ولو كالا لا يعاني الا من عصاب مصحوب بفتشية محدودة ، لاستطعت بسهولة ان اخلصه منها ، واكسبه طبيعة الرجل القادر على ممارسة حياته الجنسية العادية الخالية من كل شذوذ .. ولكنه كان في ارذل درجات الانحطاط .. كان كالزجاجة التي تحولت الى شظايا ..

لقد ساعدته من بعض النواحي بالتحليل الذي اجريته .. ولكن لا طاقة لي على رأب ما انصدع .. ولا طاقة لغيري على ذلك ايضا .

الموسوسة

ساندور فرنشي

SANDOR FERENCZI

تحليــل نفســي لهستيرية الوسواس المرضــي

ساندور فرنشي

ساندور فرنشي (١٨٧٣ ـ ١٩٣٣) كـان هو الاخر من تلامذة فرويد ، بل مـن اوائلهم . وانضم ايضا الى جمعية الاربعاء السيكولوجية في عام ١٩٠٨ . وكان طبيبا مجريـا وصديقـا حميما لفرويد .

وقد تحمس لنظرية التحليل النفسي ودعـا الـى تطبيقها في شتى مراحل المرض . وبـذل جهده ليطور الاسلوب بشكل يمكن مـن اختصاره ، وانقاص حدته الـى درجة معقولة . كما انه حاول ان يدخل عليه التعديلات الكفيلة بتوسيع نطاق التحليل ليشمل حقولا اخرى من حقول الامراض النفسية ، التي استعصى على الاطباء معالجة اصحابها .

واثبت ساندور ان الكبت او القمع يتسبب عن الخلل العصبي وسوء التوافق . مثلا ، ما حاولته المريضة من كبت رغبتها فـي مـوت طفلتها ، ومحاولتها العقيمة بسبب هـذه الرغبة في الهرب منها الى الجنون . وهذا يتمثل في نساء اخريات حينما يتمنين ان يكون لهن ما للرجل من عضو ، يضعهن معه على قدم المساواة ، او كما اصاب مريضته ، ان يستعضـن عـن الرجل باستحداث اللذة الجنسية الذاتية .

الموسوسة

التحليل النفسي يستغرق وقتا طويلا ، ويتطلب جهدا مضنيا ، ويتقدم ويتعثر ويتوقف ، ثم يستأنف سيره .. لا ننال وطرنا منه ونبلغ غايتنا الا بعد ان تبلغ النفس التراقي .. وهـذه الاستطالة بالطبع تطمس كثيرا مـن وقائعه وحقائقه ، ويكـاد القائم بـه والمريض ينسيان مـا قاسياه ومـا اختبراه ، ولا يذكران الا مقاطع ، يضطران احيانا ، ان ارادا استعادة كل ما جرى بينهما الى الذهن ان يجمعاه متقطعا فيضماه الى بعضه البعض حتى تكتمل الصورة .

بيد اني هنـا سأسرد وقائع قضية تحليل قمت بـه وكـان النجاح حليفي احرزته واحرزته المريضة في فترة قصيرة علـى غير العادة . ولهذا لم يشق علي ان اتذكر كل التفاصيل ، فهي ما زالت ماثلة امامي فـي الشكل والمضمون ، وكأنها تمت أمس ، وكأن المريضة التي عالجت ما برحت جالسة تلقائي .

المريضة بارعة الجمال ، اجنبية في شرخ الشباب . اتاني ذوو قرابتها بها بعد ان أعيتهم الحيلة وفتّ في عضدهم السعي الفاشل .. فهـم بذلوا جميع المحاولات ليخففوا عنها وطأة المرض ، ولكنهم آبوا بفشل ، واستمر المرض ينهش فيها واستمرت حالة الوسواس تتفاقم ، واستمرت هي تتوجع وتتلوع .

لم تعجبني حالتها .. كلمتها ، وبحثت معها ، فأظهرت أعراضا من القلق مستغربة . لم تكن تخاف الامكنة المفتوحة ذلك الخوف الشديد الذي توقعت أن ألمسه فيها . الا انها منذ شهور انقطعت عن الخروج من البيت الا بصحبة أحد من الناس . ومتى كانت وحدها أصابتها نوبة قلق بالغة الشدة . حتى في الليل كانت توقظ زوجها من نومه ، أو توقظ القريبة النائمة معها ، متى كان زوجها متغيبا ، لتحدثهما عن قلقها وألمها حديثا يستغرق ساعات .

كانت دائما تشكو من الامراض الجسدية ، من امراض عجيبة ، من طلوع وبروز ونتوء واحاسيس ، وكانت تظهر الفزع الشديد من الموت بسبب هذه الظواهر .

كانت تشعر بشيء في حنجرتها .. برؤوس مدببة تبرز من فروة رأسها ، اطراف دقيقة .. وكانت باستمرار تتحسس عنقها ووجهها ورأسها ..

كانت اذناها تطولان وتطولان .

كان رأسها ينشق من الامام .

كان قلبها يجب بسرعة متناهية .

كان نبضها يتقطع مع وجيب قلبها .

الخ ... الخ ... الخ ...

وفي كل احساس من هذه الاحاسيس التي كانت تنتظرها ، وتطلبها رأت اشارة الموت ، وعلامة الفَوت ... وسولت لها نفسها أيضا الانتحار .. أبوها مات من مرض شرياني ، وهذا المرض مصلت الآن فوق رأسها ، وستموت به .. هذا أمر أكيد .. وستموت ايضا ــ مثل ابيها ــ في مصح

المجانين !

واثبت على الفور أعراضا جديدة على أثر فحصي الاول لها . فقد عاينت حنجرتها لأعرف ان كانت مصابة بجمود الاحساس فيها ، أو بالحساسية المفرطة . فأضحت تقف امام المرآة وتطيل الوقوف .. كل يوم .. وكل ساعة .. وتخرج لسانها وتتأمل فيه .

ومرت اول لقاءات بيننا مملة مضجرة .. اكثرت اثناءها من الشكوى من هذه الاحاسيس ، وبدت الاعراض لي لأول وهلة غير قابلة للتلطيف أو للتعديل .. اعراض راسخة من أعراض الوسواس الجنوني .. وكنت قبل ذلك بمدة وجيزة قد عاينت امرأة مصابة بالعوارض نفسها .

وبدا لي بعد ردح ان قواها استنزفت ، وربما لأني لم أحاول ابدا أن أخفف عنها أو بالتالي أؤثر فيها ، لأني اطلقت لها الحرية لتقول ما تشاء ، وتتحدث بما تشاء . واظهر ايضا قليلا من التحول .. كانت تشعر بالسكينة بعد المقابلة ، وتنتظر الموعد التالي بنفاد صبر .

وتعلمت بسرعة كيف تربط الفكرة بالفكرة ، ولكنها لا تلبث ان تقطع ما ربطته ، فيتساقط التكوين وتبدأ في اظهار الانفعال الجنوني ، وتتصرف كأنها تمثل دورا ..

« أنا ن. ن. الصناعي » . (هنا تعطي اسم أبيها بوعي غير عادي) . ثم تتصرف كأنها هي أبوها وهو يصدر أوامره في مكان العمل . وتقذع بالقول مستعملة الألفاظ النابية ــ كما يفعلون في تلك المقاطعة ــ حيث أقام أبوها . وتتبع هذا بتمثيل دور أبيها وهو فاقد العقل ، قبل وضعه في المصح .

ولا ينتهي الاجتماع حتى تكون قد تكيفت ، فتلقي التحية بلطف وبشاشة ، وتذهب مع رفيقها أو رفيقتها الى البيت .

في الساعة التالية بدأت تقول وتردد :

« أنا ن٠ ن٠ عندي قضيب ! »

وبين التراداد والترداد كانت تتكلم عن شيء جرى في طفولتها ٠٠ عندما هددتها ممرضة بشعة بحقنة شرجية ، لأنها لـم تكن تتغوط تلقائيا ٠

والساعات التالية كانت تقسمها بين شكاويها الوسواسية ، وقصص أبيها المجنونة ، وتحول في الخيال عجيب ٠٠

طالبت بالحاح ولجاج وبلهجة ريفية ان ينيلها أحد أربها من الجماع ٠٠ وأنحت باللوم على زوجها العاجز عن ارضائها وتمكينها من بلوغ الهزة ــ وكان هذا غير صحيح ــ وقد قال لي زوجها انها منذ ذلك بدأت تطالب بالجماع والهزة ، مع انها من قبل دأبت على رفضه باصرار ولمدة طويلة ٠

وبعد الافضاء بسريرة نفسها ، وبهمومها ، وبشجونها ، قرت نشاطية هوسها ، وتسنى لنا دراسة المرض مـن أول عهده ، فسردت اسباب المرض المثيرة ٠ اندلعت نار الحرب ، ودعي زوجها للخدمة ، فاضطرت الى شغل مكانه في العمل ٠٠ ولكنها لم تحسن الاداء ، فأفكارها كانت دائما منصرفة الى ابنتها الكبرى ، وكانت في السادسة مـن عمرهـا ٠٠ قضت الساعات تفكر بها بخوف وقلق ٠٠ وقد لازمتها فكرة أفزعتها ٠٠ صور لها خيالها ان ابنتها ستصاب بالأذى ٠

والفتاة هذه ولدت كسيحة ، كان جزؤها الاسفل كله مشلولا ٠٠ ولا تتحرك الا زحفا على اربعة مركزة الثقل على يديها ٠ وبسبب سلس البول والغائط كانت تحتاج الى استبدال الثياب مئة مرة في اليوم ٠

« لا فرق عندي ٠٠ احبها ٠٠ احبها ألف مرة اكثر من اختها » ٠

هكذا قالت ٠ واختها كانت صحيحة قوية ٠

وقد أكد هذا جميع من عاش قريبا منها •• ودللت هي الفتاة المريضة، واحاطتها بما تيسر لها من اصناف الرعاية ، وبالطبع كان هذا على حساب الابنة الاخرى •• رفضت ان تعترف بالواقع ، رفضت ان تكون هذه صحيحة ، وجميلة ، وقوية ، وتلك عليلة ، وسقيمة ، ومشلولة •• رفضت ان تقر بحزنها على الصغيرة ، لماذا تحزن ؟ أليست ذكية ؟ أليست حلوة ؟ ووجهها أليس جميلا ؟

واتضح لي بعد فترة ان المريضة جاهدت لتكبت عاطفة الالم ، وانها في الحقيقة كانت بلا وعي تتمنى لها الموت •• لقد أعجزتها الواجبات المفروضة عليها •• فالفتاة تحتاج الى خدمة متواصلة ، والعمل مكان زوجها يحتاج الى جهد وتضحية •• وتألمت نفسها ألما بالغا •• وحزنت نفسها حزنا فادحا •• وهربت •• لاذت بالمرض •• هذا كان هربها !

وأخذت استعين بالاسلوب الناشط • ارسلتها الى بيتها لتقضي فيه يوما لكي تسنح لها الفرصة بالبصيرة التي استعادتها، وذلك إحياء المشاعر التي ألهبتها بنتاها من قبل في اعماقها •

وفي البيت كرست نفسها من جديد لخدمة ابنتها الكسيحة ، وفي اللقاء التالي ، قالت بلهجة ظافرة :

« أترى ؟ كل ما جرى بحثه غير صحيح ، طبعا غير الصحيح ما زعمته انت ، فأنا متعلقة بحب ابنتي الكبرى •• »

وأضافت الى قولها هذا أقوالا كثيرة لا تخرج عن المعنى •

بيد انها في اليوم نفسه ، واثناء المقابلة ، اعترفت بالعكس وهي تذرف الدموع السخينة بمرارة !

ففي مقابل الحب الشديد لابنتها الذي تدفق من قلبها ، استحوذ عليها

فكر مع صور رأت فيها نفسها تخنق ابنتها هذه ، أو تلعنها لعنتها التقليدية : « ليصعقك برق الله ! »

واستمر الباقي من العلاج على وتيرة التحويل العاطفي . لقد أظهرت المريضة تكدرها الشديد من المعالجة الطبية المحض التي عولجت بها مجاهرتها المستمرة بالحب ، مما اشار عفويا الى حبها العنيف لنفسها .. وقد أهدرنا بضع ساعات من وقتنا بسبب المقاومة الشديدة التي نفخ فيها الحياة الاساءة التي وجهت الى ولعها بنفسها ...

بيد ان هذا الوقت المهدور وفر لنا الفرصة لاستيلاد « اهانات » مشابهة لما كانت تشعر به بصورة مستمرة . فأوضحت لها انها في كل مرة خطبت اخت من اخواتها الكثيرات ـ وكانت هي صغراهن ـ شعرت بالكدر والمذلة والاهانة توجه اليها ، لتجاهلهم امرها ، واغضائهم عن شخصها .

ولقد كان لغيرتها العمياء ذيول مؤسفة احيانا .. فبحافز من هذه الغيرة بلغت عن قريبة لها رأتها مع شاب . وذاقت هذه القريبة من جراء النميمة اصنافا من العذاب .

ورغم تحفظها ومحاسبتها لنفسها ، كانت واعية لذاتها مقدرة لنفسها ، تعتز بقوتها العقلية والجسدية . ورغبة في حماية نفسها من المجازفة بما يشعرها بوهمها او انخداعها ، آثرت دوما التنحي ، وبعناد كلما قامت منافسة بين البنات .. وهنا ايضا انكشف السر المحيط بخيالها المتطرف الجامح ، المتطرف الى أقصى حدود التطرف ، والذي صور لها في احدى نوبات جنونها الكاذبة انها ابوها ، وانها تتمنى ان تجامع نفسها .

لقد اثر مرض ابنتها فيها هذا التأثير الكبير ، لأنها احتوتها في نفسها، وعاشت حياتها وكأنها هي ... والباعث قديم ... فهي أصيبت بكرامتها

ايضا ، ولن تنسى ، أو لن ينسى عقلها اللاواعي انها جاءت الى الدنيا ناقصة •• أي بعينين يَحوَلان • وقد أرغموها بعد عشر سنين ونيف على اجراء عملية جراحية ، كان فزعها منها لا يوصف •• حتى انها كادت تفقد عقلها وهي تفكر — قبل الجراحة — بأنها ستصبح عمياء ضريرة !

وتمكنا كذلك شيئا فشيئا من تفسير ذلك الهياج الوسواسي المنصب على حنجرتها • فذلك الشعور في حلقها كان بديلا عن أختيها ان تسمعا صوتها الجميل وان تعجبا به •• والرؤوس المدببة البارزة من فروة رأسها كانت القمل الذي وجد يوما في رأسها وكان مبعث عار لها في تفكيرها •• واستطالة اذنيها يرجع الى ايام الدراسة ، حينما كانت المعلمة تسميها الحمار احيانا •• وهكذا دواليك •

واقدم ما تمكنا من اكتشافه في ذاكرتها بعد محاولات كثيرة مضنية هو حادثة وقعت بينها وبين فتى صغير في مثل سنها •• في العلية في بيتها، أظهر لها عورته ، واظهرت له عورتها •• ولا اشك ابدا ان وراء هذا المشهد تكمن الانطباعات الاقوى التي اثرت في المريضة ذلك التأثير الكبير •• « فالغيرة القضيبية » التي دهمتها عقب ذلك الحادث ، جعلتها قادرة على تعيين الهوية ، او التمييز بينها وبين ابيها اثناء نوبات « البطاح » ، او هذيان الحمى • (عندي قضيب) •• كانت تردد وهي تهذي •••

واخيرا ، لا يسعنا ان نعتبر حالة ابنتها الخِلقية سبب مرضها بقدر ما نعتبر مجيئها بابنة ثانية ، لا بصبي ••• بل بابنتين (مخلوقتين بلا قضيبين • عاجزتين عن تصريف البول كصبيين — تصريفا لائقا) •• ومن ثم الرعب اللاواعي الذي أنشب بها مخالبه من جراء سلس ابنتها البولي •• ويبدو الى جانب ذلك ان مرض ابنتها الاول بدأ يحدث التأثير النامي في نفسها بعد وضعها للابنة الثانية •

عادت المريضة من زيارتها الثانية لبيتها وقد طرأ عليها تبدل ملحوظ • فقد فرّخت في قلبها فكرة جديدة ـ بأنهـا تؤثر الابنـة الثـانية ، وبأنها تتمنى ان تموت ابنتها الاولى المريضة •• كفت عن العويل !• كفت عـن التشكي •• عن ذلك المرض •• عن الوسواس المهتاج •• وشغلت نفسها بالتخطيط للعودة نهائيا الى البيت ، وفي القريب العاجل •

واكتشفت في خلفيات هذا التحسن الطارىء مقاومة قويـة لفكرة التوقف عن العلاج • أما من التحليل الذي اجريته لأحلامها فقد استنتجت انها نزاعة الى الشك في نزاهة طبيبها واستقامته •• أيقنت اني أتعمد اطالة مدة العلاج طمعا بالمال • ومن هذا الموقع حاولت العثور على الصلة بين تهيجها الشرجي وخوفها وهي طفلة من الحقنة الشرجية •• ولكني لم انجح الا جزئيا • فالمريضة تفضل طي قسم من خصائصها العصابية ، وحجبه عني• وقد نجحت في تكتمها هذا ، فلم أفطن الى هذا القسم المطوي ، وذهبت الى منزلها صحيحة قوية ، وكأنها برئت تماما من أوصابها •

والى جانب تطور هذا المرض السريع ، فان طبيعته الذاتية ، وصفته الفردية يسترعيان الانتباه ، ويحفزان الى كشف مـا يبطنان مـن تفـاعل عضوي وتطاحن فكري ــ تضارب بين الافكار المريضة • فنحن ازاء حالة اختلاط بين وسواس المرض المحض والاعراض الهستيرية • وفي مستهل التحليل برزت الصورة السريرية في شكل فصام ، بينما أظهر مضي الوقت ان هناك اعراضا طفيفة من (جنون الاضطهاد) •

ان طبيعة تشوشها الحسي الناشيء عـن الوسواس (أي ، التهيج المضطرب ، كالوخز ، والحك ، الخ) جدير بالملاحظة • فهـو ناشيء فـي الاساس عن النرجسية (افتتان المـرء بنفسه) ، وفي حالتها بجسدها •• ثم تحول الى شعور بالاعتلال والمرض لم يجد مصدا له •• وهو وسيلة

نفسية للتعبير عن تفاعل هستيري تصوري •• مثال ذلك ، استطالة اذنيها اصبح « كالنّصب التذكاري » لشيء خارق للطبيعة •

وهكذا نجد ان هناك مشاكل ـ لم تحل بعد ـ للأساس العضوي للتحول الهستيري والوسواسي •• ويتراءى ان الطاقة الانفعالية للشهوة الجنسية ــ بالنسبة للتركيب الجنسي في المريضة ــ كان لها ايضا بنية هستيرية او وسواسية متفوقة •

ولعلنا كنـا نعالج مريضـة بالاحتمالين المذكورين ، وان الجـانب الهستيري من العصاب جعل مـن التحول الوسواسي الـى هستيري أمرا ممكنا • ولكن حيث لا يكون هذا محتملا وممكنا يبقى الموسوس ممتنعا عن التحليل ، منطويا بكل قوة ، يقفل بجنون على تشوشه الحسي •

ان الوسواس المرضي البحت لا شفاء منـه ، الا اذا رافقته عنـاصر التحول العصابي •• وهذه العناصر متى وجدت تتيح المجال الكافي للعلاج النفسـي •• (لمعالجـة الاضطرابات النفسيـة والعاطفيـة بالوسائـل السيكولوجية) ، ويكون الامل كبيرا عند ذلك فـي احـداث النجـاح المنشود ، وفي شفاء المريض وابلاله •

★ ★ ★

هذه تفاصيل أخرى عن المريضة ، وما أظهره التحليل من الاسباب والبواعث :

راسي ينشق من الامام :

كان تعبيرا ، رددته كثيرا ، عن رغبتها في الحمل •• أحبت ان تضع المزيد من الاطفال (الذكور) بدلا من ابنتها المريضة ، وتلك الصحيحة •

لا شيء جديدا :

كان تعبيرا ايضا رددته كثيرا ، وفي كل مرة كانت تشير وهي تردده

الى جبينها •• وهذا ايضا كان يدل على عقدة الحمل ووضع الاولاد •• فقد اجهضت مرتين ، وندمت بشعورها اللاواعي على هذا الاجهاض •

أما وجيب القلب ، فهو بسبب الشعوز بالشهوة الجنسية الفائقة التي كانت تنتابها في كل لقاء لها مع شبان ذوي قوة تناسلية (والقوة التناسلية كان معناها في اعتقادها ، القدرة على المجيء بأطفال أصحاء ، وخصوصا بأطفال من الذكور) •

والرؤوس التي نبتت في رأسها ، لم يقتصر معناها على القمل فحسب ، انما على الاطفال الصغار ايضا •

رأت في احلامها اكياسا متدلية (اكياس مال ربما) • والتفسير المعقول والمرجح انها لو اقتنعت بضرورة شنق طفلتها المريضة ، فهي توفر المال الكثير •

ورأت في احلامها اختا لها ترقص حول الكعكة ، وأبوها موجود قريبا • وهو استعادة لليلة زفافها ، عندما أفسد عليها بهجتها تفكيرها بأبيها الموجود في مصح !

الطفلة التي لم
تستطع ان تنام

ميلاني كلين
MELANIE KLEIN

هـاجس عصـابي لطفلـة فـي
السادسـة مـن عمـرهـا •



ميلاني كلين

طبيبة نفسانية مارست التحليل النفسي في المانيا سنة ١٩١٩ ، ثم انتقلت الى انكلترا سنة ١٩٢٦ حيث ترأست احدى المجموعتين اللتين تزاولان التحليل النفسي الفرويدي . اما المجموعة الثانية فكانت ترئسها أنا فرويد ابنة سيغموند فرويد .

كانت تؤمن انه حتى مع الاطفال ينبغي للمحلل ان يتغلغل في اعماق الصراع الغريزي ثم يحيط الصغير بحقيقته . وكانت تشدد على ضرورة تفهم وسائل واساليب الصغير الدفاعية ، او حوائه الغريزية ، واحترام هذه المواقف التي يقفها ، ومساعدته في نفس الاونة على القصد فيها وتعديلها .

وقد اجرت التحليل النفسي ايضا لاطفال لا يتجاوزون الثالثة . فكانت تستعيض عن الحديث الذي لا يتقن الطفل تبادله ، بالالعاب والدمى ، فيلعب بها وتراقبه هي ، وتسجل اسلوبه في اللعب ، وتحاول ان تكنه القوى اللاواعية التي تنشط في داخله .

يلعب بدميتين لاب ، او ام ، او اخ ، او اخت . وتعرف من طريقة لعبه بها شعوره اللاواعي نحو اعضاء اسرته ، وتطلع على حقيقة مشاعره ، بدلا من ترك هذه المهمة له .

وهذه القضية مثل عن اسلوبها التحليلي للصغير ولدماه . وكان لعبه بهذه الدمى ممثلا لكثير من المشكلات القائمة في بيته .

وهذه القضية ايضا تبين اهمية التبكير في التحليل ، وتثبت انها كثيرا ما تحول دون تعرض الطفل للاعتلال العقلي في المستقبل .

الطفلة التي لم تستطع ان تنام

إرنا الطفلة ، ابنة السادسة ظهرت عليها اعراض بالغة الخطورة ..
قاست من السهاد الناشيء جزئيا عن القلق (بنوع خاص الخوف من اللصوص وخاصة من يسطو منهم على البيوت) . وجزئيا من ممارسات غير سوية .

ومن هذه الممارسات الانكفاء بوجهها على الفراش وضرب رأسها بالوسادة .. والحركة المتأرجحة وهي قاعدة او مستلقية على ظهرها .. وامتصاص باهمها بلا انقطاع ، والاستمناء المفرط .

كل هذه الممارسات المنحرفة التي أرقتها في الليل ، قامت بها ايضا اثناء النهار . وكان هذا ينطبق ايضا على عملية الاستمناء التي اجرتها علنا احيانا ، بل امام الضيوف .. وفي روضة الاطفال ، دون اكتراث بالغير .

وقاست ايضا من حالات كآبة حادة ، كانت تعرب عنها بقولها :

« هناك شيء لا أحبه في الحياة . »

علاقتها بأمها كانت وثيقة ، تظهر لها من الحب أعظمه ، ولكنها احيانا ينزو شعورها فتتحول الى موقف عدائي متطرف . وقد تسلطت على أمها ، بل انها أسرتها وعاملتها معاملة السيد للمسود .. حرمتها من

حريتها ، استعبدتها ، ابتلتها بالحب والكره •• كانت مع أمها تماما كما وصفتها تلك الام بقولها :

« انها تبتلعني ! »

ولا نغالي أو نظلم ان قلنا انها كانت عصية على التعلم ، غير قابلة ابدا لتقبل الثقافة النفسية • وكان جلوسها الطويل في سكون وتفكير عميقين ترتسم آثار على صفحة وجهها بخيوط الكآبة والهم •• ولا يعتبر من صفات الطفولة الطبيعية • والى جانب ذلك فقد كانت تخلف الانطباع بأنها أحرزت النضج الجنسي قبل الاوان •

ومن الاعراض التي برزت قبل غيرها حينما بدأ التحليل ، هو الاعاقة الباطنية للتعلم في المدرسة ، وقد تبين انها غير قادرة على تحصيل العلم ، ولا تستطيع التكيف مع المدرسة أو مع اولاد المدرسة الذين يماثلونها في السن •

وشعورها الذاتي بأنها مريضة ، كما توضح لي في مستهل مرحلة العلاج ــ فهي رجتني باكية ان أعالجها ــ كان معينا لي على تحليلها ومعرفة ما يخالجها ويختمر في صدرها •

بدأت إرنا اللعب بعربة صغيرة وضعت فوق المائدة مع ألعاب مختلفة ، دفعت العربة نحوي وقالت ان العربة آتية لتحملني اليها •• ولكنها وضعت في العربة دمية امرأة بدلا عن ذلك ، واضافت اليها دمية رجل • وكان الاثنان يحبان بعضهما بعضا ، ويتبادلان القبلات ، والعربة آتية غادية •

وعربة ثانية تحتلها دمية رجل آخر ، صدمت العربة الاولى ، فأسقطتهما ، ومرت فوقهما ، فقتلتهما • ثم شواهما الرجل الدمية الثاني وأكلهما ••

في المرة الثانية انعكس الوضع ، فسقط الرجل الدمية المهاجم •• ولكن الدمية المرأة ساعدته على النهوض وخففت عنه ••• ثم طلقت زوجها ، وتزوجت به •

وكان لهذا الشخص ادوار شتى في ألعاب ارنا •• مثلا ، كان الرجل الاول مع زوجته في بيت عندما هاجمها لص ، فأخذا يدافعان بكل قوة • وكان الرجل الآخر هو اللص المعتدي ، وقد دخل البيت •• واحترق البيت ، وانفجر الزوج والزوجة ، وبقي اللص حيا ، لم يصب بأذى •

ثم مثلت هذا اللص أخا جاء لزيارة اخته ، ولكنه وهو يقبلها عض انفها •• هذا الرجل كان في هذه الآونة (ارنا) نفسها •

في هذا المسلسل من الالعاب ، مثلت ارنا رغبتها ولهفتها في اقصاء أبيها ، وابعاده عن أمها •

من ناحية اخرى ، اظهرت ارنا في ألعابها عقدة « أوديب » بكل جلاء •• عقدة حب البنت لأبيها ، ورغبتها في التخلص من أمها والاستئثار به • وهكذا جعلت المعلم الدمية يعطي الاولاد دروسا في عزف الكمان ، وذلك بضرب رأسه على الكمان ، او بالوقوف على رأسه وهو يقرأ في كتاب •

هذا التصرف قارناه بالعارض الذي كان ينتابها تكرارا ، فتضرب رأسها بالوسادة كلما سنحت الفرصة • وهذه لعبة اخرى تبين بوضوح ان اللاوعي عند ارنا اتخذ الرأس صفة القضيب : فرجل دمية اراد دخول سيارة وابرز رأسه من النافذة •• فقالت له السيارة :

« من الأفضل أن تدخل ! »

ووقفت السيارة لأمها ، ودعت أباها ليمارس الاتصال الجنسي معها •

أما المعلم فقد جعلته يرمي الكتاب او الكمان — أيهما كان معه —

ويرقص مع تلميذته •• ثم قبلها وقبلته ، وعانقها وعانقته • هنا استوضحت ارنا مني ان كنت أوافق على زواج المعلم بتلميذته •

في حالة اخرى كان المعلم والمعلمة الدميتان ، يلقنان الاولاد طريقة الانحناء واداء التحية ، في البدء أظهر الاولاد الطاعة والكياسة (كما كانت ارنا دائما تحاول الظهور بمظهر مهذب مؤدب في تصرفاتها) • وفجأة هاجم الاولاد المعلم والمعلمة ، واسقطوهما على الارض ، وداسوهما وقتلوهما ، وشووهما ، وأكلوهما ••

وانقلب الاولاد الى شياطين ينظرون برضا وحبور الى المعلمين ومـا أصابهما من عذاب •• ولكن ، وبأسرع من البرق انتقل المعلم والمعلمة الى السماء ، وتحول الشياطين الى ملائكة •• ولم يعرفوا انهم كانوا شياطين كما قالت ارنا :

« حقا ••• لم يكونوا شياطين قط » •

وأقبل الاله ، المعلم السابق على المرأة يعانقها ويقبلها بحب عظيم ، واخذ الملائكة يهللون ويهتفون •• وصفا الجو ، وعم السرور ••• ولكن لتشيع الفوضى ثانية بعد وقت قصير •

كثيرا ما كانت إرنا تلعب دور الام ، وكنت الطفلة ، وذنبي الأكبر عادة امتصاص باهمي • أول شيء اضعه في فمي كان قاطرة •• وكانت معجبة جدا بمصباحيها المطليين بلون الذهب ••

« ما اجملهما ! حمراوان ، مشتعلان ! »

كانت تقول هذا وتضعهما في فمها وتمتصهما •• كانا بمثابة ثديي أمها وقضيب أبيها •

وكان دائما يتبع هذه الالعاب ثورة غضب •• كانت تنفجر غضبا على

أمها ••فتظهر لواعج غيرتها وحسدها ، ويتبع هذه الثورة ندم ومحاولات لاسترضائها ••

وفي لعبة الآجر ، كانت تقسم الحجارة بيننا ، فتأخذ هي القسم الاكثر عددا •• ثم تنصف ، فتأخذ مرة ثانية القسم الاقل عددا •• ولكنها في النهاية كانت دائما صاحبة العدد الاكبر • ومتى كنت أبني بآجري شيئا ، كانت هي تسمح بذلك لتثبت تفوق بنائها على بنائي ، او لتهدم بنائي متعمدة ، ولكنها تحاول ان تظهر ذلك كأنه وقع بالصدفة •

وكانت تنصب قاضيا من رجل دمية ليحكم ان بناءها أفضل من بنائي ، ومن اللعبة اتضح انها تعبر لاشعوريا عن منافسة حامية مع أمها •• وفي وقت تال من التحليل سفرت عن هذا التنافس بشكل مباشر •

وبدأت الى جانب هذه الالعاب تقص الاوراق وتصنع من القصاصات نماذج مختلفة •• قالت لي مرة انها تفرم اللحم وان الدم ينزف من الورق •• واقشعر بدنها ، فارتعدت ، وقالت انها تشعر بالغثيان •

مرة قالت انها « سلطة العيون » •

ومرة ثانية قالت انها تقطع « الحواشي » في أنفي •

وهنا كانت تكرر رغبتها في عض انفي واقتطاعه ! وهذا ما قالته في اول ساعة • (وقد بذلت في الواقع عدة محاولات لتحقق امنيتها) •

وبهذا ايضا اظهرت في نفسها شخصية الرجل الدمية الذي اقتحم البيت واشعل فيه النار ، وكذلك الذي كان يقتطع الانوف •

ومن التحليل الذي اجريته معها ومع سواها من الاطفال ، كان معنى تقطيع الورق مختلفا كل الاختلاف •• فهو الدليل القاطع على النزوات السادية ، ونزوات الكانيبالية (أكل لحم البشر) • ويمثل تدمير اعضاء

الابوين التناسلية ؛ وجسد أمها كله .

وفي الاوان نفسه ، عبر هذا عن الدوافع الارتكاسية ، لأن الشيء المقطوع ، الذي دمر قد أعيد خلقه من جديد .

من قص الاوراق تحولت ارنا الى اللعب بالماء .

قطعة ورق صغيرة طافية في الحوض كان الربان الذي غاص مركبه في البحر . وقد تمكن من انقاذ نفسه ـ كما زعمت ارنا ـ بفضل شيء « طويل وذهبي » مكنه من العوم . ثم قطعت رأسه واعلنت :

« ذهب رأسه ، الآن قد غرق ! »

هذه الالعاب المائية مكنتني من التعمق في تحليل تصوراتها في ساديتها الفمية ، وساديتها الاحليلية ، وساديتها الشرجية .

مثال ذلك ، كانت تمثل دور المرأة الغاسلة الثياب ، مستعملة قطع الورق كثياب طفلة متسخة . وكنت انا الطفلة المنتظر ان اوسخ ثيابي مرة تلو مرة . وصدف ان ابرزت ارنا غرائزها الكانيبالية (وحشية اكل لحم البشر) والكوبروفولية (الروثية ـ حبها للعبث بالقذر) ، بما اخذت تلوكه وتمضغه من قطع الورق التي كانت تمثل براز الاطفال والثياب المتسخة .

وبصفتها المرأة الغاسلة سنحت لها الفرصة لتعذيب الطفلة ومعاقبتها واذلالها ، لاعبة بذلك دور الام القاسية . ولكنها في نفس الاوان انتحلت صفة الطفلة ونقعت غليل نزعتها الماسوشية (التلذذ بالتعذيب) . وقد تظاهرت مرارا بأن الام جعلت الاب يعاقب الطفلة وينهال على قفاها ضربا .

وهذا العقاب أوصت به ارنا في دورها كغاسلة ثياب ، كوسيلة لعلاج الطفل ومنعه من حب الاوساخ .

ومرة أتى ساحر بدل الاب ، فضرب الطفلة على استها ثم على رأسها بعصا ، وبينما هو يضرب تدفق سائل اصفر من عصا الساحر .

وفي مناسبة ثانية اعطيت الطفلة ــ الصغيرة اكثر من قبل ــ مسحوق « احمر وابيض » مختلطا ببعض . فنظف هذا الطفلة، ومكنها فجأة من الكلام ، فغدت بارعة كأمها . (وهذه التصورات تتركز على القضيب وهو في حالة « قائمة » شافية ..) فالساحر يرمز الى القضيب ، والضرب بالعصا معناه الاتصال الجنسي . والسائل والمسحوق يرمزان الى البول ، والبراز ، والمني والدم ، وكلها حسب تصورات ارنا ، احتوتها امها في داخلها في التسافد بفمها واستها واعضائها التناسلية .

في يوم آخر غيرت ارنا نفسها من غاسلة ثياب الى بائعة سمك ، وشرعت تنادي على بضاعتها . وفي خلال هذه اللعبة ، فتحت صنبور الماء بعد ان لفته بالورق . وعندما انتقع الورق بالماء وسقط في الحوض ، مزقته وعرضته للبيع كسمك . وشربت الماء بشراهة من الصنبور ، ومضغت الورق الممثل للسمك بنهم شديد، وهذا دل بوضوح على ما شعرت به من حسد اثناء المشهد الاول وفي تصوراتها الاولى . وهذا الحسد قد أثر على نمو خلقها تأثيرا عميقا ، وكان ظاهرة اساسية في عصابها . وسنبحث بعد قليل في الصلة بين ملاحظات ارنا عن صلة ابويها الجنسية وعصابها هي بالذات .

وقرن السمكة بقضيب ابيها وكذلك بالغائط والاطفال ، تبدى بوضوح وجلاء في تداعي الافكار عندها . كان عندي تنويعة من السمك للبيع من بينها سمكة الكوكل ، أو كما اخذت فجأة تدعوها «كاكل فيش» . و « الكاكي » معناها البراز في تعريف الحضانة الالماني . واذ كانت تقطع هذه شعرت فجأة بالرغبة في التغوط . كبائعة سمك خدعتني ارنا وغشتني بشتى الطرق . تأخذ مبالغ من المال كبيرة ولا تعطيني سمكا . كنت مستضعفة امامها لأن رجل بوليس كان يساعدها . ومعا « حفقا » المال

الذي رمز ايضا الى السمك (استعملت كلمة المانية بمعنى خفق القشرة) • والبوليس مثل الاب الذي تسافدت معه ؛ والذي كان حليفها ضد امها•

وكنت اراقب وهي « تخفق المال » مع رجل البوليس ، ثم أحاول ان استرده بالسرقة • وفي الواقع كان علي ان أتظاهر بعمل ما تريد هي عمله مع أمها ، أي محاكاتها في العملية الجنسية التي رأتها ارنا تمارسها مع ابيها • فهذه الدوافع السادية كانت وراء قلقها الشديد بخصوص امها • وقد اعربت مرارا عن خوفها من « امرأة لصة » تأخذ كل شيء في داخل جسمها •

وقد تجلى المعنى الرمزي للمسرح والمسرحيات كجماع بين الابوين في التحليل الذي أجريته معها • كل دور وكل مشهد كان ينطوي على مغزى هذا الاتصال الجنسي •

والاستعراضات العديدة المتنوعة التي مثلت فيها كنجمة راقصة حازت اعجاب النظارة والمشاهدين ، اظهرت اعجابها الهائل ــ اعجابا مشوبا بالحسد ــ الذي كان يختلجها من امها • وما اكثر ما مثلت دور الملكة ــ امها ــ التي انحنى امامها الجميع بخضوع •

ودائما كانت الطفلة هي المغبونة • في كل هذه الاستعراضات أو التصورات المسرحية ، كانت هي المقهورة • كل اداء كانت فيه الام ــ عطفها على زوجها ، حبها لزوجها ، طريقة ارتدائها لملابسها ، تهندمها ــ كانت له غاية واحدة ، هي اثارة حسد الطفلة وتخديش شعورها • مثال ذلك ، عندما احتفلت كملكة بزواجها بالملك ، استلقت على الاريكة ، وارادت مني ، أنا الملك ، ان استلقي بجانبها • ولما رفضت ، كان علي ان اجلس على كرسي قريبة منها ، واضرب الاريكة بقبضتي •

وهذا سمته « المخض » ، ومعناه الجماع • وبعده مباشرة اعلنت ان

طفلة كانت تزحف خارجة منها ، ومثلت المشهد بطريقة واقعية صحيحة ، ترتعش وترتعد وتئن .. ثم شاركت الطفلة ابويها في غرفة نومهما ، لترى مشاهد الاتصال الجنسي بين الاثنين .

فاذا أزعجتهما انهالا عليها ضربا . وكانت الام لا تفتأ تشكو أمرها الى الاب . واذا وضعت هي ـ كالام ـ الطفلة في سريره ، فانها تفعل هذا رغبة في التخلص منها بسرعة ، كي تعود الى الاب . وقد عذبت الطفلة على نحو متواصل ، ونكل بها . واعطيت دائما العصيدة كطعام ، وكان كريها اصابها بالمرض ؛ بينما ابوها وامها نعما بالطعام الممتاز الشهي المصنوع من القشدة المخفوقة ؛ او من حليب خاص صنعه الدكتور ديبو او ديبور ـ اسم ركبته من مخفوق (بالانكليزية) ومدفوق (بالانكليزية) . وهذا الطعام الخاص المنفرد به الاب والام ، كانت تستعمله تعبيرا عن تبادل المواد اثناء الجماع .

فتصورت ارنا بأن الجماع عبارة عن اتحاد أمها مع قضيب ابيها واتحاد ابيها مع ثديي امها وحليبها، شكل الاساس لحقدها على أبويها وحسدها لهما.

وفي احدى « تمثيلياتها » ، قام قس بفتح صنبور الماء ، وقامت زميلته الراقصة بشربه . والطفلة المدعوة سندريلا سمح لها فقط بالنظر على ان لا تحرك ساكنا . والثورة المخيفة التي اندلعت فيها في هذه الآونة ؛ بينت مقدار ما رافق تصوراتها من كره ، وسوء تصرفها وهي تعاني من مشاعر الحقد هذه .. فقد شوه الحقد هذا علاقتها بأمها .. فكل اجراء تهذيب توسلت به الام ، وكل محاولة لاحلال النظام ، كل عمل مارسته الام شعرت بأنه عمل سادي المراد منه تعذيبها وقهرها ، بل واذلالها الى أقصى حدود الاذلال .

ومع ذلك ففي تمثيلها لدور الام ، اظهرت ارنا عطفا شديدا لابنتها

الخياليةوهي بعد طفلة صغيرة ، كما تغاضت عـن اتساخها حتـى كثرت الاقذار •• وذلك لأنها كانت متأكدة انها في ابان الطفولة عوملت معاملة حسنة •• أما لابنتها التي كبرت قليلا في السن ، فانها أظهرت القسوة والعنف ، وتركتها تقاسي العذاب على ايدي الشياطين والعفاريت بشتى الطرق والاساليب ، وتركتها تموت قتلا !

في هذه القضية غضب الطفلة على اشيائها كـان فائقا كل حـد ، فأساس المشكلة هو ان « الأنا العليا » تحول ضد « الهذا اللا واعي » •• « الأنا » يهرب مـن الحالة التي لا تطـاق بواسطة « بروز » او « تتوء » • وهذا البروز يرمز الى الشيء كالعدو حتى يقدر «الهذا» على تدميره بطريقة سادية وبموافقة « الأنا العليـا » ، فاذا نجحت « الأنـا » فـي انشاء حلف بين « الانا العليا » و « الهذا » بهذه الطريقة ، فانها تستطيع اقصاء سادية « الانا العليا » المركز على « الهذا » الى الدنيا الخارجية • بهذا الاسلوب فان الدوافع السادية الاساسية الموجهة ضد الشيء تتضاعف قوة وحدة من جراء البغضاء الموجهة ضد « الهذا » •

وكون الطفلة أما تحوات الى طفلة توضـّح بكـل جلاء فـي التصور التالي :

مثلت ارنا دور الطفلة التي لوثت نفسها بالاوساخ ، ومثلت انا دور الام التي توبخها ، لتظهر نتيجة ذلك القحة والغطرسة ، وبدافع من التحدي ضاعفت من اتساخها •• ولكي تثير غضب امها وألمها اخذت تتقيأ وتخرج الطعام الكريه المعطى لها • ودعي الاب عند ذلك ، دعته الام ، ولكنه أيـد موقف الطفلة وعاضدها •

وتبع ذلك وقوع الام في براثن المرض ، مرض اسمه « الله كلمها » •• ثم مرضت الطفلة مرضا اسمه « امتعاص الام » وماتت منه • وقام الاب

فقتل الام عقابا لها •

وبعثت الطفلة حية ، فتزوجت الاب الـذي يمدحها ويشيد بهـا على حساب الام • ثم بعثت الام حية ايضا ، ولكنها عوقبت فحولت الى طفلة ، الاب عاقبها وحولها بعصاه السحرية الى طفلة ، لتقاسي مما قاسته الطفلة من معاملة سيئة ، وخشونة ، وتأديب فظ •

في تصوراتها العديدة عن الام والطفلة ، كانت ارنا تكرر ما شعرت بأنها اختبرته ، كما انها في هذه التصورات كانت تعبر عن المعاملة السادية التي تحب ان تعامل بها امهـا ، اذا انقلبت العلاقة ، فأصبحت هـي الام ، واصبحت الام هي •

وقد سيطرت على حياة ارنا العقلية تصورات سادية • ففـي مرحلة متقدمة من مراحل التحليل ، بدأتها كالسابق بالالعاب المائية ، جمـح خيالها فتصورت الغائط « المحمص » على الثياب المتسخة يطبخ ويؤكل • فمثلت نفسها جالسة في المرحاض تأكل ما تفرزه ، أو مثلتنـا نحـن الاثنتين فـي المرحاض تتبادله لنأكله • وبرز تصورها بقـوة ووضوح اكثر فأكثـر في عملية تبادل التوسيخ بيني وبينها بالبول والبراز اثناء التحليل •

وفي لعبة اخرى اظهرت امها تتسخ مرة تلـو المـرة ، اظهرتها تلوث نفسها باستمرار ، واظهرت كل ما في الغرفة متحولا الى غائط بسبب امها • وكعقاب لهذه الام ألقي بها في السجن ومنع عنها الطعام ، فتضورت مـن شدة الجوع • ثم كلفت هي بتنظيف ما احدثته امها مـن قذارة ، ودعت نفسهـا « السيدة المستعرضة بالقذر » ـ أي الشخص الـذي يستعرض بالوسخ • ولحرصها على النظافة ظفرت باعجاب وحب ابيها ، فقدمها على أمها ، وآثرها بحبه ، وتزوجها • وطهت لـه طعامه •• وكـان الطعـام والشراب الذي تبادلا مكونا من البول والغائط ، ولكن من نوع جيد ،

لا من نوع مضر كما كان ــ وما تقدم هــو مثــل عــن تصوراتها السادية الشرجية التي تبدت بوضوح من خلال التحليل •

كانت ارنا وحيدة ابويها ، وبطبيعة الحال كانت تتخيل مجيء اخــوة لها يزاحمونها • وتصوراتها بهذا الخصوص تستحــق الانتباه والتفكير ، فهي كما لاحظت تصورات لها طابع عام ، وتنطبق على امثالها الصغار الذين لم يكن لهم أخ أو أخت • فالطفل الوحيد عادة يتألم اكثر من سواه مــن مشاعر القلق التي تستحوذ عليه من احتمال مجيء مزاحم لــه •• فخوفه مستمر •• لان الاحتمال بمجيء المزاحم مستمر •• وكذلك يعاني هــذا الطفل الوحيد عادة من شعور الذنب نحو المزاحم بسبب الروح العدائية اللاواعية من وجوده الوهمي داخل جسم امه ، لأنه ــ وهــذا ثابت ــ لم تتح له الفرصة لتكوين علاقة ايجابية معه في واقع الحياة •

وهذا الواقع كثيرا ما يجعل من العسير على الطفل ان يتكيف مــع المجتمع ، وان يتوافق معه •• وقد مر وقت طويل منذ بدأت التحليل ، كانت ارنا خلاله تصاب بنوبات شديدة من الغضب والاضطراب الهائج فيمستهل الساعة التي كنا نقضيها معا وفي آخرها • وكان هذا بسبب التقائها الطفل الذي جاء للمعالجة مباشرة قبل مجيئها أو بعــده ، واعتبرته هي الاخ الذي كانت تتوقع ــ بخوف ــ مجيئه •

ومن ناحية اخرى ، وبالرغم من عدم توافقها مــع الاطفال ، وقلــة انسجامها معهم في عبثهم ولهوهم ، فانها شعرت بالفراغ العظيم ، شعرت بحاجة ماسة الى الاختلاط بهم •• وكانت رغبتها في وجود أخ أو أخت ، التي اعربت عنها أحيانا ، في نزوة من نزواتها ، مستحثة بعدد من الحوافز، من أهمها المحرضات التالية :

١) الاخوة والاخوات الذين طلبتهــم وتاقت اليهــم معناهم طفل لهــا

خاصة . وهذه الامنية شوهها الشعور بالذنب ، لأنها لو تحققت لكان معناها انها سرقت طفلا من امها .

٢) وجودهم من شأنه ان يؤكد لها ان الهجوم الـذي شنته مرارا في مخيلتها على الاطفال المفروض وجودهم داخل امها ، لم يسفر عـن تحطيم لهم أو لأمها ، وبالتالي لم يصب جسدها في الداخل بالعطب، بل سلم من الاذى .

٣) كانوا سيتيحون لهـا المتعة الجنسية التي ضن بها أبواها عليها .. والاهم من هذا كله .

٤) انهم يكونون حلفاءها ، ليس في الامور الجنسية فحسب ، انما في اعمال موجهة الى أبويها الرهيبين ايضا . فهي وهم يشتركون فـي قتل امها واعتقال قضيب ابيها . فالصغار في علاقتهم الجنسية مـع بعضهم البعض، خاصة اذا كانوا اخوة واخوات، يرون في التصورات انفسهم فـي حلف واحـد موجه ضـد الأبوين ؛ ويعانون احيانا من الشعور بالذنب مما يورثهم احيانا العقدة الأوديبية .

بيد ان هذه التصورات التي عرضت لإرنا ، كانت تتبعها علـى الفور مشاعر البغض الشديد نحو اخوتها واخواتها الذيـن تخيلتهم ــ فهم ليسوا الا بدلاء عن أبيها وامها ــ وكذلك الشعـور الممض بالذنب بسبب مـا ارتكبوه من أعمال مدمرة ضد أبيها وأمها ، في خيالها المريض . وينتهي بها الامر عادة الى الارتماء في احضان الكآبة .

هذه التصورات أقامت حاجزا مرتفعا بينها وبين اقرانها ولداتها ، فلم تستطع مخالطتهم وملاعبتهم . كانت تزورّ عنهـم لأنهـا تمثلتهم اخوتها واخواتها ، وبذلك اعتبرتهم شركاء في المؤامرة مـن ناحية ، ومـن ناحية اخرى ، خشيتهم كما تخشى الاعداء ، لما اضمرته من عداء مكتوم لاخوتها

وأخواتها .

وقضية ارنا تسلط الضوء على عامل آخر اعتبره عظيم الاهمية من ناحية عامة . فللصغير علاقة ذات طابع خاص بالواقع . وكل فشل في التكيف الصحيح مع الواقع ، يظهر بوضوح في التحليل الجاري والمتوسل اليه بالالعاب ؛ ولا بد من تقريب الطفل مهما كان عمره من الحقيقة ليلمسها ويعرفها .

اما مع ارنا فلم اوفق — رغم التحليل المسترسل — الى معرفة تفاصيل حياتها الحقيقية . عرفت القدر الكبير والمعلومات الكثيرة عن دوافعها السادية الموجهة ضد امها ؛ ولكني لم اسمعها قط تتذمر من أو تنتقد امها « الحقيقية » ، أو ما كانت تفعله في الواقع . ومع ان إرنا اعترفت بعد انكار واصرار ان تصوراتها موجهة ضد أمها ؛ ومع انها حاكت امها وتصرفت تصرفها باسلوب مغالى فيه ؛ مثير للبغض والاستياء ، فقد كان من الصعب معرفة الصلة بين تصوراتها وواقع الحال . ولم يسفر ما بذلته من جهود لاخضاع حياتها الواقعية للتحليل عن نجاح ، ولو بمقدار ضئيل ، لم انجح في قليل أو كثير الا حينما اجريت تحليل الاسباب العميقة الخفية لرغبتها في انتزاع نفسها من الحقيقة انتزاعا كليا .

فقد استبان لي ان علاقة إرنا بالواقع والحقيقة كانت واجهة ؛ أو مظهرا كاذبا مموها .. فارنا في الحقيقة كانت تحاول ما وسعها الامر ان تحيط نفسها بدنيا الاحلام ، وان تحمي دنياها هذه من الحقيقة. مثال ذلك: كانت تتصور العربات اللعبة ، والحوذية اللعبة ، اشياء تخدمها هي ؛ وانها تحت تصرفها وسيطرتها ؛ تأتيها بكل ما ترغب فيه ؛ وان النساء اللعبة كن خادماتها ، وهلم جرا .

حتى وهي في إبان هذه التخيلات والتصورات كانت تثور غاضبة ؛

ويساورها من الكآبة شعور طاغ .. وعند ذلك كانت تدخل بيت الراحة، وتطلق العنان لنزوة الخيال وهي تتغوط .

ومتى خرجت كانت ترتمي على الأريكة وتأخذ في امتصاص باهمها بشغف ، وتستمني ، وتنقر أنفها . واقنعتها بعد لأي باطلاعي على تصوراتها اثناء التغوط ، ومص الباهم ، والاستمناء ، ونقر الانف . فبواسطة هـذا الارضاء الجسدي والتصورات المرافقة له ، كانت تسعى بكل قوة الـى الاستمرار في حلم النهار نفسه ، في وضعية هذا الحلم الذي رافق لعبها .

اما الغضب الذي إنتابها اثناء لعبها فسببه انقطـاع مفاجىء فـي تصوراتها ، او غزوة طارئة للحقيقة .. وهي تذكرت وذكرت ايضا مقدار ما كان يساورها من قلق ، اذا ما دنا أحد من سريرها وهي تمتص اصبعها، أو تستمني . ولم يكن السبب خشيتها من افتضاح امرها ، بمقدار ما كان الرغبة في صد الحقيقة ومنعها .

والتمويه الذي برز اثناء التحليل ، واتخذ شكلا لا نظير له من حيث الاتساع والشمول ساعدني في صوغ حقيقة لاقت منها القبول ، وكـانت من قبل مرفوضة رفضا باتا . لقد اكتشفت ان بتر الواقع بهـذا الاسلوب الحاسم ، مستعينة في ذلك ايضا بوهم العظمة الذاتية التي تتصورها ، له سبب واحد ، فهو نابع من خوفها المريع من أبويها ، وبصفـة خاصة مـن أمها . وهي للتقليل من هذا الفزع ، اخذت تتخيل نفسها سيدة ذات سلطان وقوة وعظمة ، وذات سيطرة متناهية على امها .. مما أضاف الى ساديتها وكثف منها .

وشيئا فشيئا برز جنون الاضطهاد في طبعها .. فخيالها الجامح صور لها امها وحشا يطاردها ويضطهدها ويروم افتراسها .. فهـي اعتبرت كل اجراء يستهدف تهذيبا او تلقينا او تعليما ، حتـى مـا يتعلق بثيابها ، عملا

موجها ضدها ، لا يراد منه الا تعذيبها ، وطبعا ، المعذبة هي امها ! وعلاوة على ذلك ، بدأت تعتبر مـا تظهره امها من مودة لأبيها ، وما تأخذ به نفسها احيانا من صنوف الترفيه ، أعمالا مقصودة مدبرة ترمي الـى اضطهادها هي والتنكيل بها •

وشعرت كذلك انها مراقبة • واحد الاسباب التي جعلتها تركز على أمها ، وتتعلق بها ، ولا تفكر الا بأحوالها وشؤونها كان ما سيقت اليـه مرغمة من مراقبتها الدائمة لهـا •• فقد أظهر التحليل ان إرنـا شعرت بأنها المسؤولة عن كل وعكة تصاب بها أمها ، وانهـا لذلك ستنال العقاب ، لمـا تتصوره دائما من الامور الكريهة التي ستصيب امها ، ولما تتمناه ايضا من تعرض أمها للكرائه •

ان تمخض « الأنا » الشديد في اعماقها اتضح في الالعاب التي كانت تمارسها ، وفي التصورات التي كانت تستقطبها •• فهي تراوحت بين الام الصارمة الموقعة للعقاب والطفلة المبغضة • وقد اقتضى هذا تحليلا اكثر عمقا وتفصيلا ، لكـي أكشف النقاب عـن تصورات مطابقة لما يعرف في الانسان البالغ بأوهام « جنون الاضطهاد » • وقد استنتجت مما مر بي اثناء التحليل الطويل ان القلق الفريد في نوعه الذي قاست منه إرنا ، وان التخيلات العجيبة ، وان صلتها بالحقيقة والواقع ، هي مـن النوع الذي تنطلي عليه صفة جنون الاضطهاد ، فالمصاب به يتصرف الى حد كبير ، مثل هذه التصرفات الشاذة •

هنا لا بد لي من لفت الانتباه الى ميول إرنا الشذوذية التـي كـانت قوية كل القوة ، عنيفة كل العنف منذ نعومة أظفارها • وبعد ان حللت جانبا كبيرا من كرهها لأبيها المنبعث من عقدة أوديب فيها ، فان هذه الميول والنزعات ــ ولو قلت الى حد ما ، ما برحت قوية ، وبدا لي انها لن تتفكك

عراها ، وتنحل روابطها •

وبعد الجهد الجهيد والعناء والضنى ، تخلخلت مقاومتها واخذت تتفكك تباعا ، وبالتالي بدأ يبرز الى النور طبعها الحقيقي ، وتخيلاتها الاضطهادية وعلاقة هذا الشعور المر بالاضطهاد بشذوذيتها الجنسية • واخذت رغباتها الحبية العشقية تتضح في شكلها الايجابي بالتناوب مع شعورها الخيالي بالاضطهاد •

ولعبت ارنا مرة اخرى دور البائعة صاحبة المتجر (وما باعته كان الغائط ، فهي من اول اللعبة قطعتها لكي تذهب وتتغوط) • وانا كنت الشارية ، ويترتب علي ان أفضلها على سائر الباعة اصحاب المتاجر ، واعتبر بضاعتها أفضل بضاعة • ثم اصبحت هي الزبون وأحبتني ، وبهذه الطريقة مثلت علاقة الحب الشرجية بين امها ونفسها •

وكانت هذه التخيلات الشرجية تقاطع مرارا وتباعا بنوبات من الكآبة والبغضاء موجهة الي ، وهي في الواقع متجهة الى أمها • في هذا المجال اثمر خيال إرنا الجامح برغوثا « أسود أصفر مختلطا » •• تبينته فورا كقطعة من غائط ــ غائط خطر سام كما اثبت • وقالت ان هذا البرغوث خرج من شرجي واقتحم شرجها وأعطبها •

في حالة ارنا اثبتت بدون أقل شك او تردد وجود ظاهرة مألوفة ينطوي عليها شعورها بالاضطهاد ، هي تحول الحب الى أحد الابوين الذي من الجنس نفسه الى بغض •

وبين الاسترسال في التحليل ان وراء شذوذية ارنا ، وفي الغور العميق من ذاتيتها يكمن شعور فائق بالكره نحو أمها ، مستمد من عقدتها الاوديبية وساديتها الفمية • وهذا الكره انتج القلق الشديد ، والقلق هذا

بدوره كان العنصر المقرر في كل تفصيل مـن تفاصيل الشعور بالاضطهاد • وانتهى بنا الامر الى رفع النقاب عن خيالات سادية جديدة ، كانت فـي كثافتها السادية تفوق كل شيء مررت به فـي تحليلي لإرنا • وكـان هذا أشق جزء من العمل ، وقد جعلها تتردد فـي التعاون الـى أقصى حـدود التعاون ، لما رافقه من اضطراب مفرط •

فتلهفها الـى بلوغ الوطر مـن لـذة منبعثة مـن الاعضاء التناسلية افترضت ان يكون ابواها يتشبعان بها اثناء الجماع ، كان الاساس الاعمق لكراهيتها • وعبرت عن كراهيتها هذه بصورة متكررة في صور متعددة من الخيال موجهة مباشرة ضد جماع ابويها • في هذه الصورة المتخيلة كانت تهاجمهما ، وبنوع خاص امها ، بواسطة برازها ، مـن ضمن اشياء اخرى • وغائط (البرغوث) ، الذي ظنته أدخل فيها ، كـان الخيال الاكثر الحاحا الذي صورها تدمر « داخل أمها » بغائطها الخطر السام •

وبعد الاسترسال في تحليل هذه الخيالات السادية الراجعة الى طور مبكر ، قل تركيز ارنا الشذوذي على امها وقوي اشتهاؤها لأفراد الجنس المتغاير •

حتى الآن كان المحدد أو المقـرر لنـوع أخيلتهـا موقفهـا الكاره نحو امها • اما الأب فقد تبدى مجرد اداة للاتصال الجنسي ، وكأنه يستمد اهميته كلها من علاقة الام ـــ الابنة • فكل بادرة حب عبرت عنها امها له ، كانت كما صورها خيالها منبعثة عن رغبة في اثارة غيرتها هي ، وتحريض ابيها ضدها • وفي نفس الطريقة التي صور لها الخيال انها حرمت امها من ابيها وتزوجته كان التركيز كله موجها الى كرهها لأمها ورغبتها في موتها •

وقد كانت ارنا في هذه الالعاب تظهر الحب لزوجها ، فان هذا الحب كما كان يتضح بسرعة هو وسيلة تتكلفها للنيـل من مشاعر منافستها •

على كل حال ، بعد هذا التقدم الذي أحرزناه في التحليل ، تطورت علاقتها به ، فبدأت تشعر نحوه بمشاعر حقيقية ذات طابع ايجابي • فالوضع وقد تحرر نوعا من سيطرة الكره والخوف ، أفسح المجال لعلاقة أوديب ان تثبت وجودها • وفي الوقت نفسه قل تركيز إرنا على امها ، وتحسنت علاقتها بها • وهذا التبدل في موقف الفتاة تجاه ابويها كان أساسه التغيرات العظيمة في قواعد خيالها ، او في حياتها الخيالية • وتبعا لذلك قلت ساديتها ، وندرت أوهامها التي تصور لها انها المضطهدة •

كما طرأت تغييرات هامة اخرى على صلتها بالحقيقة ، واخذت هذه الحقائق تتسرب الى آفاق خيالها •

في هذه الفترة الحاسمة من التحليل ، وبعد ان تكون ارنا قد عبرت عن فكرتها الاضطهادية في لعبها ، فانها كثيرا ما كانت تقول في دهشة : « ولكن امي لم تقصد هذا في الحقيقة ؟ انها مولعة بي ، تحبني كثيرا • بيد انها بعد ان قويت صلتها بالحقيقة واشتدت ، وبعد ان غدا كرهها اللاواعي لأمها أكثر وعيا ، بدأت تنتقدها كشخص حقيقي بصراحة ودون مواربة • ولكن علاقتها بها تحسنت ، ومع هذا التحسن ظهر في مواقفها وتصرفاتها مشاعر الامومة والمودة تجاه ابنها الخيالي • وفي احدى المناسبات ، بعد اظهار القسوة معه ، تساءلت بصوت متأثر : « أكان لزاما ان أعامل ابني هكذا ؟ »

وهكذا فان تحليل افكارها الاضطهادية ، وتضاؤل مشاعر القلق ، كان من شأنه تقوية ميلها الجنسي للمتغاير ، وتحسين علاقتها بأمها ، واثارة مشاعر الامومة الصالحة في قلبها • واحب ان أبين هنا رأيي بأن تنظيم هذه المواقف الاساسية ، التي تقرر اختيار الطفلة فيما بعد لحبيب ، وتقرر ايضا النهج المستقبلي كله ، هو احد اركان النجاح في تحليل الطفل •

مرض ارنا العصابي ظهـر فـي باكورة حياتها ، حينما كانت طفلة رضيعة • لقد بدأ المرض يظهر قبل ان تبلغ السنة الواحدة مـن عمرها • ومنذ ذلك الحين أخذت المصاعب تنمو وتتشعب ، حتى اذا ما بلغت الثالثة، أصبحت تنشئتها معضلة هائلة • فطبعها اتخذ الاتجاه غير الطبيعي ، وتسلط عليها شعور مقلق غير سوي •

ومع ذلك فقبل بلوغها الرابعة لم يلحظ أحد عاداتها الشاذة المتمثلة في الاستمناء وامتصاص باهمها • وما بلغت السادسة حتى كان العصاب مرضا عضالا فيها • وقد أظهرت صورها وهي في السنة الثالثة نظرة القلق العصابي في عينيها •• النظرة نفسها التي رأيتها وهي في السادسة •

واريد ان أشدد على القول بأن حالتها كانت عصية ــ حالة عصابية مَرضية ، قلما يمر بالانسان مثيل لها • فالاعراض الاستحواذية المستبدة بها ، ساهمت في حرمانها من النوم ، وكانت الكآبة وغيرها من علامات المـرض ، والتطور غـير الطبيعي لعاداتها وتصرفاتها واخلاقهـا انعكاسا واحدا من جملـة انعكاسات لحياتها الغريزية الشاذة الغـير المشكومة ، والمسرفة في الجموح •

ولم يكن في الوسع وصف هـذه الحالة ومـا ينتظرها الا بالحالة الميؤوس منها ، فهي مرض تجمعت فيه امراض ، هي عقد عصابية متشابكة مختلطة ، هي الاستشراء المستمر المتسارع •• ولا ينفع علاج ، ولا يفيد دواء ، الحالة مستعصية ، وان لم ينفع معها التحليل النفسي ، فلن ينفع معها شيء آخر ، الا في متسع رحمة الله •

سنتعمق الآن في هيكل القضية ، ونغترف التفاصيل • فتدريب ارنا على عادات النظافة لم يصادف صعوبة تذكر، بل انها أخذت بوسائل النظافة

قبل غيرها من الاطفال ولما تتجاوز العام الاول من عمرها • لم تلجأ امها الى اسباب الشدة لتمنعها من التبليل في ثيابها •• فطموحها الغريزي في ان تكون طفلة نظيفة ـ هذا الطموح الذي تبدّى في حرصها ويقظتها ـ كان الحافز القوي الذي مكنها من بلوغ المقياس المطلوب من النظافة قبل الاوان •

بيد ان هذا النجاح الخارجي رافقه اخفاق داخلي شامل • فخيالاتها المتمادية في ساديتها الشرجية بينت الى أي درجة تريثت عند تلك المرحلة ، كما بينت ما تدفق من حقد وكره وتناقض • واحد عناصر هذا الاخفاق كان النزعة السادية الشرجية ، ولكن الدور المهم لعبه عنصر آخر ـ عنصر اشار اليه فرويد كعنصر له قسطه في ذلك الاضطراب العصابي ، المتمثل في التطور السريع « للأنا » بالنسبة للطاقة الانفعالية او الشهوة الجنسية •

والى جانب ذلك ، أظهر التحليل ان طورا دقيقا آخر في تطور ارنا ونموها قد اجتازته بنجاح لا يكاد يكون ملموسا •• فهي لم ترض بالفطام• وكان هناك ايضا حرمان آخر قاست منه عقب هذا •

فهي لما بلغت الشهر السادس او السابع لاحظت امها كيف كانت تستسلم لها « بنشوة جنسية ظاهرة » ، كلما كانت تغسلها أو تنظفها ، وخاصة كلما نظفت اعضاءها التناسلية وشرجها • كان تهيجها واضحا كلما لمست فيها منطقة الاعضاء التناسلية • ولذا فان امها مارست طريقة جديدة وهي تغسلها وتنظف لها ، فقللت الى درجة كبيرة لمس الاعضاء بتلك الطريقة العفوية •

ولكن الطفلة التي اعتبرت العناية المفرطة الاولى نوعا من الاغواء أو الاغراء، اعتبرت بأن التحفظ الذي تبعها كان نوعامن خيبة الامل لها• وهذا الشعور بأنها أغريت ، المنطوي على رغبة في ان تغوى ، كان يتكرر في

كل مراحل حياتها • ففي كل علاقة ـ مع ممرضتها ، ومع من أنشأها ، وفي خلال التحليل ـ حاولت تكرار وضع من أغوي، او اظهار نفسها كأنها ضحية اغواء •

وبعد تحليل هذا الوضع التحويلي الانتقالي ، تسنى لي التعرف على حالتها ووضعها في مناسبات سابقة ، يوم كانت رضيعة •

وهكذا ففي كل حدث من الاحداث الثلاثة التي تولد منها عصاب ارنا ، نستطيع ان نميز الدور الذي لعبته العناصر البنيوية • ويبقى لنا ان نرى كيف ساعدت مشاهدتها للفعلة عندما كانت في العام الثاني والنصف من عمرها ، متحدة مع العناصر البنيوية على استحداث هذا التسلط الهاجسي المفرط عليها ، هذا العصاب المستحكم • في سن الثانية والنصف ، ومرة اخرى في سن الثالثة والنصف ، نامت مع ابويها في مخدعهما اثناء العطلة الصيفية • وسنحت لها الفرصة لمشاهدة عمليات الجماع •

ولم استنتج هذا من التحليل فحسب ، انما اتضح بكل جلاء بأدلة خارجية لا شبهة فيها • ففي الصيف الذي رأت ابانه الفعلة اول مرة ، حدث تبدل غير سوي فيها • وبين التحليل ان مشهد ابويها يتحدان بالاتصال الجنسي اورثها أعنف انواع العصاب ، وأشعرها بالضياع والحسد والغيرة ، واشعل تصورات السادية فيها وحرضها عليهما وعلى الرضا الجنسي الذي احرزاه •

ولا شك ان كمية القلق الحاصل في النفس من جراء هذه الامور يقرر مدى العصاب واتجاهه • والقلق هذا تصرّفه النزعات والميول المدمرة الهدامة ، وهكذا فان العصاب يكون نتيجة لانطلاق هذه الميول الهدامة

من عقالها • وفي حالة ارنا ، كان الحقد المرير مستحدث القلق البالغ هو المؤدي الى علتها العصبية •

وقد فسرت أعراض ارنا على النحو التالي :

اصرارها المتمادي على امتصاص باهمها مرده الى تصورات عجيبة لنفسها وهي تمتص قضيب أبيها وتعضه ، وتأكله ••• وكذلك ثديي أمها ••• فالقضيب مثّل الاب كله ، والثديان مثّلا الام كلها •• وكما رأينا فضلا عن ذلك ، فان الرأس مثّل القضيب في لاوعيها •

وضربها الوسادة برأسها كان يمثل حركة ابيها في اتصاله الجنسي • وقد اخبرتني انها في الليل كانت تخاف اللصوص الذين يسطون على المنازل ، فور توقفها عن ضرب رأسها بالوسادة • أي انها كانت تتخلص من هذا الخوف بالتمازج مع ما يمثله اللص من عنف •

واسلوبها الاستمنائي المفرط غير السوي ، كان متناقضا ، متشابكا ، معقدا • وقد ميزت بين مختلف وجوهه واشكاله • ومارست أنواعه • أو مثلت انواعه كافة بكلام أصح وتعبير أدق •••

ضغط الساقين على بعضهما ، وكانت تسميه « التصفيف » •

والحركة الاهتزازية ، وكانت تسميه « التنحيت » •

وجذب البَظر ، وكانت تسميه « لعبة الخزانة » ، حيث كانت تريد سحب شيء طويل !

وكانت ايضا تحدث ضغطا على مَهبِلها ، وذلك بشد زاوية الشرشف بين ساقيها •

كانت تؤدي دور أبيها الناشط ، ودور أمها غير الفعال • وهذه التخيلات الاستمنائية التي مارستها ، كانت الى حد كبير مزيجا من الميل

السادي ـ الماسوشي ، مما يثبت وجود الصلة بين ما شاهدته وما تصورته وتخيلته •

وساديتها كانت موجهة ضد والديها في الممارسة الجنسية، وكرد فعل لهذه الممارسة تجمع في مخيلتها صور عجيبة ذات طابع ماسوشي •

وقد مثلت اثناء التحليل هذه الممارسات الاستنمائية المتنوعة ، متنقلة بنفسها ، تارة كالاب وتارة كالام • وتمكنت خلال ذلك من اقناعها بوصف شعورها وتصوراتها • وبذلك تسنى لي معرفة اسباب هذه الممارسات المفرطة ، ومن ثم معالجتها وتحريرها •

وأشد الاعراض الباطنية المانعة كانت في حقل التعليم فهي تعلمت في سنتين ما يتعلمه الصغار امثالها عادة في بضعة اشهر • وهذا التعسر قل بصورة واضحة ، بعد ان قطع التحليل شوطا ليس بالقليل وكاد يتلاشى تماما قبيل انتهاء التحليل •

لقد نوهنا بالتغير الايجابي في علاقة ارنا بأبويها نتيجة للتحليل ، ورأينا كيف استطاعت ان تخطو الخطوات الاولى نحو التكيف الاجتماعي• فالاعراض الشديدة التي كانت بارزة بروزا عظيما (الاستمناء المفرط ومص الباهم ، والاهتزاز ، الخ) خفت كثيرا وكادت تتلاشى •• وكانت من الاسباب التي حرمتها النوم • فلما خفت وكادت تتلاشى ، قل القلق الذي كان ينتابها ، وتبعا لذلك اصبح نومها طبيعيا• كما ان نوبات الكآبة اخذت تقل بشكل ملحوظ •

ومع ذلك ، وعلى الرغم من النتائج المرضية الايجابية ، لم أعتبر التحليل منتهيا عندما توقف لأسباب خارجية بعد ٥٧٥ ساعة علاج استغرقت سنتين ونصف سنة •

فخطورة المرض لم تبرز في الاعراض فحسب ، انما تبدت ايضا في طبعها المشوه ، وشخصيتها الشاذة • ومما لا شك فيه ان التحليل المستفيض الذي قمنا به ليس كافيا ، واننا ينبغي لنا المضي فيه ، لكـي نزيل كل أثر من آثار المصاعب التي ما زالت تقاسي منها • وعودتها احيانا الى ممارساتها غير الطبيعية أثبت ان التحليل لم يكمل دوره بعد ، وان الانتباه لكل نكسة تحدث هو الامر الاهم ، لئلا تتعرض لعودة تقهقرية الى الوضع الميؤوس منه ، وما يتبع ذلك من اخطار تهدد حياتها ، فالسادية الطفولية ، قد تنقلب الى سادية مدركة لا تبقي ولا تذر في سن الحلم ، ان لم تتدارك ، وان لم تستأصل بالتحليل من جذورها •

فهي كانت عنيفة في ساديتها الطفولية حينما بدأت التحليل ، كانت تهاجمني احيانا ، ولكن مع مرور الايام قل نفورها ، واظهرت من الليونة شيئا كثيرا • فقد افهمتها بوسائل شتى انه لا يجدر بها ان تسعى الى الحاق الاذى بي ، وانها تستطيع ان شاءت ان تشفي غليلها من ألعابها ودماها • وأقدمت فعلا، ومرارا كثيرة على تحطيم هذه الالعاب والدمى ، بل وعلى تمزيق الامتعة ونثر الاقذار في كل مكان • ولم احرك انا ساكنا ، لم احاول ان امنعها او اعنفها •• ومضيت ادرس هذه الاعراض عن كثب ، واحلل هذا الغضب المستشيط ، وكأن صدر انسان كبير قد توغر به •

واني قبل ان اختتم مقالي ، أؤكد من تجربتي مع ارنا ، ومن تجاربي مع اطفال آخرين ، ان منشأ كل عصاب ، وقاعدة كل مرض من هذا القبيل، هو جنون الاضطهاد ، او الخوف المستمر من الغير ، أو من الاشياء ، أو من الظلام ، أو من الانحصار • وان هذه العلة كلما اتى اكتشافها باكرا كان علاجها اسهل وأقل مشقة • وانها متى اهملت يستعصي العلاج ، ويكون الجنون مطبقا شاملا ، ويكون الهلاك العاجل محتما •

فهذا المرض الذي يتشقق ويتفرع الى امراض نفسية رهيبة ، يمزق الكيان العاطفي تمزيقا بشعا ، ويصيب الجسم بالاعصاب . وكان التحليل الذي أجريته في كل حالة العلاج الاهم والاقوى ، فلولاه لما كانت ارنـا ستشفى .. لولاه لتحولت الطفلة بعد سنين الى مسخ ، بل الى شلو .

القاتل المجهول

ثيودور ريك

THEODOR REIK

التحليل النفسي لتفهم الموقف
المجتمعي والقضاة والمحلفين
ازاء المتهم بجرم

ثيودور ريك

في عام ١٩١٨ انشا فرويد جائزة شرف تقدم كـل عام لافضل مقالين ، احدهما يعالج الناحية الطبية من التحليل النفسي والاخر لا يعالج هذه الناحية . واول فائز بالجائزة غـير الطبية كان ثيودور ريك العالم النفساني الذي وصفه فرويد « بالرجل الذي يجسم أملنا » .

وكان اهتمام ثيودور منصبا على الادب والفلسفة والقانون . وكنفساني ورئيس للجمعيـة الوطنية النفسية ، قـام بدور كبير فـي تحقيق رغبة فرويد وتمرين غير الاطباء من علماء النفس على نظرية التحليل وممارسته .

في هذه القضية ، « القاتل المجهول » ، استعرض ريك اساليب التحليل لتفهم مواقف الراي العام والقضاة والمحلفين تجاه المتهم بالقتل . وهو يعتقد انه فـي حالات عديدة يضحى بالبريء ، او تبرأ ساحة مذنب لاننا نخاف من الوقوف وجها لوجه مع ميولنا الاجرامية .

القاتل المجهول

في صباح اليوم الثامن والعشرين من تشرين الاول عـام ١٨٨٦ عثر على جثـة الخادمة المنزلية « جوليان ساندبور » قـرب بلـدة فنكرونن النمسوية الصغيرة • كانت الجثة ملقاة في مخـزن حبـوب يملكه المدعو اندرياس الريخ •

كان الرأس مهشما ، والجمجمة محطمة • وايقنت القرية من ان القاتل هو الدباغ غريغور أدمس برغر •

وكانت جوليان قد التحقت بخدمته منذ بضع سنين • كـان متزوجا وأبا لطفلين ، ولكنه بدأ علـى الفور بمغازلة الفتـاة التـي تصغره ثماني سنوات • وفي غضون اربع سنين رزق بأربع اولاد •

ومع انها تركت خدمته ، ولكنها كانت تزوره كل يوم • وكانت سمعة الاثنين سيئة •• فهي غير مستقرة كما قيل ، وهو متوحش ، منتقم ، سريع الغضب • وقد شجر بينهما الخلاف ، وثارت زوابع مـن الصياح والصراخ بينهما ، لانها كانت لا تفتأ تطالبه بالمال •

وفي يوم الاحد السابق للجريمة ، رأى احد الشهود المسمى هانس برغر ، جوليان تغادر منـزل غريغور ، وسمعها تقول وهـي تهـز قبضتها مهددة :

« سأبلغ البوليس عنك ! »

وكانت الحادثة التي لمحت اليها معروفة • ففي ٣٠ ايلول من عام ١٨٧٩ احترق بيت ريفي يملكه غريغور ، وقبض هـو مبلغ ٣٠٠٠ فلورين مـن شركة التأمين • وفي سنة ١٨٨٢ زعمت جوليان امام عدد مـن الاشخاص انها احرقت المنزل بتحريض من مخدومها الذي احتاج الى المال •

وفي مساء أحد الايام قالت له علـى مسمع مـن الناس فـي السوق التجارية :

« انـت طلبت منـي ان احرق البيت • وقـد سرقت منك اكثر من مئتين • »

وقالت في وقت تال انها كانت ثملة حينما نطقت بهـذا الكلام ، وانها ارادت ان تنتقم منه لسوء معاملته لهـا • وكان معروفا بغلظته ، وقد طالما ضربها وسامها الخسف • بل كان يطردها من منزله بعصا •

وقد شهد جـار آخـر بأن جوليان هددت غريغور مرارا بهتك سره والتبليغ عنه ، لانه احرق البيت •

وقبل الجريمة باسبوع قالت بأنها ما لم تأخذ منه المال لها ولأولادها فستلجأ الى البوليس • وكان غريغور يهدد ويقول :

« سأقتل المرأة الشيطانية ! »

اضطر غريغور الـى الاعتراف بأن جوليان قضت الساعات الاخيرة قبل موتها في بيته • حماته المرأة المحترمة في القرية لم تحمده ، بـل هي ذمت فيه • قالت للمحكمة : ان ولدي غريغور أتيا اليها في ليل ٢٧ تشرين اول وقالا بأن امهما ارسلتهما لان اباهما يتشاجر شجارا عنيفا مع جوليان• وبدت كأنها سمعت صوت الشجار ، لانها استمرت تقول :

« وبعد قليل طرق سمعـي صرخة مدوية فـي بيت غريغور ؛ ظننتها

صرخة جوليان • ثم خيم السكون • »

ولم ير احد جوليان حية بعد ذلك • وفي صباح اليوم التالي عثروا على جثتها •

وعندما جوبه غريغور بهذه الوقائع شدد علـى براءته بأقوى عبارات من الكلام • أقر بأن جوليان أتت لتراه تلك الليلة ، ولكنها لم تمكث طويلا• قالت انها ذاهبة الى عشيقها ابن انطون كونز الفران ، وانه لم يرها بعد ذلك • وانتهى التحقيق الاول هنا ، ولم يضف الى اقواله شيئا •

الا انه بعد بضعة ايام اضاف بضعة تفاصيل امام قاضي التحقيق • قال بأن جوليان طالما قالت له انها تلاقي فرانزكونز في حديقة بيت ابيه • وكان يقدم لها الطعام والشراب • وانها قالت في تلك الامسية انها ستلاقيه كعادتها في الحديقة •

وقد اعارها غريغور كما أضاف ، معطفا قديما عندما اخبرته انها تشعر بالبرد • وبالفعل وجد المعطف على الجثة •• ولكن ، لماذا لم يذكر هذا من قبل ؟ لماذا انتظر الى ان عرفوا المعطف واستدلوا على صاحبه ؟ فاذا كان هذا يثير الشبهة ، فكيف تكون قصته عن « فرانز كونز » ؟

فرانز كان مراهقا ضعيف البنية في السادسة عشرة من عمره ، وقد اشتهر بالفضيلة والاخلاق الحميدة بين اهل القرية • ولهذا فعلاقة غرام مع امرأة دميمة سنها ضعف سنه ، وسمعتها سيئة ما كان ليصدقها أحد ، وما كان ليعير المتحدث بهـا اذنـا صاغية • وقصة غريغور التي تمسك بها بعناد وتشبث ، كما يفعل الكاذب عادة ، هي قصة كاذبة • وهذا أثبته كلام ام فرانز عن تلك الليلة المشؤومة •

فابنها جاء في السادسة متعبا منهوك القوى من عمله وصعد معها ومع اخوته واخواته الى فوق حيث أوى الى فراشه ، ولم يغادر البيت الا في

منتصف الليل الى الفرن •

فرانز نفسه وبصوت هادىء واثق انكر كل علاقة بجوليان ، قال ان قصة اجتماعه بها في الليل من نسيج الخيال • قال ايضا ان غريغور انتظر طفلا جديدا تضعه جوليان ــ وكان الامر هذا معروفا لدى الجميع •

وانهى بيانه بقوله : « والجميع يعرفون غريغور على حقيقته ، يعرفون شراسته ووحشيته معها •• وهي جاءت يوما الى بيتنا باكية منتحبة شاكية من ضربه لها ، وقد شاهدت الاصابات في رأسها ، والدم ايضا • »

وحاول غريغور في وقت لاحق ان يقوي الظن بفرانز ، ان يجعل الناس يوجهون الاتهام ضده ، ولكن ما لفقه من اكاذيب زاد حاله سوءا ، وجعل الكل يؤكدون انه القاتل •

قال ان جوليان اخبرته عن رسالة وجهتها الى فرانز في ٢٧ تشرين الاول ، وحملها اليه ابنها البالغ ثلاث عشرة سنة من عمره ، وفيها طالبته بالمال • وان ابنها سلم الرسالة الى الصبي « فالنتين بيغوار » مما جعل « فرانز » ينحي عليها باللائمة ويعنفها اشد تعنيف • بيد ان ابن « جوليان » انكر الواقعة ، كما ان فالنتين قال انها تلفيق في تلفيق ، واضاف :

« لن اصدق حرفا من قصة الغرام هذه ، لان فرانز صغير وقليل التجربة ، ومثل هذه العلاقة اذا صحت ما كانت لتبقى في طي الخفاء طويلا ، وخصوصا في قرية صغيرة ! »

وهذا رسخ وجهة النظر الرسمية ، بأن غريغور استنبط القصة انقاذا لجلده ، وتحويل تهمة القتل العمد الى فرانز كونز •

واكد هذه النظرة تصرفات غريغور التالية • فهو لما شعر ان قصته لم يكن لها الصدى المنشود ، حاول تجريم جار له ، كان كما زعم عدوا لدودا

لجوليان • ولم يسفر تفتيش منزل الرجل عن شيء يعزز التهمة •

واتفق الرأي في القرية كلها على ان غريغور هو القاتل • فالمرأة القتيل حينما عثر عليها، كانت منطرحة على ظهرها ووجهها في اتجاه جانبي• كان مخزن الحبوب في حقل قريب من القرية ، وقد اصيب الجسم باثنتي عشرة اصابة ، معظمها في الرأس ، وبعضها اصابات شديدة جدا • واثبت الفحص الطبي ان جوليان كانت حبلى في شهرها السابع • وقد ذكر فرانز كونز هذا الامر • أفلم يكن الحبل الحافز على القتل ؟ قال الاطباء ان الاصابات هي نتيجة ضربات بفأس حادة او ان الجريمة وقعت مع سبق الاصرار والتعمد •

اما « الريخ » صاحب المخزن فقد ادلى بشهادة غريبة اذهلت الجميع• فهو عندما وجد الجثة ، كانت ثياب المرأة مرفوعة الى وسطها ، ولذلك فقد استنتج مع الرجل الذي انضم اليه ، انها قتلت خلال اتصال جنسي ، أو بعده • وقد انزلا ثيابها الى تحت اخفاء لما ظهر من جسدها • أي ان البوليس لم يجد الجثة في وضعها الاصلي •

وطلب محامي الاتهام استخراج الجثة للتأكد من عدة نقاط لم يوضحها التشريح • وبالفعل تم استخراج الجثة وفحصها • وكتب تبعا لذلك تقرير ثان نفي فيه ما ذهب اليه ألريخ من رأي • كما ان الخبراء اكدوا ان القتل لم يقع في المخزن • فالدم كان قليلا على الارض ، والثياب لم تظهر عليها الا بقع معدودة رغم الجروح الثخينة التي أصابت الجثة •

كما قال هؤلاء الخبراء ان الفأس الذي ضبط في منزل غريغور ينطبق حده على شق في رأس الضحية • اما الجرح في الكتف ، فقد كان بفعل سكين مقوس ، يستعمله الدباغون عادة في اعمالهم • وحيث انه كان من غير المعقول ان يحمل القاتل الجثة وحده الى المخزن • فقد استتبع هذا

اشتبا بأن يكون غريغور قتلها في بيته ،وحملها مع زوجه الى المخزن •

وسلط الضوء الجديد على الجريمة البشعة • قالوا انه رتب ثيابها بشكل يعزز اتهامه لكونز •

زوجة غريغور ساعدته لا محالة ، فهـي أبغضت منافستها • وكـان تصرفها في اليوم التالي للجريمة عجيبـا يدعو الـى الاستغراب ويستثير الشك • وقد ادلت جارة بالشهادة التالية :

« ذهبت الى بيت ادامز برغر حالما سمعت بجريمة القتل وسألت السيدة ادامز برغر :

« ــ أين جولي ؟ لقد وجدت قتيلة !

« فقالت : ــ قتيلة !

« ولم تظهر أي دهشة او انفعال •

« ثم جاء ادامز برغر الذي سمع كلامي من الباب الموارب ، ورأيت وجهه الاحمر قد انقلب الى اصفر شديد الصفرة • وقال :

« ــ كيف يمكن هذا • امس في الليل كانت هنا • وقد أعرتها معطفا، وذهبت من الدرب المؤدي الـى الحقل لتجلب الحليب •• ولكني أعرف ان جوليان كانت تخاف من السير وحدها في الليل • وغادرتهما بعد ذلك ، وقد علمت ان ماريا ادامز برغر تبعتني الى جدول الماء حيث ، كما قيل ، غسلت شيئا على جناح السرعة ، وبارتباك ظاهر • »

هذه الشاهدة ، وهي فلاحة تتكلـم مباشرة وبـلا مواربة ، قالت مضيفة الى بيانها ان غريغور اساء معاملة جوليان دائما وخصوصا عندما كانت حاملا منه • وكانت جوليان في تلك الحالات تزور الشاهدة ، فتريها الجراح والكدمات ، وتشتكي مر الشكوى من غريغور ، وتؤكد انـه يزمع قتلها •

وامرأتان أخريان شهدتا ان السيدة ادامز برغر فعـلا سارعت الـى جدول الماء • والذي كان مفهوما مـن ذهابها انهـا غسلت الثياب الملطخة بالدم ، تحسبا لأي تفتيش يجريه رجال الامن في بيتها •

فالحافز واضح • غريغور اراد الخلاص من خليلته المزعجة ، ومـن المسؤولية الجديدة الوشيكة ، متى ولدت الطفل وهي ايضا كانت تعرف بسر الحريق وتطمع الى ابتزاز المال •

وحوكم بتهمة القتل وأدين • مثل هذه الادانة كانت تتطلب صدور حكم الاعدام بحقه ، ولكن برز في القانون اشكالا حصر العقوبة بالسجن المؤبد •

في البدء قدم غريغور طلب استئناف ، ولكنه مـا عتم ان غير فكره وعدل عن رأيه ، وسحب الطلب ، وهكذا بدأت العقوبة تأخذ مجراها في الثلاثين من شهر تموز ١٨٨٧ •

هكذا انتهى فصل اجرامي ، ، ولاح كأن غريغور دخل في غياهب المجهول ، لينساه الناس ، ولينسى هو مع كر السنين نفسه !

لم يشك انسان بذنبه ، فهو مجرم قاتل ، والادهى ان عدوله عـن الاستئناف كان بمثابة الاقرار والاعتراف •

وفي حالات كهذه ، تتألب فيهـا العناصر كافة علـى الرجل وتجرمه وتدينه ، لا يحتاج القاضي ، ولا تحتاج المحكمة ، ولا يحتاج المحلفون الى اعتراف •

ومرت سنتان والرجل مسجون ، يعمل مع زملائه ، ويطعم طعامهم ، ويفكر تفكيرهم ، ووقع تبدل خاص ، وقع التبدل فجأة •

ففي ربيع ١٨٨٩ ، استخدم الفران جورج هالتر مساعدا اعجب بعمله

كل الاعجاب • كان المساعد مرحا دمث الخلق ، يتجنب النســاء ويقضي ساعات الفراغ في اللهو البريء • هذا المساعد كان فرانز كونز ، الــذي اتهمه غريغور بقتل جوليان ــ اتهمه باطلا ، كما ثبت لينجو هو من العقاب•

في العشرين من كانون الثاني ١٨٩٠ اعطى فرانز كونز رسالتين الــى ابن صاحب الفرن وقال :

« سلم هاتين الرسالتين لصاحبي العنوانين • أنا انسان شقي ، عشت شقيا اربع سنين ! »

ثم اقفل عليه باب غرفته • وعندما اقتحموا الباب بعد ساعات وجــد بشرايين مقطوعة • بيد ان الطبيب تمكن من وقف النزف • وقد ذكر فــي الرسالتين الموجهة احداهمـــا الــى المحكمة والاخرى الــى والديه سبب انتحاره •• ففيهما اعتراف بقتل جوليان ، وتفاصيل كاملة لعملية القتل • واعتراف بأنه لم يعد في طاقته الاصطبار ، وان ضميره يرزح تحت وطأة التأنيب • وكرر الاعتراف بعد شفائه امام المحكمة •

قال بأن جوليان أغرته عندما أتت لشراء الكعك • وانهما طفقا بعد ذلك يلتقيان سرا في حديقة المنزل •• وبقيت الصلة هــذه مكتومة عــن الجميع • وبعد فترة من الزمن اعلمته جوليان بأنها حامل ، وشرعت تواجهه بتهديداتها ، وتبتز منه المال ، حتى اضطر الى سرقة الطعام والخمر والمال من ابويه ، لكي يرضيها ويسكتها • ومع ذلك فهي لم تفتأ تهدده بصنوف من التهديد • قالت له على سبيل المثال بأنها ستضع الطفل بعد ولادته على عتبة بيته • وقبل يومين من موتها طلبت منــه مبلغا مــن المال ، ولكنه لم يستجب لانه لم يملك ما طلبته • وهكذا أصبحت حياته عبئا لا يطاق، وكان امامه خياران ، اما ان يموت واما ان يقتلها ، واختار المنطلق الثاني وقتلها •

وشرح الفتى بدقة متناهية كيف قتلها ، شرح الخطوات التي اتبعها •

فعندما طلبت جوليان المال بعد ظهر السابع والعشرين من تشرين الاول ، اتفق معها على اللقاء مساء في الحديقة • وفي السادسة نام مع اخيه فكتور في حجرة واحدة • في السابعة قام خلسة ، فمشى على رؤوس قدميه حتى وصل الى الحديقة • وكانت هي في انتظاره • فلاطفها وطلب ان ترافقه الى الحقل ، لانه يشعر بالامن والهدوء هناك • واخذ معه دون ان تشعر ، الفأس الصغير الذي اخفاه خصيصا في الحديقة •

ووصلا مخزن ارليخ للغلال ، فاستلقت جوليان ارضا دون ان يطلب هو ذلك ، ورفعت ثيابها •• قال :

« دون ان اقول شيئا ركعت على ركبتي • ورجتني ان اسرع • ولكني بيدي اليمنى امسكت برأسها ، وباليد اليسرى — وكنت اعسر — هويت بالفأس بجميع ما اوتيت من قوة على رأسها •• »

واستمر يروي قصته •• بين للمحكمة كيف أهرع الى البيت بعد القتل ، فجزأ الفأس ورمى بالاجزاء في المرحاض • ووجد الفأس حيث قال •

وعقدت المحكمة من جديد ، وبرئت ساحة غريغور ادامز برغر • اما القاتل الحقيقي فرانز كونز ، فقد ادين وقضي عليه بالسجن سبع سنين لأنه كان أقل من عشرين ••

ولو فكر منفذو القانون وحماته بنزاهة وعدم تحيز ، لو فكروا بالطريقة التي حكم فيه على غريغور ، لاستنتجوا انه حوكم وحكم دون ان تثبت عليه الجريمة •• فالقاضي حكم عليه لمجرد الظن •• لم يثبت الجرم، لم يقم الدليل على انه القاتل •• اجل حكم عليه لانه ظنه القاتل •• ظن انه ربما يكون القاتل ، لا لأنه القاتل فعلا ولا يمكن ان يكون بريئا •

وصرح القاضي هيلويغ ان زميله يستحق اللوم على ما أتاه من خطأ

حينما جرّم غريغور • قال هذا القاضي بأن زميله لـو لجأ الـى الروية ، وتأنى وتبصر لما وقع الظلم • ويظن هذا الرجل ان الرأي العام أوجد التأثير الشديد ، والقناعة بأن غريغور هو القاتل ، حتى ان التحقيق ، ثم اجراءات المحكمة ، ثم الحكم ، جرت كلها بصورة سطحية ، كأنها مجرد شكليات لنتيجة معروفة مسبقا • أو كأن الحكم قد نطق بـه القاضي قبل ان تكون محاكمة •

وما كان غريغور ليدان لو عالـج قاضـي التحقيق ومحامي الادعاء القضية بطريقة موضوعية ، وخارج نطاق التأثير الذي احدثه الرأي العام •

واتضح بعد ظهور الحقيقة اهميـة التدقيق فـي الادلة والبراهين ، واهمية تقييم هذه الحجج ، قبـل سوق الاتهام وقبل النطـق بالحكم على شخص قد يكون بريئا ••• وقد كان غريغور بالفعل بريئا •

★ ★ ★

لست في سبيل اجراء تحليل نفساني للاخطـاء القانونية المرتكبة ، ومصادرها كثيرة • وسأكتفي ببضعة عناصر منهـا تعمـل تلقائيا ولا وعيا في اعماق الانسان ، وتؤثر تأثيرا عظيما في تفكيره الواعي •

في قضية غريغور ، يجب ان نصل الى السبب الذي جعل القـاضي والمحلفين يدينون الرجل ، ماذا جعلهم يقيمون للادلة الموجودة وزنا اكثر من وزنها الحقيقي ، وماذا جعلهم يستخفون بالادلة المعاكسة ، ولا يقيمون لها وزنا اطلاقا ؟

لنركز في البدء تفكيرنا على ضحية انحراف العدل ، علـى غريغور ، أكانت الصدفة الساخرة هي الاداة التي صيرت منه « غلطة قانونية » ؟ وهل كل انسان غيره متعرض لهذا المصير البائس ؟

هذا سؤال لا علاقة له بالقاضي او محامي الادعاء أو المحلفين اليوم ، ولكنه قد يعنيهم غدا ، لا أحد يعلم ، قد يعنيهم في المستقبل ، قد يتطور القضاء ، وتتطور اساليب القضاء .

ومن السخف ولا مراء ان نحاول العثور في شخصية الضحية على تفسير لكل هنة قانونية مردها الادلة الظرفية . ففي عدد كبير من امثال هذه الاخطاء ، لا تلعب شخصية الضحية أي دور . بل هي تبرز من مجموعة ظروف خارجية وصدف ، ولا علاقة لها البتة بسيكولوجية المتهم وبتركيبه النفساني . بيد ان من بين هذه الاخطاء المتجنبة حالات ، تشجع احيانا ، النفساني على اظهار بعض العناصر السيكولوجية في تصرفات المتهم ، التي تلعب دورا ضروريا في اثبات التهمة وصدور الادانة .

الشهود كافة اتفقوا على ان غريغور كان انسانا وحشا يثور لأقل سبب ، ويسيء معاملة خليلته ، ويتهددها بالقتل احيانا . وهذا التهديد كان بلا ريب ذا أهمية كبرى كدليل سيكولوجي . صحيح انه التعبير على لسانه بما يضمره من كره لخليلة برم بها ، ولكنه كان التهديد الذي تألف منه الاثبات المادي ومن ثم التجريم والادانة .

ان وراء التقييم الواعي لكره الرجل ينطوي على الادراك اللاواعي لمدى ذلك الكره واتجاهه . في البدء بدا هذا متسما بالبشاعة ، لان كرهه لم يكن الكره اللاواعي ، فهو كره عبر عنه بصور واشكال مختلفة . ولا يمكن القول بأن تهديداته واهاناته لم تؤخذ مأخذ الجد ، او بأن الضرب لا يعني العنف في رأي تلك الطبقة من الناس ، ولكن ان اعترفنا بأنه مقت خليلته السابقة ، فهل يمكن ان يكون الكره الواعي هذا قويا الى درجة تجعله يعمد الى قتلها ؟

لا ندري . والذي ندريه فقط هو ان غريغور لم يقتل . واريد ان

اشدد هنا على نقطة هامة وخطيرة ، على ان صدى هذا المقت في عقله اللاواعي جعل المحكمة تخرج بقرار الادانة . ولكن أليس من السخف الافتراض بأن كره غريغور لجوليان الشديد كان العنصر الفاصل في ادانته ؟ فكيف يتسنى للقاضي والمحلفين ان يميزوا ما دار في عقل غريغور اللاواعي ؟ والجواب هو ان عقولهم اللاواعية تعرفت على اللاوعي ، أو على الواعي جزئيا ، في اعماق المتهم ... استدلت على ذلك من اشارات ، وتجاوبت مع الاشارات ، وكأنها التعبيرات عن الذنب !

اجل ، كان القاضي والمحلفين اعتبروا الافكار الخفية السرية وكذلك الاماني والرغبات كحقيقة واقعة . فتجاوبوا مع بواعث الكراهية فيه .

واني لاجهر هنا ان هذا التجاوب ، أو هذا الاتصال بين لاوعيين قادا الى الخطأ القانوني ، والى الادانة والحكم .

لقد نجا الرجل باعجوبة . نجا لأن القاتل انبه ضميره . ولولا ذلك لما نجا أبدا .

نجا الرجل البريء من فعلة القتل ، الغير البريء من الرغبة الملحة في القتل .. اجل ، كان يتمنى في لاوعيه ان يقتلها ، وهذا التمني ابرق به لاوعيه الى لاوعي المحلفين والقاضي ، فأيقنوا انه القاتل وادانوه !

ولا ريب في ان الدروس المستقاة من التنقيب في اعماق العقل ، لا تمس القضاة والمحلفين ، اولئك القضاة والمحلفون الذين يغبطون انفسهم على اللوذعية والدهاء .. واننا لنرجو من صميم أفئدتنا ان يتغلبوا على «الافتتان الذاتي» القتال، ويدركوا سريعا انهم حتى رغم الذكاء والفطنة ، قد يعمهون في تيه الحيرة بسبب الدوافع اللاواعية .. بسبب تفاعلها الشديد .. بسبب عنفوانها !

وما أسخف الانسان الذي يظن انه بارع دائما !

الفتاة التي ما برحت تأكل

روبرت لندنر
ROBERT LINDNER

أرغمها شيء ، فوجدت نفسها مكرهة على الاكل ملزمة بالاكل ، مستمرة في الاكل

روبرت لندنر

هذا رجل من الرعيل الاول في اميركا . وقد سفر عن مقدرته في التحليل فيما قام به مـن محاولات معجزة في هذا الحقل . وهو في رأي علماء النفس في مصاف ابراهام وريك اللذين ترجمنا لهما في فصول سابقة .

وكان كتابه « ساعة الدقائق الخمسين » نسيج وحده في اسلوبه . لم يكتف فيه بما وعى، بل تخطى كل حدود ، وفي جرأة عظيمة مهد لشفاء آلاف الناس المبتلين بالامراض العصبية . ولا نغالي ان قلنا عنه انه صاحب رسالة، وخصوصا في تطبيق التحليل النفسي علـى مـن زلت قدمه فارتكب الجرائم ، وعلى من انحرف عن الجادة من القصر والمراهقين .

واتصف « لندنر » بالانسانية ، فهـو يكشف عن ذاته كانسان محب يتنفس كسائر الناس، ويحزن لحزنهم ويتألم لالمهم .. اتصف بأنه ينصهر في بوتقة الانسانية ويشعر كأن المريض بضعة من نفسه وروحه وقلبه .

الفتاة التي ما برحت تأكل

كان لها وجهان ...

فوجه لورا الذي رأيته هذا الصباح كان بشعا ، شنيعا . كان منتفخا كبالون يوشك ان ينفجر . وكان مسخ وجه ، او كاريكاتور وجه .. فالعينان الغائرتان في جيبين من اللحم الداكن ، تلتمعان لمعان المحموم ببريق مريض .. والانف مدفون بين وجنتين ناتئتين متورمتين مبقعتين .. والذقن ظل شحمي لوجه مكور مكتنز .. اما الفم فثقب قرمزي في كتلة لحم وشحم .

منظرها أذهلني حتى غثت نفسي ، بل وتولاها لغوب . والاشمئزاز الذي استحوذ على مشاعري تبدى في امائري ، فلم استطع ان اخفيه . ورأتني ورأته ، فصرخت بصوت اسمع الصم :

« انظر الي يا ابن المقبوحة ! انظر الي واقذف ، وتقيأ ! اجل ، انا هي لورا ! ألا تعرفني ؟ الآن انت ترى ، ألا ترى ؟ الآن انت ترى ما كنت أتكلم عنه طوال الاسابيع المولية ، اثناء جلوسك واسترخائك ، اثناء ركونك للصمت المسترسل مع الجلوس المسترسل! اثناء قلة اصغائك وعدم اصغائك المسترسل مع الصمت المسترسل ، مع الجلوس المسترسل ! لم تصغ .. لم تشأ ان تصغي لتوسلاتي وتضرعاتي ! ابتهلت اليك ، طلبت المساعدة فضننت ! انظر الي ! »

ورنوت اليها بنظرة اختلط فيها الرثاء مع النفور وأجبتها وأنا أشيح قليلا :

« استلقي •• اضطجعي وأسمعيني •• قولي كل شيء ! »

وصدر من فمها المختفي بين الطيات ضحكة متقطعة • ونظرت عيناها الخنزيرتان الى فوق ، الى غير المرئي ، بينما ارتفعت قبضتاها بحركة ويل ونقمة ، وقالت :

« حدثه عما يقع ، قل له ! قل له ! ماذا كنت اقول لك ؟ »

وقاطعتها بنبرة صارمة : « لورا ، كفي عن الصراخ واضطجعي » •

واشحت عنهـا واستدرت الـى الكرسي الموضوع وراء الاريكة • ولكنها قبل ان اتحرك امسكت بذراعي وادارتني على محوري ! ونظرت الى وجهي • وشعرت بأظافرها تنغرس في ثيابي وجسدي • كانت قبضتها أشبه بالملزمة •

وأدنت وجهها مـن وجهي • يـا للوجه المتألل ! يا للرائحة الكريهة تنفثها وهي تهمس بصوت مبحوح :

« كلا ، لن استلقي ، سأقف هنا ، أمامك وارغمك على النظر الي •• ارغمك على النظر الي كما انظر أنا الى نفسي ! تريدني ان استلقي كـي لا تبصرني ، كي لا تنظرني •• لن افعل هذا •• سأقف الى الابد هنا ! »

وهزتني بشدة ، واردفت :

« قل شيئا ! تكلم ! بمـاذا تفكـر ؟ أنا كريهة ، ألست كريهة ؟ أثير الاشمئزاز ، ألا أثير الاشمئزاز ؟ قلها •• قلها •• »

ثم ، فجأة ، ارتخت قبضتها وانهارت على الارض • وغمغمت لاهثة :

« يا ألله ! ساعدني ، ارجوك ، ارجوك ! »

★ ★ ★

لم ألق انسانا كلورا ! لم أر انسانا كلورا ! لم أشاهد اعراضا كتلك التي اظهرتها لورا . في تاريخ المرض يشار احيانا الى خلل يطلق عليه اسم « الضوّر » ، او « الشّره المرضي » . ولقد رأيت طبعا حالات كثيرة من هذا القبيل ، مثال ذلك « الشهية المنحرفة » أو الادمان على نوع معين من الطعام .

وفي الواقع حادثة من هذا القبيل كانت اطرف ما مر بي في حياتي العملية كلها . اذ وصلتني رقعة من مريض في مستشفى السجن الذي ارسلت اليه بمهمة خاصة في السنة الاولى من الحرب ، يقول فيها كاتبها مستفهما :

« هل اصاب بالتسمم التدميني (التسمم الناتج عن تعفن البروتينات الحيوانية او النباتية ، وبخاصة تلك المعلبة) . ان اكلت الطماطم مع الشفرة ؟ »

واطلعت زملائي على الرقعة ، فشاركوني الظن بأن مرسلها عابث يريد ان يتسلى ويهزل . ولذا ارسلت الجواب اليه بأن النتيجة تتوقف على الشفرة ، ان كانت جديدة أو مستعملة .

ويا لشد ما داهمني من ذهول مشوب بالكدر عندما دعاني خبير الاشعة بعد بضعة ايام الى مكتبه واراني صورتين على الستريو سكوب ورجاني ان انظر أبشع أمر .

ونظرت في منطقة المعدة ، فرأيت عددا من الظلال المستطيلة . فرفعت رأسي الى الرجل متعجبا وقلت :

« ما هذه ويحك ؟..

فأجاب بهدوء : « وماذا تظنها ؟ »

ونظرت من جديد ، وقلت : « انها اشبه ... تبا لي ! أشبه بشفرات ! »

وطلبنا السجين في القاعة التي كان ينتظر فيها . كان متهالكا على المقعد ، يتلوى ويئن من الالم . ولما رآني شكا أمره ، فقال :

« فعلت ما قلته لي في جوابك . أكلت الشفرات الجديدة ، فانظر الآن ، انظر ماذا حدث ! »

« اذن السبب هي الطماطم ! » اجابه الخبير بجفاء واقتضاب !

وحينما بدأ الجراحون عملهم ، اكتشفوا بعد ان شقوا بطنه ، انه مخزن للخردوات . وكنت حاضرا في حجرة الجراحة ساعة شقوه . وقد حملقت بعيني بدهشة وذهول ، وهم يرفعون قطعة اثر قطعة من الخردوات التي ـ كما قال بعد الجراحة ـ دأب على ابتلاعها منذ سنين كثيرة خلون .

واني لاحتفظ الآن مع مغرياتي السيكولوجية بصورة حافلة بالعجائب التي ابتلعها .. ولم يصدق انسان هذه القصة .. الكثير من الناس رأوا الصورة وسمعوا الوصف ، ولكنهم هزوا رؤوسهم بابتسامة مكذبة !

في المجموعة عدد كبير من اجزاء الشفرات .. فيها ملعقتان .. فيها اسلاك معدنية .. فيها سدادات زجاجات .. فيها مفك براغي .. فيها بضعة مفاصل .. فيها خمسة براغي ، ومسامير وشظايا زجاجية !!

اما صعوبات لورا فلم تكن من هذا القبيل .. لم تكن الشره المنحرف ، الذي يلجأ فيه صاحبه الى ايذاء الذات ، او الى قتلها ، بما يبتلعه

من ادوات وشفرات ․․ الا انها كانت اسوأ مـــن الناحية النفسية ․․ كانت تخضع لكآبة مأساوية ، وتشعر خلالها بالحافز الـــذي لا يقـــاوم للاكل ، الاكل ․․․ لحشو نفسها بالطعام ! للاستمرار الى ما لا نهاية في الاكل ․

ضحية قوى لا طاقة لها على لجمها ․․ وعندما ينتابها هذا الحاث ويلح عليها ، تصبح في حالة جنون ، في حالة هياج مسعور ․․ ولا تستكين الا متى ارهقها الجنون ، وسلبها كل عزيمة فيها ․․ الا متى ارتخت عضلاتها․․ الا متى انتفخت معدتها وامعاؤها من الطعام ومن الالم ․․ الا متى سكرت مشاعرها سكرا شديدا بالابخرة المتصاعدة من الاطعمة في احشائها ․․ انها تأكل ․․ تأكل كل طعام ․․ لا تفرق بين طعام وطعام ․․ لأنها تأكل ما تجده، وما تنتزعه ․․ ولأنها تشرب ما تجده وما تستخلصه ․

والعذاب الذي بلته لورا قبل واثناء وبعد النوبات (كما اسمتها) هو في الحقيقة يفوق كل وصف ، ان لم يكن اكثر من ان يصدقه انسان ․ ورغم وضوح بيانها فاني لم أقدر الرعب الهائل ، والهوان والشعور المتبلد الصادم للحس الذي رافق تلك التراجيديات ، قبل ان اراها مرأى العين في ابـــان واحدة منها تتلوع وتتضور ․ وبيانها عن مداهمة النوبة لها وما يصاحبها من محنة سمعته من فمها اكثر من عشر مرات ، قالت :

« كأنها تأتي ، أو كأنها تلم مـــن لا مكان ․ حاولت اكتشاف مبعثها ، منشأها ، ولكن عبثا حاولت ․․ فهي على حين غرة تصدمني الصدمة العنيفة ․․ وأكون منهمكة في أي شيء ، في الرسم ، في العمل ، في التنظيف ، في القراءة ، في الحديث مع انسان ․ لا يهم أين أكون أو ماذا يشغلني ․ فـــي دقيقة واحدة ينقلب الوضع رأسا على عقب ․․ في دقيقة ، أكون هادئـــة ، رائقة ، وديعة ، متزنة ، مسالمة ، محبة ، وفي دقيقة اكون على صهوة جواد الجحيم الابدي !

« أظنها على الارجح ، تبدأ بشعور الفراغ القاتم ، شيء لا ادري أي اسم اطلق عليه ، يبدأ في ايلامي ! شيء في قرارتي ينفتح ، وينتشر ، وينبسط •• اشبه بحفرة في الاعضاء الحيوية • ويبدأ الفراغ في الخفقان الخفيف ـ ناعما كنبض طفيف • ويدوم هذا وهلة ، لا شيء آخر • ولكن لا يلبث النبض ان يتحول الى خفق منتظم ، سرعان ما يكبر ويضخم ، ويقوى ويشتد • وتتسع الحفرة •• ولا أعتم ان اشعر بأني لا شيء الا الفراغ العظيم المحاط بالاهاب الذي يتمسك متشنجا باللاشيئية • ويضج الخفقان ، ويتحول « الصداع الى ألم » والقلب يطرق ويدق ، والفراغ يستحيل سعيرا •• وفي فينة ، لا يبقى مني شيء ، لا يبقى من لورا شيء الا الفراغ الهائل المدوي دوي الطبل ! »

ولقد سألتها على اثر سردها ، عن مبدأ الجوع ، متى ، وفي أي نقطة، وفي أي مرحلة من مراحل هذا الفراغ اللامتناهي يبدأ حافز الاكل يطرق الباب بالحاح !

ولقد اجابت : « انه موجود حاضر من مستهل النوبة • يصيبني الروع عندما اشعر بالانفتاح العمقي ، فأسعى الى ملئه •• يجب ان أملأه • وابدأ في التهام الطعام •• آكل وآكل وآكل وآكل ـ كل شيء••أي شيء •••ما أجده في متناول اليد ! ولا يهمني ما هو طالما هو طعام يصلح للأكل ••• وكأني في سباق مع الفراغ ! الفراغ ينمو ، وجوعي ينمو •• ولكنه ليس الجوع •• انه السعار ، انه النوبة المجنونة •• انه شيء اوتوماتيكي ، آلي لا يحجم • اريد ان أصده، أن اوقفه، ان اكبحه ، ولكن عبثا • فكلما حاولت ذلك ، اتسعت الحفرة ، ويختبل الروع عقلي ، واشعر اني سأغدو لا شيء ، سأغدو الفراغ ـ سيبتلعني الفراغ • ولهذا ينبغي لي ان آكل ! »

حاولت في مستهل التحليل ان اكتشف طريقة اكلها ، ان كان له نمط معين ، اسلوب خاص !

فقالت : « كلا ، كلا •• شيء مجنون ، بلا شكل ، بلا هيئة ، بلا وجه •• لا شيء في الدنيا اريد اكله ، لا شيء يشبعني ـ لأن الفراغ هو الذي يجب ان يمتلىء • لهذا ليس المهم ما ابتلع ، ليس المهم ما ازدرد • المهم الإساسي هو ابتلاعه ، تكديسه في داخلي •• ولهذا فاني احشو فمي بما أجده ، كارهة نفسي وانا أحشو ، ثم ابتلع دون استذواق •• آكل ، آكل ، آكل ، حتى يفقد شدقي الحس من المضغ ••• آكل ، آكل ، آكل ، حتى ينتفخ جسمي ••• آكل كالخنزير المنهوم •• ويصيبني الغثيان ، ومع ذلك استمر في الاكل ، مقاومة الغثيان بالابتلاع والتقيؤ ، ولكن دائما آكل وآكل وآكل ! واذا نفد ما عندي من زاد ، أرسل في طلب المزيد •• وقبل ان يصل المزيد ينتابني الخبال ، فالفراغ يتسع وينمو •• وتصيبني الرعشة • ولا يكاد الطعام يصل حتى انقض عليه كمن صام عنه اسابيع واسابيع ! »

وأسألها كيف تنتهي النوبة ، او السُّعر •

فتجيب قائلة :

« آكل نفسي ، أنهشها ! حتى يضيع صوابي • واخال اني أقع في حالة سكر ، او ما شابه • على كل افقد وعيي • هذه دائما الخاتمة • ولكني مرة لم افقد وعيي ، بل انهرت من الاعياء وانقطعت النوبة •• لم اتمكن من فتح فمي ، لم اتمكن من رفع يدي •• واحيانا يتمرد جسمي ، يرفض ازدراد المزيد ! يكتظ !

« والاسوأ من كل شيء النتائج والآثار • فمهما كانت نهاية النوبة ، فانه يتبعها نوم عميق • نوم احلام مريعة •• احلام منثالة متتالية ، كلها

اهوال •• انام يومين متعاقبين لا تنقطع طوالهما الاحلام•• اعرف انها احلام رهيبة ولكني والحمد لله لا اذكرها متى استيقظت •

« وعندما استيقظ اضطر الى مواجهة نفسي المتمزقة •• وهذا أشد فظاعة من كل ما سبقه • انظر الى المرآة فأرى الوجه الكريه ، فلا أكاد أصدق ان هذه لورا ، انا ••• لا أكاد أصدق ان التي أرى هي من البشر•• مخلوقة منتفخة •• جسد مشوه •• وجه كالضاغوط •• امارات مختلطة ، تقاطيع متداخلة •• يا للهول ! مخلوقة من الجحيم تنبعث من مسامها الروائح الكريهة •• وارغب بكل قوة في تدمير هذه المخلوقة التي صرتها أنا ! »



ثلاثة اشهر كاملة مرت على التحليل المكثف قبل ان تظهر لي لورا جسمها المشوه ، وتلح علي ان انظر وأتأمل • قضينا الاشهر العاصفة هذه في أسى بالغ •• كانت تتكلم وتشهق بدمعها ، كانت تسرد نواحي من مأساتها واللوعة تفطر قلبها وتمزق نياط قلبي • الا انها لم تجد في السرد ما يجده عادة المكلوم من شعور بالراحة وهدوء البال ، عندما يجد ما في الصدر متنفسا له •• كانت تتكلم فتعدد جوانب المأساة ، ولا تنتهي من جانب الا لتبدأ جانبا تاليا اكثر حلكة مما سبقه •

ورغم ما سمعته من اقاصيص الناس ، عما يلاقونه من اهمال وحرمان، الا ان قصة لورا كانت أشد وقعا على قلبي من سائر القصص التي سمعت• وقد عبرت لها بأساليب مختلفة عن شعوري الصادق نحوها ، الا اني لم اظهر الشفقة او الرثاء ، لما في هذا من ضرر بالغ تتعرض له • بيد ان لورا فسرت شعوري المتحفظ تفسيرا مغايرا ، ايقنت انه الشفقة التي ايقنت انا اني اخفيتها ، وهذا ما جعلني اتعجب واراجع حساباتي كلها ••

هذا الشعور جعلها تستغل عاطفتي فور البدء في جلسات التحليل ، وتطالب بشتى الاساليب بالمزيد منه. واخذت بعد ان اظهرت تحفظا، تتهمني بانعدام الشعور ، وتنعى علي البرود والقسوة والروح السلبية التي لا تبالي بمأساة الغير .

قالت مرارا : « انت حجر صلد . قلبك صحراء من اللامبالاة » . وهكذا بدأت اجتماعاتنا دائما بمقدمة ، تأنيب وتقريع ، وعتاب . ثم تصمت منتظرة الرد . وعندما لا يأتيها أي رد تنفجر صاخبة فيقذف فمها بالحمم .

وان انس لا انس واقعة من هذا القبيل ، ادهشتني فيها بأفعالها . ولا اذكر هذه النوبة لمجرد الذكرى ، ولا لما حملته في طياتها من فواجع ناطقة، ولكن لانها سبقت المأساة التي اتيت على ذكرها ، ووجوه الاختلاف الصارخة بين مظهر لورا في ذلك اليوم ، ومظهرها بعد ايام قليلة تالية ، لا تبرح تتراءى لي بوضوح عظيم .

فلورا بين النوبة والنوبة لم تكن تلك المستحقة الشفقة التي تبدو اثناء النوبة . فرغم قلة ذات يدها كانت تحرص على هندامها وزينتها ، وكانت ذات ذوق حسن في ما تختاره من ثياب . والحمية الصارمة التي فرضتها على نفسها بينفترات الاكل الجنوني ، ابقت لجسمها الكثير من رشاقته وهيفه . وشعرها الفاحم ، كان كجناح غراب ، اضفى على وجهها هالة معتمة لفتت الانظار ، فهو ، أي وجهها المحاط بالشعر الفاحم الكثيف كان له نكهة شرقية بما جاوره من العظم الوجني المرتفع ، والعينين العسليتين ، والانف الصغيرنوعا ، والفم البيضي .

في ذلك اليوم ، الذي أشرت اليه ، وقبيل وقوع المأساة ، كان من المتعذر على أي امرىء ان يتصور مدى الدمار الزاحف عليها بجحافله .

بدأت الساعة بشكاتها العادية ، بتلوعها لما ذاقته من تباريح الاحلام

ـ تلك الاحلام المفعمة بالاشباح ، والحركة ـ ولكنها اشباح وحركة ، لا تستطيع ان تتذكرها ابدا .

الاحلام زارتها في كل ليلة ، وعكرت عليها صفو ليلتها . كانت تستيقظ فجأة والرعب مستحوذ على قلبها .. كانت صرختها على الارجح توقظها من حلمها المريع .. ولا تكاد تستأنف النوم حتى تتعرض من جديد لحلم أشد هولا .

أحلام غريبة عجيبة تخلف وراءها في نفسها وفكرها ذكريات غامضة مظلمة لمشاهد سريالية يعوزها النظام والترابط ـ اشكال بلا وجوه .. وجوه بلا اشكال .. مخلوقات بلا وجود .. وجود بلا مخلوقات .. جنون .. فحش بلا اسم .. مياه .. امتدادات من المياه .. أو دفق مدرار يصفقها صفقا عاتيا كأنه السوط اللاهب .. صوت خطى .. وقع رتيب رهيب لحذائين بلا جسد يتبعانها بلا رحمة في الدهاليز الخالية .. او قهقهات متقطعة مجنونة لزمرة غاضبة تطاردها .. القهقهة الهستيرية المدوية .. تتبعها ضحكة هستيرية اخرى تطلقها امرأة مقبوحة في شماتة وتهكم .. او الصرخة الساخرة المنبعثة من حلق مجنون .

عناصر ثلاثة لم يخل منها حلم من احلامها المرعبة .

وقلت : « الا تذكرين المزيد ! »

وقالت : « كلا ، الماء ، فقط ، والمطاردة ، والقهقهة » .

« ولكنك ذكرت الاشكال العجيبة ، والمشاهد ، والغرف ، فحاولي ان تصفيها ! »

« هذا محال ، لا استطيع ... »

وغطت عينيها بيديها واردفت :

« ارجوك لا تلح •• فأنا سردت كل شيء تذكرته • لعلها رهيبة ولهذا انساها ••• أعني احلامي ! »

« وما غيرها تعنين ؟ »

فهزت كتفيها واجابت :

« لا ادري •• ربما الذكريات ! »

« أمن ذكريات معينة ؟ »

« ما أفظعها ! »

وانتظرت ان تستمر ، ان تواصل الحديث ، وبعد ان رفعت يديها عن عينيها ، وشبكتهما فوق جبينها ، واخذت تضغط وتضغط حتى ابيضت عقد اليدين وتوردت الاصابع ••

وقالت : « انا افكر بالليلة التي غادرنا فيها ابي •• فهل قصصت عليك ذلك ؟ »

كانت تمطر في الخارج ، وقد رفعت صحاف العشاء عن المائدة • وكانت لورا واخوها يجلسان الى مائدة الطعام ويؤديان فروضهماالمدرسية• وفي المطبخ كانت « فريدا » الابنة الكبرى تغسل الاواني • اما الام فقد اقتربت بكرسيها المدولب من غرفة النوم الاولى واخذت تصغي الى الاذاعة •

كانت الشقة متاخمة للمنطقة الصناعية • وكانت تتخللها الرطوبة • وقد كانت الريح الباردة تهب عليهم من ناحية النهر • فيسمع لها صفير عجيب •

وكانت يدا لورا تتيبسان من الصقيع • كانت تضع القلم من يدها على

فترات لتنفخ من نفسها الساخن علـى أصابعها المتجمدة ، أو كـانت تدخل يديها في كمي كنزتها الصوف •

كانت قلقة مضطربة ، تشخص بنظرها وتطيل التحديق • وعلى مقربة منها كان مايك الصغير يحاول تصوير أحرف الهجاء •

وفتح الباب ، فرفع مايك رأسه والتقى الناظران فـي نقطـة خوف وجزع ، وسمع الاثنان صوت خطى ثقيلة تقترب •

وما عتما ان استأنفا ما قطعاه ولكن تكلفا فقط • وأصاخا بسمعيهما كما أصاخت فريدا بسمعها في المطبخ •

وما هو الا قليل حتى سمعوا صوت ابيهم يلقي التحية باقتضاب ، وبرد أمهم الخفيض • ثم صدر عـن الفراش في غرفة النوم صوت عرفوا منه ان أباهم استلقى على فراشه، تلاه صوت الحذاء وهو يلقي به الى الارض• وتبع ذلك صوت آخر علموا منه ان أباهم عاد الى الوقوف •

وقالت امهم : « ان لـم تكن تريد النوم فانتعل حذاءك لألا تصـاب بالبرد » •

وأجابها ابوهم : « دعيني وشأني ، لا أشعر بالبرد » •

« لا اشعر بالبرد » قالت امها في محاكاة له •

واستتلت : « طبعا لا تشعر بالبرد• لماذا تشعر بالبرد ؟ لو كانفي جوفي برميل من الويسكي لما بردت ابدا »

واجابها قائلا : « لا تبدئي من جديد يا أنّا • أنا متعب » •

قالت : « متعب ؟ وما هو سبب تعبك ؟ ليس العمل على كل حال ! »

وقاطعها : « اصمتي يا أنّا • »

قال هذا بصوت يفيض مللا ثم دلف من الباب •

ونظرت لورا الى وجه أبيها لدى دخوله وابتسمت • وانحنى هـو ليلمس وجنتها بشفتيه • فشعرت هي بشاربه على خدها ، واشتمت رائحة الويسكي المنبعثة مع أنفاسه ، فأحست بدوار وغثيان •

ودنا هو من مايك الصغير فعبث بشعره قليلا ، ثم رفع كرسيا فوضعها في ركن وجلس عليها •

ونظر حواليه وهتف : « فريدا ••• »

وسارعت الفتاة الكبرى الى البـاب ، وهـي تسلس شعرها بيديها ، وقالت : « نعم يا ابي ! »

قال : « اتجلبين لابيك لقمة يتبلغ بها ؟ »

ووصلت « أنّا » بكرسيها في تلك اللحظة ، ونظرت اليه وهي تقول بصوت جاف :

« لا يوجد شيء لك • ان اردت ان تأكل ، فتعال في موعد العشاء •• فهذا ليس مطعما ! »

ولكنه تجاهلها وتكلم من فوق رأسها الى فريدا قائلا :

« افعلي ما قلته ، جيئيني ببعض الطعام • »

ولما استدارت فريدا لتفعل ما قاله ابوها ، صاحت أنّا زاجرة : « قفي! لا تمتثلي له ! »

وحدجت زوجها بكره عظيم ، وقد مسخ وجهها ، فبدا قبيحا رهيبا • وانتفخت عروق رقبتها الطويلة ، وارتعدت اوصالها كلهـا فـي جسدهـا المنكمش المتقبض ، وقالت بصوت كفحيح الافعى :

« أتيت الى البيت لتأكل ••• تأتي بعد ان تصفر يدك من المال ، بعد ان تنفق المال على المتشردات • تظن اني لا أعرف • اين كنت منذ الامس ؟

الا تعرف ان لك أسرة ؟ »

فأجابها بلهجة متوعدة : « أنتّا •• قلت لك اصمتي ! »

وصاحت : « لن أصمت • لا تكترث قلامة ظفر بنا ، ولا بما يصيبنا ويحل بنا • لا تبالي سواء عشنا او متنا ، سواء شبعنا أو جعنا •• لا تفكر الا بسومساتك ، ولا تنفق مالك الا علـى مومساتك ، ولتهترىء زوجتك ، وليهترىء اولادك ! »

وبدأ يقول : « أنتّا •• الصغار ••• »

ولكنها قاطعته صارخة : « الصغار ! أتظنهم لا يعرفون أي أب منحط انت ؟ اتظنهم لا يعرفون اين تكون عندما تغيبـو عن البيت ؟ »

وخبط الرجل الطاولة براحة يده ونهض واقفا ، وصاح :
« كفى ! كفّي ! لن اصغي الى كلامك • فاصمتي ويلك ! »

وتقدم من المطبخ • وكأن أنتّا كانت متوقعة هـذه الحركة ، فاندفعت بكرسيها معترضة طريقه في المدخل وقالت :

« الى اين انت ذاهب ؟ »
فقال : « ان لم تأتيني بشيء آكله أنا آتي به ! »
قالت : « كلا ، لن تفعل • لا يوجد شيء لك • »
قال : « ابتعدي عن طريقي يا أنتّا • اريد ان ادخل المطبخ ! »
قالت : « عندما تأتي الى البيت بالمال تدخل المطبخ » •
فاكفهر وجهه ، وانطبقت اصابعه في قبضتين ، وبصق وقال :
« مقعدة ! تحركي ، والا ••• »

وضحكت ضحكة مبتورة مريرة واجابت : « والا ماذا ؟ ماذا تفعل ؟ تضربني ؟ اضربني •• اضرب المقعدة ! ماذا تنتظر ؟ »

وتسمرا في المدخل متواجهين ـ قاعدة وواقف ـ متجمدان في لوحة رهيبة من الكراهية المتبادلة •• من الحقد المتبادل ••

ووراء الاب جلست لورا ومايك الصغين بجمود وفزع • وفي الصمت الذي اعقب تحدي (أتّا) ، سمعا نقر المطر على النوافذ •

وارتخت يدا الاب ببطء ، وقال بصوت هادىء :

« ان لم تبتعدي ، اغادر هذا البيت ولا أعود ! »

وردت : « اذهب ، من يريد لك وجودا ؟ »

وكتمثال وقف دقيقة في مكانه بلا حراك ، ثم استدار مندفعا الى حجرة النوم ، تتبعه عيونهم •

وتخلل الصمت الثقيل اصوات احدثها هو في حركته •• وتتبعوا هم حركته بالظل الذي احدثه شخصه الطويل •

وعلى وجه (أتّا) ، حين ادركت ما هو فاعل ، تحولت نظرة النصر الى نظرة جزع ، وتقبضت اصابعها المعروقة على دولابي الكرسي • وبسرعة استدارت حول المائدة • وتوقفت عند الباب وقالت :

« مايك ، ماذا تفعل ؟ »

ولم يأتها جواب الا في صوت رفاص السرير ، وحذائه الضارب بشدة على ألواح الارض العارية •

وتابعت : « مايك » •

وكان صوتها حادا ، ثاقبا ، فزعا ، والها

« الى اين ؟ انتظر ! »

واندفعت الكرسي الى الحجرة وغابت عن نظر الصغار •

واصغوا ـ اصغى الصغار وفي صدورهم ألم احدثه الفزع •

وتمسكت هي بمعطفه وولولت : « مايك ، انتظر يا مايك • ارجوك ، لا تذهب ، لم اقصد ما قلت • عد • تعال الى المطبخ • كنت هازلة • مايك، لا تذهب • »

وانتزع معطفه من يدها ، ولكنه انتزعها مع معطفه ، فتطايرت من كرسيها وحطت على الارض العارية ، وسمع لاصطدام يديها وساقيها بالارض صوت شديد • وصفق الباب الخارجي بشدة •• وسمع صوت المطر •• متخللا زفراتها ونشيجها !

وقالت لورا ، بعد الوصف القاتم :

« هذه المرة كان مصمما •• فهي تمادت •• لم يرجع • وكان احيانا يرسل بضعة دولارات في ظرف • وفي عيد ميلادي وصلني منه صندوق طوفي •• وكان هذا آخر عهدنا به • »

وبارتباك تحسست مقبض حقيبتها ، ففتحته واخرجت منديلا • كانت مدامعها تسيل من قرنيتي عينيها • بعض هذه الدموع علقت بشحمتي اذنيها، فكانت اشبه بقرطين متدليين • وراقبت الدموع المعلقة وتساءلت ، الا تدغدغها ؟!

ومررت اناملها على عينيها بلمسات خفيفة ، ثم مخطت بضجيج • واخذ صدرها يعلو وينخفض بصورة غير رتيبة ، كانت الحجرة هادئة ساكنة • واختلست نظرة الى ساعتي •

وقالت : « ماذا ؟ »

وقلت : « ماذا ماذا ؟ »

قالت : « ما بالك لا تنطق بكلمة ؟ »

« ماذا اقول ؟ »

« على الاقل ، عبر عن تعاطفك »

« مع من ؟ »

« معي طبعا »

« لماذا اشاركك وحدك بوجداني ؟ وفريدا ؟ ومايك الصغير ؟ وامك ؟ بل وابوك ؟ »

« لانني التي اصبت اكثر من الجميع بقلبي وصحتي •• انت تعرف هذا ، وخليق بك ان ترثي لحالي ! »

« وهل سردت القصة الطويلة استدرارا لشفقتي ؟ »

واستدارت في جلستها ورمتني بنظرة حادة ، نظـرة مفعمـة بالنقمة والحقد ، وما لبثت ان قالت :

« لا تقيم أي وزن لي ؟ »

وأجبت : « انـت لا تريدين أي وزن ••• تريدين الوزن كلـه يـا لورا ••• مني ، من كل انسان ، من جميع الناس ! »

وتساءلت : « ماذا تعني ؟ »

فقلت بسرعة : « قصتك مثلا ، قصة مروعة ، تحرك عاطفة كل مستمع لها ، ولكن ••• »

فهتفت وكأنها تبصق : « وانت لم تكن لك عاطفة ، لانك بريء مـن الانسانية •• لانك حجر • لا تعطي ، تجلس كتلة من خشب وتراني اتقطع، وترى قلبي تتمزق نياطه ! »

وصمتت صمت والهة ، ثم استتلت بصوت محمل بالكره والبغض :

« انظر الى ذاتك ! ليتك ترى نفسك كما أراها ! أود لو رأيتها بعيني! تبا لك ولموضوعيتك ! موضوعية ، ويحك ! أرجل انت ام آلة ؟ الا يخالجك

احساس ؟ أفي أوعيتك دم أم ماء مثلوج ؟ أجبني قبحك الله ، أجبني ! »
ولزمت الصمت
واردفت بعد لحظات :

« أترى ؟ لم تنطق . اضطم فمك على خرس ! فهل أموت حتى انتزع منك كلمة ؟ ماذا تبغي مني ؟ »

وانتصبت واقفة وتابعت :

« طيب ، لا تقل كلاما ، لا تقدم شيئا .. انا منصرفة .. أيقنت الآن انك راغب عني ، لا تريدني هنا.. انا ذاهبة ولن أعود ! »

وفي لفة خاطفة بتنورتها انثنت خارجة في اندفاع حانق !

وثار في اعماقي فضول عجيب .. وعلقت أتأمل بأفكاري في ما سردته ، وفي ما مثلته .. وعجبت أيما عجب لاتقانها .. فهل هي عليمة بأنها أتقنت ؟

★ ★ ★

بيد ان (لورا) لم تنفذ الوعيد ، وسرعان ما عادت ، وكررت العودة .. جعلت تأتي اربع مرات في الاسبوع وعلى مدى سنتين كاملتين .

في خلال العام الاول كان التقدم بطيئا لا يكاد يلمس .. كان التقدم مقتصرا على ناحية واحدة — الاعراض — وخاصة اعراض الكآبة والانضغاط ، والافراط في الاكل .

تقدم طفيف لا يعتد به ، وظلت الاعراض عنيفة لا تتزحزح . ظلت تبرز بقوة تثبت وجودها في تحد .

ولا جرم ان الشهور القليلة الاولى التي مرت على مباشرتنا في التحليل ، كانت شهور عسل ، فهي شهور امتازت ببارقات الامل ، كما

أكدت لورا : فالاعراض كانت تغيب : فتهنأ : وينشرح صدرها : ويفرخ في روعها ان الشفاء تم او هو وشيك . وقاب قوسين منها أو ادنى !

ولكن ، خاب فألها : فالفترة التي هجعت فيها الاعراض كانت قصيرة، وشهر العسل ، لم يدم طويلا .. وعادت الكآبة تلح ، وعادت الشهية تنفتح مصاريعها .. وكانت الكآبة المرتدة قد استجمعت اعظم قوة ، وشرعت تلحف عليها : فلا تبارح حتى تنثني عائدة وكأنها ندمت !

يا للهول .. ما ارهب ذلك اليأس ..

وبدا الفشل واضحا .. على السطح بدا الفشل بشعا .. بدا العلاج غير مثمر ، بل بدا كأنه يضاعف من سوء حالها .

بيد اني علمت ، ولورا علمت : ان عمليات فعالة قد بدأناها ، وان العلاج لا بد آيل الى نتائج باهرة .. وان كان التقدم أقل من ان يرى .. ولكنه تقدم ، وتقدم مطرد .. تقدم في السر ، تقدم في الخفاء .. وكأنه يختلس نفسه اختلاسا ليفاجىء عصابها بخبطاته !

هذا اسلوب علاجي مألوف لا يعرفه الا من خضع للتحليل النفسي ، أو الذين اجروا التحليل . في الظاهر كل شيء يبدو غير متحرك، كل شيء يبدو كما كان قبل العلاج ، بل يبدو في كثير من الاحايين أسوأ مما كان . ولكن في الخلفية الذهنية المحتجبة عن المراقبين والمستطلعين ، وغير المنفتحة على أي تحقيق ، فان البنيان الاساسي للشخصية يكون قد تأثر .

ففي غفلة ولكن بتعمد يتزعزع العصاب من أساسه ، وفي الوقت نفسه تقوم دعائم جديدة اكثر تحملا ودواما ، وعليها في النهاية ترسو الشخصية المتبدلة . ولو فهم هذا الواقع المؤيد بالسابقات . لو فهم النقاد الحاملون على مبدأ التحليل ، او لو فهم — وهذا أهم — اصدقاء الخاضع للتحليل وذوو قرابته ، الذين لا ينون يتذمرون ويشتكون من غياب البرهان على أي

تقدم ، لأدى ذلك الى اختفاء البلبلة والاختلاط ؛ ولأفضى الى كثير من البحث العاقل المجدي عن مزايا التحليل وفضائله ؛ ونفاذه كعلاج للحالات المستعصية ٠

لسنة بدت لورا واقفة في مكانها ، بل بدت متقهقرة خاصة في الحالة المحزنة التي سردت تفاصيلها ؛ فهي هنا استعرضت ماضيها ، وفي جلساتها معي مباشرة فور انتهائها ، او بعد فترة وجيزة ؛ جعلت تمثل الدور العنيف. او تنسج خياله من جديد على القاعدة ذاتها ٠

وغدت عيادتي مسرحا مثلت ادوار حياتها على خشبته ٠ وغدوت أنا الهدف الذي وجهت اليه تأثيرات تجاربها المحزنة ٠ بهذا الاسلوب عوضت عن يأسها السابق ، مستغلة جو التحليل المجيز لكل تصرف للحصول على رضا النفس الذي لم تنله ولم تستطع نيله في السابق ؛ وكذلك الشعور بالراحة والمتعة الذي لم تعرفه قبل الشروع في التحليل ٠

وكانت فكرتي الكامنة وراء السماح لها بكل تصرف وبكل أداء ، هي ان اتيح لها مرآة لتصرفها هذا ، فترى ليس فقط التطرف والمغالاة في الاساليب التي ارضت بها عصابها، بل ايضا تفاهة رغائبها التي طلبتها وسعت اليها بوحشية احيانا وبهمجية مسعورة احيانا اخرى، طوال ايام حياتها ٠

واخيرا كان الاجراء يستهدف اظهار عجزها عن بلوغ الرضا الدائم من تصرفاتها التي ارتاضت عليها ٠ وكان علي ان اقيس لها بدقة في الوقت المناسب، وفي مقادير صحيحة ؛ الفوائد التي استحقتها نتيجة تصرفها الناضج في سعيها للاهداف الناضجة ٠

اجل ؛ اول سنة مع لورا كانت سنة محنة متعسفة ؛ ليس لها فحسب ، بل للمحلل ايضا ؛ الذي هو انا ٠ وكثر ما تمنيت لو انها اختارت غيري ليضطلع بالمسؤولية الشاقة ٠٠ بل احيانا وددت من صميم قلبي لو انها قرنت

الفعل بالقول ، وهي تتهددني بفصم العلاقة ، والابتعـاد •• تمنيت ان لا اراها ، وتمنيت ان لا اسمع كلامها • ولم تتحقق الامنية •• ولعلهـا كانت عابرة ، والجوهر كان الرغبة الخفية في المتابعة !

ولا ابرح اذكر بصورة حية حادثة وقعت ، واني لأدرجها هنا لأبين ما كانت تحدثه من ضغط هائل ، وكذلك لابين اسلوبي معها ، كاشفا النقاب في آن واحد عن عصابها الذي كان متى اشتد يداني الجنون •

هذا الذي حدث صادف تاريخه في الشهر الحادي عشر مـن بـدء التحليل • وكان نمط العلاج قد تقرر واستقر ، وقـد اصبحت حائزا على الحقائق التي تعتبر مدخلا عريضا لحياة لورا •• فعرفت سر جنونها النفسي، عرفت مبعث خللها •• عرفت سيكوديناميتها ••• عرفت اثر حياة الطفولة في سلوكها وتصرفها •

وكانت الان في حالة هدوء نسبي •• في حالة اقتناع ورضا • شهر كامل مضى على آخر نوبة •• وعملها كانت تزاوله جيدا ، وعلاقتها برجل توطدت • وهذه العلاقة كانت السبب في ما حصل خلال الساعتين ، فلورا ارادت لعلاقتها الدوام ، ولكن في شكل آخر يختلف عن مغامراتها الغرامية التي سبقتها •

قالت : « لا اريد ان افسد هذه •• ولكن سأفسدها كما أخشى •• ساعدني ، احتاج الى مساعدتك •• انا في مسيس الحاجة اليك ! »

واجبتها متسائلا : « بأي طريقة تفسدينها ؟ »

فقالت بحوية : « بأن أكون نفسي المستقطبة ! تعـرف ــ ويجب ان تعرف ، لأنك نبهتني الى ذلك ــ تعرف كم أنا متطلبة ، والى أي مدى انـا مستملكة •• بيد اني على سبيل التغيير ، أود لو كنت اختلف ، لمرة واحدة

اريدها علاقة حب تنتهي الى شيء ملموس . الــى شــيء محسوس ، الى نتيجة ! »

قلت : « أتعنين الزواج ؟ اتفكرين بالزواج ؟ »

وضحكت في قهقهة مشرقة واجابت :

« اذا استوجب الامر ان تعرفه ، فاعرفه •• خصصت نفسي بنخبة من الاحلام ••• ربما الاوهام ، ان شئت ! الزواج بـ «بن»•• ولكن هذا ليس قصد قلبي ! الذي اتشوف اليه النظر هو الحب ـ اعطيه ، وآخذه ! »

قلت : « اذا كان موقفك موقف فعل لا قول ، فما حاجتك الي ؟ لا حاجة لك بي ! »

وسحقت سيجارتها في المرمدة بحركة مبتورة غاضبة ، وانشأت تقول :

« انت فظيع ، اجل ، فظيع •• اطلعك علــى امــر يتضح منه التقدم والإمل ، ودون تريث تغرقه بالماء البارد ! »

لم تلن لي قناة ، ولكني ألقيت بالسؤال :

« ماذا يظهر التقدم في رأيك ؟ »

« طبعا تسليمي بأن اعطــي •• عسى ان تكون لاحظت انــي بدأت بالعطاء ! »

« قد لاحظت ! »

« أليس لهذا مدلول ؟ ولا معنى ؟ أليس لهــذا معنــى بأني تقدمت شوطا ؟ »

« له معنى ، أجل •• ان كان حقيقة لا تكلفا ، ان كــان حقيقــة لا تعريضا ! »

تبا لك وويحا ! تدعوني نهمة •• وانــت المنهوم الذي لا يشبــع ولا يقنع •• ولكني سأريك ! »

وأشعلت سيجارة اخـرى ودخنت دون ان تتكلـم • لقـد زعزعت شكوكيتي من ثقتها بنفسها ، وهذا ما أردته انا وتعمدته ، لأني عرفت مـن التجارب مدى رضوخها للتضبيع التحليلي الذي استهدفت منه التأثير علي وتضليلي • كانت كما أيقنت تمثل دورا احيانا ، وربما غير واعية • وقـد أردت بعد روية واعمال فكر ان اجاريها في البحث ـ في بحث الموضوع الذي أتت به ـ حتى امكنها بطريقة مـا مـن استكشاف غاياتها واهدافها الحقيقية من العلاقة الغرامية المستحدثة ••

وتكلمت كما اردت انا ان تتكلم ، قالت :

« على كل حال ، ليس هذا موضوع حديثي اليوم • لقد طوف بي حلم ، فهل احدثك عنه ، واطلعك عليه ؟ »

وكنت قد علمت ان المريض متى عمد الى هذه الطريقة في عرض حلم ـ معلنا عنه في البدء ، ثم مستنكفا الى ان يطلب اليه المحلل ان يرويه •• يكون في الواقع قد دلاه ـ دلّى الحلم ـ كثمرة شهية محرمة ـ قبالته، على ان يمد هو يده وخليق عندئذ بالمحلل ان يصغي بانتباه، ان يرهف السمع • فمثل هذا الحلم ، او بالاحرى ، مثل هذا العرض للحلم يعبر بوضوح عـن اهمية الحلم ، وعن مدلوله ، ويمكن ان يكون متضمنا الاثر الفريد الخفي للاسباب التي اورثت المريض عصابه •

والمريض يعرف « هذا » غير دار ، ويستعمل المعادلة الغريبة في وصف الحلم وقيمته ولو بألفاظ مبهمة غير واضحة • والى جانب هـذا فهو يقدم الحلم ، حينما يستلفت الانتباه اليه بهذه الطريقة ، كهبة منه للمحلل ، هبة لها مضمون اغزر بكثير من الحلم نفسه ، ويحتوي الاحتمال بالتخلي عن منطقة كاملة من الاداء العصابي •

فتحفظاته بشأن التخلي عن جزء من عصابه ، والرضا الذي كان يناله منه يفضحه استعماله المتكرر لعبارة :

« هل اطلعك عليه ؟ »

هو يريد التأمين ، يريد التأكيد المسبق بأن التضحية لها ما يبررها من عوض يناله ، وبأن المحلل سيقدر ذلك (ويحبه من اجل ذلك) ، وبأنه ، هو (المريض) سيشعر بالقدر نفسه من الرضا والبهجة متى حلت عمليات اجمل وأقوى في التحليل مكان العمليات الآنفة •

ولهذا السبب ينبغي للمحلل ان يأخذ حذره ، ان يحترس ، فلا يمد يده الى الثمرة (المتدلية) باغراء •• فاختطافها ، او التمسك بها حالا معناه تجريد مريضه من الخطوات الاولى المؤلمة — ولكن اللازمة — نحو المسؤولية الفردية ، وتعريض نفسه هو — نفس المحلل — الى (صفقات) ووعود هو في غنى عنها ، بل هو في غير حل من ابرامها ومنحها •

لهذا ، عندما امسكت لورا (بثمرة) حلمها — ولو اني كنت متلهفا الى سماعه — احجمت ، مستجيبا لنداء (المبدأ الاول) •• وقلت لها :

« علمتك من مطلع الامر ، ان تقولي ما يجد وما يحدث •• فان كان في فكرك شيء عن حلم فبثّيه لي • »

وتكلمت — وقد ارغمت — قالت :

« هذا ما حلمت به ••• كنت في ما بدا لي كقاعة رقص، ولكني أيقنت انه مستشفى • وجاء رجل فأمرني ان اتجرد من ثيابي ، ان أتعرى •• وكان سيخضعني للفحص الطبي ، كما يفعل الطبيب المختص للنساء عادة •• وامتثلت له ولو اني شعرت بكثير من الخوف • وبينما انا ماضية في خلع ثيابي ، لاحظت انه كان يفعل شيئا بامرأة في الطرف الاخر من الحجرة •

وكانت المرأة جالسة أو مستلقية في اداة غريبة الشكل ، تبرز منها آلاة متنوعة ، من رافعات ورؤس ، وهلم جرا . وايقنت انـي التالية ، وانـي سأجلس في الاداة ليجري فحصه علي . وفجأة ناداني باسمي ، فألفيت نفسي أعدو نحوه عدوا . وكانت الكرسي او المائدة ، لا ادري ، خالية الآن ، فأمرني ان اعلوها . فأبيت وجعلت انتحب . وبدأ المطر يهطل ، قطرات عظيمة . ودفعني الى الارض ، وابعد ما بين ساقي ليفحص ، واستدرت على بطني صارخة مولولة . واستفقت على صوت صراخي ! »

كانت لورا اذ ذاك مستلقية على الاريكة ، وكانت عيناها مغمضتين ، ويداها متشابكتين فوق صدرها .

وبعد الصمت المنتظر الذي لم يسفر عن رد فعل من جانبي قالت في شبه عتب :

« ما معناه ؟ »

فقلت حاثا : « لورا ، تعرفين اكثر من هذا .. زوديني بما تعرفين ، فقد نستطيع ان نكتشف . »

قالت : « اول شيء افكر به هو « بن » ، انه في الجامعة يعمل كما تعرف . واظنه الطبيب في الحلم ـ او لعلك انت الطبيب . على كل ، ليس المهم من يكون ، فأنا لن ادعه يفحصني . »

« ما المانع ؟ »

« اخاف من الاطباء .. خفتهم دائما .. خفت من المضرة . »

« أي ضرر خفت منه ؟ »

« لا ادري ، ربما وخزة الابرة .. وهذا مذهل ، لم افكر من قبل به . فعند طبيب الاسنان لا اخاف الابرة ، ولكن مع طبيب الصحة الامر يختلف ... »

ولاحظت عندما وصلت الى هذه النقطة كيف تقبضت اصابع يديها على ذراعيها عند المرفقين ، بينما راح الباهمان يتحركان في الفراغ الداخلي من المفصلين .

واستتلت : « واني لأرتعد فرقا كلما فكرت بشراييني تثقب .. دائما توجست خيفة ، وانتظرت ان يفعل الطبيب هذا بي ! »

« وهل وقع هذا فعلا يوما ؟ »

فهزت رأسها وأجابت : « أجل ، في المدرسة ، فحص الدم وتحليله .. وقد اغمي عليّ . »

قلت : « والفحوص العامة النسائية ! »

لم اخضع لها قط . لا أطيق التفكير بانسان يضع ادواته في داخلي » .

وساد الصمت هنيهة ، ثم اردفت : « الآن فهمت ، انا ارهب الجنس . الطبيب في الحلم هو (بن) ، يريد ان يجامعني ، ولكني أجزع وأطوي كشحا عنه .. هذا صحيح . قبل ليلة ، بعد الحفل الموسيقي جاء الى شقتي، فصنعت القهوة ، وجلسنا نتجاذب اطراف الحديث . وكان لقاء رائعا ، كانت جلسة جميلة ممتعة ، هدوء وسلام ووئام .. ثم بدأ يغازلني ، فهاج في اعماقي شيء لذيذ .. ولما حانت لمحة الجمال الفعلي ، منعته .. اضطررت ان امنعه .. فقد انتابني رعب هائل .. هو على الارجح يظن اني عذراء، وان هذا هو سبب فرقي الشديد .. او لعله يظن اني لا اعير حبه وزنا . ولكنه مخطىء ، فأنا أحبه وأتوق الى حبه .. أواه يا دكتور (لندنر) ، اتضرع اليك ان تساعدني ! »

ولكني قلت لها مذكرا : « غيره من الرجال طارحك الغرام ! »

فأجابت وهي تنشج : « أمنعهم دائما عني ، الا في اللحظة الاخيرة ، بعد ان تعييني الحيلة وافتقر الى الوسيلة . واني كما تتذكر من احاديثنا ،

لم اضاجع الا مرات معدودة ••• اعني المضاجعة الحقيقية الكاملة ! فـي الغالب كنت أغازل من يغازلني ، فأرضيه الـى حـد بعيد ، بطريقة ما ،•• باسلوب •• ولكني لا اذخر وسعا في صدهم ، فـي منعهم مـن الادخال ، اخاف من دخول أي شيء ، كما اخاف الابرة ! »

« لماذا يا لورا ؟ »

« لا ادري •• لا ادري •• انت قل لي ! »

« الحلم يقول لك كما أظن »

« الحلم الذي رويته ؟ »

« اجل ••• جزء منه لم تتأملي في معناه ومغزاه ! ماذا • ماذا يدور في خلدك متى فكرت بالمرأة الاخرى في الحلم ؟ المرأة التـي كـان الطبيب يفحصها ؟

الاداة التي كانت تجلس عليها ، كـانت •• كـانت اشبـه بكرسي الدواليب •• كرسي امي • أليس كذلك ؟ »

« على الارجح • »

« ولكن لماذا يفحصها ؟ ما معنى هذا ؟ »

« فكري بما يعنيه هذا الفحص • »

« الجنس •• الجماع •• هذا ما يعنيه •• هذا هو اذن ، الجنس وضع امي في الكرسي • شل حركتها ، واخاف ان يفعل بي ما فعله بها •• كيف تولدت هذه الفكرة المجنونة في عقلي ووجداني ؟ »

مثلها مثل الافكار الكثيرة التي تتوالد فينا ، توالدت هذه الفكرة في قلب لورا قبل ان تبلغ سن الوعي والادراك • برزت الفكرة مـن مشاعر الاضطراب والرعب ، عندما كانت تستيقظ في بهيم الليل على الاصوات

الغامضة التي تصدر عن ابيها وامها اثناء اندماجهما العاطفي ، فلـم تعرف كنهها تماما ، ولم تستطع ان تجمع منها صورة لاستعمالات الحب • وصدها الجو الخانق من الكره الذي عاشه ابواها عن الاحاطة بالحقيقة •• وكانت هذه الاصوات في الليلة :

« مايك ، انت تؤلمني • »

والانين والتأوه ، والضحك ، كل هذه العوامل رسخت في اعماقها صورة الجانب الاسود من العاطفة المشبوبة ، صـورة الالـم المنبعث من الجماع ـ الألم المجسم طبعا ـ الالم الخالي مـن اللذة •• الوحشية التي افرخت في روعها ان العملية كلها وحشية !

ولما أصمى الداء امها ، ربطت لورا بين المصيبة هذه وما كان يجري في الليل ، فكان هذا ثالثة الأثافي ••• فجعلت تنظر الـى امها الكسيحة ، كأنها الرعب المتجسم في كرسي •

وشرحت هذا لها ، وقرنت شرحي بمعلومات تيسرت لي من التحليل • وكان التفسير لها مدهشا فتح لهـا مجالات للنظر كانت موصدة •• أتاها هذا مفاجئا ، فشدهها ، وما كادت تغادر الاريكة ، بـل قبيل مغادرتها لها ، شعرت بعبء يرتفع عن صدرها ، وبكابوس يفارق شعورها واحساسها ، شعرت انها انعتقت من امور عذبتها عذابا هائلا •

ففكرة استحالة الحب الجنسي ، فكرة تكونها الفريد الذي حرمها من المتعـة •• هـذه الفكـرة امّحت فـي لمـح البصـر ، كالبـرق ، فـي غمضة عين وفتحتها •• وكأنها انفصلت كلها الى ذرات عصف بها الهواء !

وصاحت والفرح مستحوذ عليها :

« أشعر بالحرية ! »

ووثبت واقفة •• وأتمت :

« هذه أعظم ساعة مرت من ساعات التحليل ! »

وعلى الباب توقفت واستدارت نحـوي بعينـين نديتـين لامعتين ، وقالت :

« عرفت اني استطيع الاتكال عليك ، واني لشاكرة لك ، صدقني•• »

وعندما ذهبت ، راجعت ما حصل خلال الساعة ، فأيقنت اني ايضا راض ، ومنتعش ، ومتفائل • ومع اني لم اعتبرها الساعة الفاصلة ـ لأن مقاييس المحلل تختلف عن مقاييس المريض ، الا ان اهميتها العظيمة مثلت لي بكل وضوح وجلاء ـ اهميتها فـي تقرير مصير لـورا وازالة العقبات الهائلة من درب حياتها •

ولذا فاني اخذت انتظر الجلسة التالية بصبر نافد ، واتطلـع بعيني المشوق الى ما تسفر عنه تلك الساعة القادمة ، آملا ان يدوم مزاجها الرائق الذي غادرتني وهو غالب عليها ، وراجيا ان تستغله لتثبيت مكاسبها •

والجلسة التي شرحت الآن كان يوم السبت موعدها • واتت لورا يوم الاثنين في الساعة المعينة • ولكني ما كدت أراها جالسة في حجرة الانتظار ، حتى انقبض قلبي ، وايقنت ان شيئا مؤسفا حدث فقلب الاوضاع ، وطمس الآمال • فهي جلست في كرسيها مغتمة موهنة العزيمة ، وقد ارست ذقنها في فنجان يديها ، والقت باهمال على كتفيها معطفا خفيفا •• ولما رحبت بها رفعت الي عينين فاترتين وانيتين ، وسألت بصوت خال من النغم :

« انت متفرغ لي ؟ »

فهززت رأسي واشرت اليها بالدخول • فوقفت بملـل ظاهر ملقية المعطف على المقعد ، ثم سبقتني الى الحجرة • وما ان اغلقت الباب حتى ارتمت على الاريكة في ضجعة جانبية، رافعة ذراعها الى رأسها ومغطية حاجبها بظاهر يدها •• بينما ارخت يدها الاخرى ، فتدلت على حافة الاريكة •

وقالت بصوتها الاجوف : « لماذا تتعب نفسينا ؟ لماذا ؟ »

فأشعلت سيجارة وجلست لاسمع ما تقول •

وتأوهت : « ألا تسألني عما ألمّ بي ؟ »

قلت : « لا لزوم للسؤال ، فأنت ستحيطينني علما • »

قالت : « أظن اني فاعلة ! »

ورفعت قدمها عن الارض ، وجعلت تتقلب لتجد لها وضعا مريحا •• ثم أخذت تصلح من تنورتها وتغمغم بكلمات النقمة والغضب وضيق الصدر •• واخيرا ، بعد ان استقر بها الوضع قالت :

« أمن الضروري ان اخبرك بأني نمت مع (بن) ؟ »

فقلت : « ان كان هذا ما تفكيرين فيه • »

قالت : « اظن انك مسترق نظر ، وهكذا تحصل على المتعة • »

فلم ارد عليها بكلمة •

واستتلت : « وانت ايضا محلل ، ان شئت • »

وسألتها : « لورا ، لماذا تجابهينني بالعداء ؟ »

فأجابت : « لأني ابغضك ، ابغض كل شيء فيك ! »

« استمري ••• »

فهزت كتفها قائلة : « هذا كل شيء ، ليس عندي ما أقوله • أتيت اليوم لأخبرك عن احتقاري لك •• لقد قلتها وانتهيت •• فهل اذهب الآن ؟ »

وانتقلت من الاستلقاء الى القعود وتناولت حقيبة يدها •

فقلت : « اذا كان هذا ما تريدين • »

قالت : « ولا تبالي ؟ »

قلت : « المبالاة ليست الكلمة . لا أحب ان اراك تذهبين . ولكن افعلي ما تودين فعله ... »

« كلام له معنيان كعادتك . »

وتأوهت ، ونظرت بعينين زائغتين :

« أنا هنا ، فلننه الساعة المعينة لي . فأنا ادفع مقابلها ! »

وانطرحت ثانية على الاريكة ، وانطلقت الى حالة الصمت مرة ثانية .

وقلت : « لورا ، انت راغبة كل الرغبة في ارغامي على رفضك اليوم ... لماذا ؟ »

« قلت لك السبب ، لأني اكرهك ! »

« فهمت هذا ، ولكن ما بالك تبذلين وسعك لكي ارفضك ؟ »

« أمن الضروري العود على بدء ؟ لان هذا طبعي ونمطي ــ كما قلت لي انت . ادفع الناس دفعا الى نقطة يرغمون فيها على رفضي ، ثم اشعر بالتفاهة ، والرثاء لنفسي ، واللوعة على حظي ، وبذلك أجد المسوغ لايقاع العقاب بذاتي ، أليس كذلك ؟ »

« تقريبا . ولكن لماذا تفعلينه هنا اليوم ؟ »

« انت شره للعقاب ايضا كما أرى ، كم مرة ينبغي لي ان اقول لك اني أكرهك ؟ اني اشنؤك ؟ اني امجك ؟ أليس في هذا الكافي ؟ »

« ولكن ما السبب ؟ »

« لماذا أرغمتني على فعله في الويك اند . »

« مع بن ؟ »

فهتفت باحتقار : « بن ! طبعا لا . وما دخلك انت ؟ شيء واحد حدث،

نمت معه •• نمنا معا ، تضاجعنا ! كانت فترة حلوة ، رائعة ، مدهشة ! لأول مرة في حياتي أشعر اني امرأة ! »

وعجلت أقول : « اذاً ماذا ••؟ »

فقاطعتني : « أصمت • اردت ان تعرف لماذا اكرهك ، وقد قلت لك • ولا علاقة لهذا ببن ، او بما حدث يوم السبت ليلا •• انه يتعلق بأمي ، ما بحثناه آخر مرة ••• لهذا السبب اكرهك • فهي مثلت لي طوال الويك اند، لم استطع ابعادها عن تفكيري ، او اقصاءها من مخيلتي •• افكر بها راغمة ـ بحياتها التعيسة ، بمعاملتي لها •• انــت ارغمتني ••• وتذكرت امورا فظيعة ، مصائب رهيبة فدحتها بها •• لهذا اكرهك ، لانك جعلتني أتذكر! »

واستدارت على جنبها ، ونظرت الي من فوق كتفها ، وقالت : « وانت ايها الوغد ، فعلت ذلك عمدا ، أردت ان أتذكر سوء فعالي •• لقد صرفت العمر وانا اسعى جاهدة الى نسيانها ، ونسيان كرسيها المتحرك على عجلات• غير انك ابيت ، انت أردت ان افكر بها •• انت جئت بها من رمسها لكي تسكن في ذهني ••• لهذا أبيت لك أشد انواع الكره ! »

هذا الانفجار العاطفي انهك قوة لورا ، فحولت بصرهــا عنــي ثانية ولاذت بالصمت بضع دقائق ، ثم رفعت يدها وامرت :

« أعطني مناديل الورق • »

فناولتها الصندوق ••• فأخذت منه ورقة مسحت بهــا عينيها برفق • وقالت وهي تمد يدها من جديد :

« اعطني سيجارة • »

فوضعت علبة السجائر والكبريت في يدها• فأشعلت سيجارة واخذت تدخن وتتحدث الى نفسها تارة ، والى شخصي تارة :

« عجيب كيف تسكت بكل شيء ، بكل حجة لكي أذكي نار حقدي، ووجدي ، وسخيمتي • دائما لمتها على ما حصل • دائما قلت انها ابعدت ابي وأقصته • استنتجت انها أرغمته على الهرب بتذمرها وتضجرها ، ومضايقاتها المستمرة • حاولت جهدي ــ ونجحت ــ ان اخفي عن نفسي ما جبل عليه من ضعة ، من تفاهة ••• رجل خامل ، كسول ، اناني ، لا كرامة له • سامحته على ادمانه ••• سامحته على اهماله لنا •• فكرت ، لم لا ؟ لم لا يعبث ويلهو ؟ لم لا يعاشر النساء ؟ فما قيمتها هي ؟ ما نفعها له برجليها المشلولتين وجسدها الناضب ؟

« واقصيت من مخيلتي صورته قبل المام المرض بها •• ولـم يكـن والحق يقال يختلف، دائما هو هو ، حتى وانا طفلة أحبو كان كما هو، تافها، تافها ، لا يفيدها في شيء ، ولا يفيدنا في شيء • ولكني احببته ــ يا الله كم احببته ! كم أحببت ذاك الرجل !

« كنت انتظر عودته بصبر فارغ ، بصدر خافق ــ وكأني عاشقة ــ لا يهم ، ليعد ثملا ، ليعد صاحيا ، المهم ان يعود •• كان يفكر بي ويحبني ، لهذا أحببته •• وقالت هي اني صفيته ، وبالفعل كنت كذلك • على الاقل كان يسأل عني دائما اكثر من سؤاله عن الآخرين •

« وعندما اسمعهما يضجان فيشجارهما كنت ألومها•• ما بالهاتعاكسه وتشاكسه ؟ لماذا لاتتركه وشأنه ؟ وعندما بارحنا وذهب ، قلت هي السبب، هي الملومة • ومنذ ذلك الحين ، والى يوم السبت الذي مـر أيقنت انهـا السبب ، انها الملومة • وقد جعلتها تقاسي من جراء ذلـك • فعلت امورا مرذولة ، امورا صادرة من نفس لئيمة وقلب مريض ، امورا كتمتها عنك ، فلم اشر اليها ولو تلميحا ••• امورا حاولت ان انساها ، ونسيتها حتى الآن

•• فعلتها عقابا لها لانها طردته •• لانهـا اقصته •• لانهـا حرمتني منه ، حرمتني من حبه •

أتود سماع شيء مما فعلت ؟ فكرت بهذا الامر المعين طوال يومين •• وقد انجو من العذاب ان قلته لك • »

في كل يوم وهي راجعة من المدرسة كـانت تقـوم باللعبة ذاتها مع نفسها • وهذا ما جعلها تفضل ان تكون وحيدة • لانه ماذا يكون امرها لو حدث ما توقعته وصاحباتها معها ؟ وكيف تشرح لهن الامر ! هي بلا أب كما يعرفن • حتى في نموذج الدخول المدرسي كانت تضع علامة (اكس) كبيرة في خانة (الاب ميت) • فماذا تقول اذا هو فجأة برز لها ولهن ؟ من مدخل بناء •• من زاوية شارع •• من الامام مباشرة في اندفاع •• ليمسك بهـا ويقبلها كما كان يفعل ؟

أيتسنى لها ان تقول : « هذا ابي يا بنات ؟ »

طبعا لا ، هذا مستحيل ، ولذا فخير لها ان ترجع وحيدة بعيدة عـن البنات ، وفي مأمن من كل خطر •• فكانت تمشي وتتظاهر بأنـه ينتظرها تحت التل ، أو قرب شاحنة الفحم ، او مختبئا قرب مدخل القطار الجوفي، او ••• كلا ، تلك الخطى خلفها •• الخطى التي تسمع صداها ــ ولم يكن وراءها أحد حينما التفتت ــ هي خطاه !

واللعبة هذه انتهت في مدخل البيت الذي عاشوا فيه • ان لم يكن هنا واقفا ينتظرها في مطلع الدرج ، او قرب الطابق الاول امام باب المنزل ، فتكون اللعبة انتهت • ولم يكن هناك الآن ، ولم يكن هناك من قبل ••• اللعبة انتهت !

وسمعت صوت الراديو وهي صاعدة، وتقبضت امعاؤها من الاشمئزاز والتقزز •• الشيء نفسه ، الشيء الملعون المتكرر ! لم لا يتبدل ولو لمرة ؟

ودفعت الباب بمنكبها • وانصفق وراءها بضجة • ولم تتحرك (اتّا) من نومتها في كرسيها •

ووضعت لورا كتبها على الطاولة ، ثم اصمتت الراديو بأصبعين متشنجتين ، وعلقت معطفها في الخزانة ، وضربت بابها بقوة :

« لتتنبه مذعورة ، لست ابالي ! لتستفق مبهورة ، ليتها تستفيق ! ولكنها ظلت نائمة ؟

وفي طريقها الى النازل نظرت نظرة عابرة الى امها •• في الكرسي كانت (أتّا) منحطة باسترخاء وتهدل ! كان لشعرها المصبوغ لونان ، بنيا وابيض •• كان شعرها يغطي جبينها ، وكان ذقنها متصلا بصدرها ، ومن زاوية فمها سال خيط من اللعاب، ومن كميها برزت يدان معروقتان، واصابع رفيعة مدببة تنتهي بأظفار حمراء بارزة كمخالب دجاجة وهي ممسكة بطرفي الكرسي • ومرت لورا بها فكتمت صرخة احتقار كادت تخرج من صدرها •

وفي المطبخ صبت لورا لنفسها قدح حليب ، ووقفت قرب الحوض تشربه • ولما انتهت غسلت القدح تحت الصنبور ولكنه سقط من يدها وتحطم على الارض •

وارتفع صوت (اتّا) : « هذه انت يا (لورا) ؟ »

« اجل ! »

« تعالي ، اريد ان تفعلي امرا • »

وتأوهت لورا : « حسن ، بعد ان ازيل الزجاج • »

وأتت ، فوقفت قرب الباب وسألت : « ماذا تريدين ؟ »

فأشارت امها اليها برأسها ، وقالت : « هناك على الطاولة ، حوالة الشؤون ، ولائحة السلع التي تحوجنا • وانت هابطة ادفعي للبواب اجرة البيت • »

واجابتها (لورا) بضجر : « طيب • انا ذاهبة • »

وقبل ان تغادر البيت ، وقفت مواجهة لها وقالت ، لاعبة الدور النصف الشهري المعتاد : « هل من شيء آخر ؟ »

وابتسمت (أ نّا) واجابت : « نعم ، لم اكتب على اللائحة ، ولكن ان وجدت ذلك النوع من الشوكولاته فاتيني به • » وطأطأت لـورا رأسها واقفلت الباب •• وطاردتها الموسيقى من الراديو مسافة بعيدة •

ولما عادت كانت محملة بالاغراض ، توقفت فـي حجرة النوم لحظة لتسكت الراديو وهي تغمغم :

« أقل ما تستطيعين ، هو خفض الصوت • سمعته من بعيد ! »

ولما تخلصت من حملها في المطبخ تناهى اليها صوت امها :

« هل أتيت بكل شيء يا (لورا) ؟ »

« اجل • »

« ودفعت بدل الايجار ؟ »

« طبعـا • »

« هل وجدت الشكولاته ؟ »

ولم تجبها لورا • وفي داخلها اشتعلت نار الحقد واستعر اواره •• في تلك الفينة شعرت بلذعة • »

ونادتها امها : « لورا ! »

فصاحت الفتاة بغضب : « ماذا تريدين ؟ »

« سألتك عن الشوكولاته • »

ووقع طرف لورا على العلبة ، وبدا كأنها سحرتها •• فهي مدت يدها ببطء كما يفعل النائم مغنطيسيا، فأمسكت بهـا واخرجت منهـا مربعين

فوضعتهما في فمها ، واخذت تمضغ بسرعة عظيمة • ثم ابتلعتهما •

وسمعت صوت العجلات على الارض ، فاستدارت • ورأت امها تجتاز عتبة حجرة النوم ، فأخذت القطع وعجلت اليها •

وقالت امها : « معك الشوكولاته ؟ »

فهزت لورا رأسها ورفعت الكيس •

« هاتيها •• » ومدت المرأة يدها •

فابتسمت لورا واخفت الكيس وراء ظهرها • فتعجبت (اتّا) وتحولت بكرسيها متجهة الى ابنتها • وانتظرت هذه ريثما وصلت المقعدة ، ثم قفزت بسرعة الى الجانب المقابل لتصبح المائدة حائلا بينهما •

وسألتها (أتّا) بصوت متهدج : « ما هذا السخف ؟ »

واجابتها (لورا) بوضع قطعة اخرى في فمها •

وصاحت (أتّا) : « لورا •• اعطيني الحلواء ! »

وامسكت بالدولابين وادارتهما بسرعة الى الامام • واخذت تطارد الفتاة التي هربت منها •• ودارت (اتّا) ثلاث مرات حول المائدة وراء ابنتها ، وتوقفت • وقد اعياها الامر •• وتلقاءها •• على بعد خطوتين حشت لورا فمها بالحلواء ، ومضغتها بعنف وكأنها تنتقم من الحلواء •

وصاحت (أتّا) بصوت لاهث : « ماذا دهاك يا (لورا) ؟ »

ووضعت لورا الكيس على المائدة ، واجابت : « ان اردتها ، اقتربي وخذيها •• انظري ، اكلت اكثرها ، فعجلي والا اكلتها كلها • »

في اعماقها كانت ألسنة اللهب تلسعها •• وتملأ قلبها بشعور القوة والسلطة ، وتشعل النار في اعصابها •• ارادت ان تضحك وان تصرخ •• شيء حفزها الى رفع عقيرتها •• الى الرقص ، الى الوثب •• وفي فمها اسكرها طعم الشوكولاته •

وقالت امها في نشيج : « اعطيني الحلواء ••• ارجوك يا لورا • »

ورفعت لورا الكيس قائلة : « تعالي وخذيها •• »

وتقهقرت يبطء الى الوراء • واندفعت امها بكرسيها ، فما كان من لورا الا ان خرجت وصفقت الباب وراءها بقوة وضجيج •

لم تذهب ، بل وقفت وراء الباب وأصغت لعويل امها ، ولقبضتيها وهما تضربان على الخشب•• وارتفع في صدرها موج الحقد، فتناولت ما تبقى من الحلواء وحشت بها فمها ، ومن اعماقها طفت قرقرة استحالت الى قهقهة مدوية •• وحاولت كبت هذه القهقهة ، ولكنها لم تستطع ، كان المد جارفا ، كان الجنون عاتيا •• وردد السقف صدى الضحك •• وكان الصدى هذا مرافقا لكل حلم رأته ••• وكان صوت الخطوات مرافقا لكل حلم رأته •• وكان صوت المطر الهاطل مرافقا لكل حلم رأته !

غير ان لورا قاست من العذاب الهائل في الاسابيع التي تلت تلك الحادثة • فهي وقعت فريسة التبكيت •• انبها ضميرها على ما فعلته بأمها ، وانحط احترام الذات في نفسها الى ادنى درجة — وهو لم يكن يوما عاليا !

وبمرارة فائقة سردت علي الوقائع ، غير غافلة عن ادنى حركة قامت بها يومذاك ، او بدرت من امها •

وبألم لا يماثله ألم قضت الساعات تصف لي فيها كلما ضمنا اجتماع من هذه الاجتماعات ، ما فرط منها بحق امها المقعدة ، وبحق غير امها من الاصدقاء والصديقات ، ومن المعلمين والمعلمات •• كل ما فعلته في السنين المنصرمة اعادت تصويره لي وكأنه حدث بالامس القريب •

وتبدل نمط الجلسات التي كنا نعقدها • كفت عن صب نار حقدها ، كفت عن اتهامي واتهام الدنيا قاطبة بتحجر الفؤاد ، وقلة الاهتمام بها • لقد

بدأت بالعد العكسي ، ولكن بصورة مختلفة .. الجميع كانوا رفاقا بها ، محبين لها .. وهي لم تستحق كل هذا الرفق والحب !

وتمشيا مع المزاج الجديد بدلت من نمط حياتها . غدت شديدة الزهد في لباسها ، وضعت لنفسها نظاما متقشفا ، اقلعت عن التدخين والشرب والرقص ، وكل ضرب آخر من ضروب اللهو والمتعة . وشق عليها اتخاذ القرار بتضحية لذة الجنس مع حبيبها بن . ولكنها بتصميم وعناد جهرت بعزمها على كبت نزوة الجسد وبرت بوعدها لنفسها .

اما أنا فلزمت الصمت في اسابيع الاعتراف والتندم هذه .. لم اعرب لها عن رأي او شعور .. لم اعلق على ما ارتكبته من هفوات ، وعلى ما توسلت به من اساليب . اصغيت فقط لحديثها .. ومهما كان التبدل الذي طرأ عليها ، بل مهما كان الانقلاب من حال الى حال عظيما ، الا ان لورا بقيت لورا ، المضطربة ، المكتئبة ، المجنونة ، الملتهبة ، الضاحكة ، الباكية .. لورا بقيت لورا الضحية المسكينة لرغبات غامضة مكنونة لم يكشف عنها النقاب بعد .

الا انها خالفتني فيما ذهبت اليه ، وكذلك اصدقاؤها وصديقاتها .. فهم في الواقع اذهلهم « التقدم » العظيم ، وحصلت انا من جراء ذلك على شهرة ورواج في مختلف الاندية والمجتمعات ، كمحلل ناجح اجترح الاعاجيب .

حقا لورا تحسنت حالها على السطح ، اظهرت الاستعداد «للتعديل» . فحميتها الصارمة ، وتصرفها الجاد ، وملابسها المحتشمة ، وتنازلها عن المتعة الجسدية مهما كان لونها ، وعلاقتها بين التي تنزهت من الصلة الجسدية — كما تهامسوا — كل هذا اعتبروه رمزا صادقا لما احدثه التحليل من معجزات !

بيد ان هؤلاء الذين امتدحوا واعربوا عن دهشتهم ، لم ينعموا النظر تحت القناع العام الذي كست به وجهها امام الناس . اخذوها على علاتها . اخذوها بمظهرها ، بمعناها الظاهر ، بما أبدته .. ولم يستكشفوا ، لأنهـا بعد التطور، كفت عن ايقاع الفوضى في أي مكان تدخله.. وبين أي جماعة تختلط بها ، لانها كفت عن طرح مشاكلها على (مائدتهم) ، أو الاستغاثة بهم في أوقات محنتها وكآبتها .. وقد شعر هؤلاء بالعبء يرتفع عن كاهلهم ، ولهذا سارعوا بالتعبير عن دهشتهم وعجبهم .

هذا كفاهم .. هي رفعت عنهم الهم ، وهي أخذت تتصرف بعقل .. وكفى هذا ... لقد شفيت من كلومها !

ولكنها لم تشف ، ولم تبرأ ، ولم تخف لوثتها .. والمعركة لم تنته ، لا بد من استمرارها ، فلا أحد غيرنا ــ انا وهي ــ يعرف ماذا يدور وراء الباب في رقم ٩٠٧ بناية (لاتروب) . في هذه الحجرة سقطت الاقنعة .. اما ان تكون قد اطّرحت جانبا ، لأنها لا تخفي الحقيقة هنا ، أو اخذت منها بعد الاقناع الدقيق المتأتي عن المحاسبة الذاتية . واول هذه الاقنعة الساقطة كان القناع الاخير : القناع الدفاعي او انكار الذات .

وأزف الوقت الذي وجدت من الضروري فيه ان أصد لورا عـن اعترافاتها التي اوغلت فيها ، عن هذا السباق الذي شرعت فيه في مستهل عامها الثاني معي . فالخطر بدأ يمثل لي بوجهه الكالح من جراء هذا الايغال في الاعتراف ... فهو تحول بسرعة من اعترافات الى ذم وتحقير لنفسها .. وكلما كانت تنقب في انحاء ذاكرتها عن براهين جديدة ، نما فيها الشعور بالذنب ، حتى كاد في النهاية يغرقها بطميه ... فهـي « امست لا ترى الا والهة مذعورة مما جنته على امها وعلى غير امها .. فان استمرت ، وان افسحت لها المجال ، فلا يعلم الا الله ما تؤول اليهـا حالها ... ولا أجسر

انا على ايضاح هذه النهاية الرهيبة فيما لو لم يجد هوى النفس هــذا مــا يكبحه •

كما إني بذلت جهدي لصد هذا التمادي، لانعدام فائدته من الناحية العلاجية •• فهو ، هذا التعذيب لا يشفي ابدا، بل يضع عصابا مكان عصاب والاساس الذي انشأ الداء يبقى فــي مكانه بعيدا عن كلّ ما يزعزعه •

وهو ايضا ، هذا التصرف ، يوفر لها تلــك (المتعة) العصابية التي مالأتها نفسها عليها ورغبتها فيها ، وحافظت عليها وقتا طويلا بأساليب حاصة استنبطتها • فالتضحية ، أو هذا الاستشهاد الجديد الذي تبرعت به هو مساو ومتكافىء للاشفاق على الذات الذي استحدثته (بالرفض) الــذي تعمدت الحصول عليه من الغير • ومع ان الكراهية لــم تعــد تشعر بها ، وكذلك الحقد والضغن، ولكن هذه الغرائز بقيت كامنة تحت وقار من المظهر الجديد والوجه الجديد •

ومضت الايام وانا اطبق الخطة الجديدة ، آملا من ورائها ان يحدث التقدم الحقيقي لا السطحي الزائف •

ولكن للاسف ، لا يسعني الا ان اكتب هنا بأن الجلسة التي عجلت بحدوث ما كاد يتحول الى كارثة ، عقدت بيننا بعد ظهر يــوم الخميس • فلورا كانت آخر مريضة أقابلها في ذلك اليوم ، لأنني كنت مزمعا ان ابرح الى نيويورك حيث أرأس اجتماعا كبيرا في الليل ، وألقي محاضرة فــي صباح الجمعة •

وكنت اتشوق للرحلة ، فهي تمثل لي فرصة ارتاح فيها ، وتحررا من الوتيرة الواحدة ، والروتين الممل • واخال لورا قد شعرت بشوقي الــى الذهاب ، لأنها استهلت الجلسة بنقد لم تحاول اخفاءه لشخصي ومظهري •

قالت : « كأني اراك تختلف اليوم ••• لا ادري • »

قلت : « صحيح ؟ »

قالت : « اجل ، ربما ثيابك وهندامك السبب •• هذه بزة جديدة ؟ »

قلت : « كلا ••• اشتملت بها من قبل • »

« لا اذكر اني رأيتها •• على كل تبدو وسيما فيها • »

« شكرا لك • »

« احب المنظر الانيق • والانسان ايضا متى تهندم يشعر بمزيد من الاهمية والرضا • وأظنه يشعر ان الناس تحكم عليه من خلال مظهره الخارجي •• ومتى كان المظهر جميلا وجذابا، يظن الناس ان ما ينطوي وراءه جميل وجذاب •• وهذا يرتفع بشعورك الى فوق ، الى أعلى ، ألا تجاريني في نظرتي ؟ »

« ماذا ترمين اليه بالضبط ؟ »

فهزت كتفيها دون مبالاة واجابت : « ليس بالامر المهم ، فكرة طرأت وعبرت •! »

وسادنا صمت استغرق دقيقة ، قطعته هي بغتة بقولها :

« أوه ! اعلم لماذا انت مهندم ••• اليوم تذهب الى نيويورك • »

« نعم ، اذهب الى نيويورك • »

« ولن ألقاك يوم السبت • »

« أعود يوم الاثنين • »

« وهل موعد المحاضرة يوم السبت ؟ »

« كلا ، المحاضرة غدا ، الجمعة • »

« وستبقى حتى يوم الاثنين ••• الراحة تفيدك ، انت على حق ••• كل انسان يستحق ان ينسى العمل في وقت ما •• يهرب منه •• يغترف شيئا من اللهو ••• ان استطاع ! »

لم يغب عن بالي ما تعمدت ابرازه بين الكلمات من اتهام لـي ، فهي تندد من طرف خفي بقلة مبالاتي بالمرضى، وخاصة بها هي • وهي تأخذ علي ازماعي ــ كما تعتقد ــ الارتماء في احضان المتعة الجنسية متى رحلت الى نيويورك •

واستأنفت باللهجة الحزينة نفسها التي بدأت بهـا كلامها : « اكره تفويت أي ساعة ، أي جلسة ، خاصة الآن ، لأني اشعر بمسيس الحاجة الى التكلم ، وهناك الكثير من الكلام للتكلم به ! »

« اذن لماذا تهدرين الساعة في حديث جانبي لا طائل تحته ؟ ابدأي فورا ، وهأنذا أصغي • »

« اظنك اخترت وقتا غير مناسب للسفر ! »

« اسمعي يا (لورا) ، اعلمتك قبل اسبوع باعتمادي السفر ، فـلا تتظاهري بأنها مفاجأة •• وفوق ذلك ، لن يفوتك الا جلسة ساعة يـوم السبت • »

« اجل ، اعرف ــ وتنهدت ــ ولكني اشعر كأنك مبارح الى الابد •• ماذا لو مست حاجتي اليك ؟ »

واتتابتني نوبة سعال في تلك اللحظة ، فوثبت واقفة وهي تقول :

« هل آتيك بالماء ؟ »

« كلا ، شكرا لك • »

« سعالك يقلقني •• يجدر بك ان تقلع عن التدخين • انا قطعته كما تعرف ، منذ شهرين • وقلما اسعل الآن •• حاول انت • »

وطفقت ادخن بعد ان اشعلت سيجارة ، وافكر بكلامها ، والى أي اتجاه تتجه في خطتها الجديدة اليوم •• ولم اعتم ان وجدت الجواب •

وقالت بعد قليل : « شق علي الانقطاع عن التدخين في البدء ، ولكني ثابرت رغم الصعوبة ، حتى هان الصعب ... وعلى كل انقطاعي عن التدخين كان له سبب ...

« لتتخلصي من السعال ؟ »

« طبعا لا .. تعرف تماما الاسباب التي حدت بـي الي الانقطاع عن التدخين ، والاقلاع عن امور عديدة غير التدخين . »

« ما هي الاسباب ؟ »
« خليق بك دون الناس اجمع ان تعرف . »
« قولي لـي ... »

« رغبة في التحول الى امرأة أفضل وأكمل .. اريد أن أكـون تلك المرأة المحترمة ، والمحبوبة ! »

« والاقلاع عن امور كهذه يرقى بك ؟ »

وصمتت . لم تجد جوابا . ونظرت اليها خلسة ، فرأيت فيهـا توترا وانفعالا . ونظرت الى ساعتي ولعنت بلاهتي . عشر دقائق وبعدها القطار . لماذا ابتلعت الطعم ؟ لماذا ارخيت لها العنان لتستدرجني الى الشرك ؟ وهل من سبيل الى تفادي العاصفة التي ساعدتها على تجميعها ؟ واستخرت بالهة المعتوهين وسحبت نفسا عميقا ، وقلت :

« واذاً ؟ »

« لا شيء افعله يصدر عن العقل . لا جدوى من المحاولة ، فاني اتنقل دائما الى الأسوأ . »

« ما هذا اللغو ؟ »

« الفوضى التي اشيعها ، البلبلة التي احدثها . احاول التصرف تصرفا

عاقلا جديرا بالانسان الفاضل . وأفشل ••• أفشل فشلا ذريعا • ولا أبرح اسقط ، واغور •• وهذا كثير . لا استطيع تحمله ! »

وانتهت الساعة في تلك الآونة . فنهضت من مكاني مستأذنا •• وفهمت هي فقامت ومشت نحو الباب •

وقلت : « اراك يوم الاثنين • »

وتندت عيناها ، واجابت : « اقض وقتا هنيا • »

وتأوهت وكأن كبدها قد انفطر وانشق !

وفي القطار فكرت مليا •• ورأيت الغلطة البشعة التي ارتكبت • لقد انتقدتها • وهذا قلما افعله في علاجي لامرىء مريض • قلما انتقده مواجهة وصراحة • قلما اثير المريض واحرضه ••• وتساءلت عن السبب الذي ارهف احساسي وهي تتحدث عن التدخين ، وعن وجوب اقلاعي عنه ، لكي اشفى من السعال ••• أترى كنت لاشعوريا قد عوّلت على تبديل الطريقة كلها مع (لورا) ، بادئا بعرض حمقها الذي اتخذت منه مؤخرا حاجزا دفاعيا ؟

واتصلت لورا بي في الليل •• طلبتني في الفندق :

« دكتور لندنر ؟ »

« نعم يا لورا • ما الامر ؟ »

« حاولت منذ ساعات مكالمتك • »

« آسف ، هل حدث ما ارغمك على الاتصال ؟ »

« لا أدري ، شعرت بالرغبة في مكالمتك • »

« بأي خصوص ؟ »

« بخصوص شعوري • »

« كيف تشعرين ؟ »

« بالجزع • »

« من أي امر تجزعين ؟ »

« لا ادري ، انا خائفة • ليس من شيء معين ••• لا احـب البقـاء وحدي ، هذا هو مبعث خوفي على الارجح • »

« ولكنك وحدك في كل ليلة ، أليس كذلك ؟ »

« بلى ، ولكن الامر يختلف الليلة • »

« كيف يختلف ؟ »

« لأنك لست في بلتيمور !••• »

وصمت الخط ، وانتظرت •

قالت : « انت غاضب علي ! »

« لماذا تظنين اني غاضب ؟ »

« تصرفي بعد الظهر اغضبك • ولكني لم أتمالك نفسي • شيء كان يرغمني على هذا المسلك ، على ما قلته •• على ما أظهرته • »

« سنتكلم عن هذا يوم الاثنين • »

وساد الصمت ثانية •• وسمعت ، او خيل الـي انـي سمعت صوت نحيب •

وقالت باكية : « هل تصفح عني ؟ »

فقلت وقد هالني ما وصلت اليه الحالة : « سنجد مخرجا يوم الاثنين •• اما الآن فلوذي بالفراش • »

« سأفعل •• يؤسفني ازعاجي لك • »

« لم تزعجيني البتة • طابت ليلتك يا لورا • »

★ ★ ★

ألقيت محاضرتي يوم الجمعة بعد الظهر ، ورجعت الى غرفتي لأغفو قليلا ، قبل ان ابدأ اجازتي بعشاء في مطعم ، اذهب بعده الـى المسرح • ولكني ما كدت اغتسل واستلقي حتى قرع جرس الهاتف • وكانت زوجتي هي المتكلمة •

قالت بعد ان سألتني عن صحتي : « لورا شقت رسغيها ! »

وقفلت راجعا بسرعة ، وذهبت الى المستشفى ، فخلوت بالطبيب الذي اسعفها •••

وعلمت منه انها لـم تتعمد بتر الشريان ، بل ان انتحارها كان مظهرا وحسب تبغي من ورائه شيئا •

بعد تلك الحادثة بحثنا أنا ولورا في الحافز الذي جعلها تسعى الـى الانتحار ••• وقد توصلت الى معرفة السبب الاساسي ــ هذا ما تبادر الى ذهني ــ فهي استهدفت من وراء ذلك ارغامي على الرجوع ، وبعث شفقتي التي ظنت بأنها سلتها من قلبي بما اقدمت عليه يوم الخميس من تصرف لا يخلو من عداء •• بيد ان المسألة كلها كان لها اساس أعمق بكثير ، أساس تأصل قبل سنين •

فالحافز وراء انتحارها كان ثنائيا • بلا وعي مثل هذا الانتحار بصورة عملية تخلي أبيها ، وفـي نفس الوقت وفر التعبير العظيم عمـا انتابها مـن مشاعر الندم عن اعمال ارتكبتها ، وآثام سقطت فيها من سن الثانية عشرة الى الرابعة والعشرين •

هذا التحول الاعصابي ــ وقد سبق ذكره ــ اقتضى مني بذل الجهود المضنية •• ثم اخذت انتظر النتائج •• اخذت انتظر الساعة التي تتكلم فيها لورا ••• انتظر الساعة التي اعرف فيها الحقيقة •• الاساس •• هذا مـا طلبته الآن •• طلبت الاساس •

قلت ، أخذت انتظر •• وفي ذلك اليوم انتظرت•• ولكن لورا تخلفت ••• ومضى نصف ساعة ، ولما تأت •

وتعجبت ، هي لا تتأخر ابدا عن ميعاد بيننا ••• فماذا دهاها؟ وشعرت بشيء من القلق • ومع توالي الدقائق تراكم قلقي •• واخيرا طلبت من السكرتيرة ان تتصل بشقتها •• ولكن لم يرد على الاتصال أحد •

وانهمكت في ساعات بعد الظهر مع المرضى الآخرين فلم أتذكر لورا الا لماما • ولما حان موعد الاقفال ، ووقفت انا والسكرتيرة ننتظر المصعد ، تناهى الينا صوت الهاتف ، فرجعت (جين) ، ولم تلبث ان وافتني بعد دقيقة • ولما سألتها عن المتصل ، هزت كتفيها وقالت :

« انه خطأ ، رقم خطأ •• لما رددت سمعت صوتا خافتا ، ثم اقفل الخط • »

بعد السادسة بقليل وصلت البيت، وتأهبت لاستقبال الضيوف المنتظر مجيئهم على العشاء • ولكني وانا في الحمام اغتسل سمعت صوت الهاتف ، وسمعت زوجتي ترد على المتكلم • وسألتها لما خرجت عمن يكون •

فقالت : « اعجب شيء •• المتكلم بدا ثملا ، فلم افهم من حديثه كلمة واحدة ! »

وتناولنا العشاء في تلك الليلة مع الضيوف ، ولكني كنت عرضة للقلق •• مكالمتان غامضتان •• ولورا تخلفت •• فهل هناك صلة ما بين المكالمتين وتخلفها ؟

وقرع جرس الهاتف ونحن نحتسي القهوة ، فرفعت المسماع وقلت : « هالو ؟ »

وردا على الكلمة سمعت صوت حشرجة ، لم أسمع صوتا شبيها له ابدا على خطوط الهاتف من قبل •

انه صوت انسان •• انسان يلهث او يختنق •• او انه في الحقيقة صوت انسان اقرب الى صوت حيوان •• مقاطع كلامية مسلسلة لا معنى لها ولا نغمة ••• سلسلة جوفاء ؟

وقلت : « من هذا ؟ »

وساد صمت ، ثم تناهى الى سمعي المقطع الاطول لاسمها ، فصحت في المسماع : « لورا أين انت ؟ »

والصمت مرة ثالثة ، تبعه نفس يستنشقه صاحبه بصعوبة ، وكأن في حلق صاحبه انبوبا خاويا :

« في البيت »

« هل أصابك مكروه ؟ »

وجاء الصوت بسهولة هذه المرة :

« الاكل ! »

« منذ متى ؟ »

« لا ادري ! »

« كيف تشعرين ؟ »

« بالويل ، بالضياع •• نفد الطعام •• انا جائعة ! »

ووقع عقلي في سباق مع الوقت : ماذا افعل ؟ ماذا تبقى كي أفعله ؟

وصرخت في اعوال : « انقذني ••• »

وسقط المسماع من يدها ، سمعته يسقط !

★ ★ ★

سارعت الى الضيوف فاعتذرت اليهم ، وتوجهت بالسيارة الى مسكن لورا •• فلما بلغت الباب تريثت وانصت •• ثم هتفت وانا اطرق :

« لورا ••• افتحي الباب ، افتحي الباب ••• »

وفتحت الباب فانسللت داخلا وانا اوجس خيفة ، وارتعد لما توقعت ان يقع طرفي عليه •

كان المكان غارقا فـي الظلام •• فأخـذت اتحسس الحـائط حتى اصطدمت اصبعي بالمفتاح الكهربائي ، فأدرته • وغثت نفسي ••• أصابها لغوب شديد •• ففي كل مكان انتثرت بقايا الطعام ••• عظام ، كسرات ، قطع لحم ، قطع حلواء •• غثت نفسي ، نعم ، كدت اتقيأ امعائي ••• انـا الطبيب •••

وتبعت لورا الى الغرفة التي لاذت بها ، فرأيت فراشا تبعثرت عليه الاطعمة ايضا ، وفي الزاوية ابصرت لورا !

وقلت : « انهضي •• قفي •• »

فهزت رأسها بعنف ••• فانحنيت ورفعتها من ذراعيها واوقفتها على قدميها ••• فامتثلت ، وقفت •• ولكن يديها غطتا وجهها •• وبرفق ، رفعت الاصابع ••• وحملقت وانا اتراجع القهقرة •••

الذي رأيت لن يبارح مخيلتي ••• لن يغادر ذاكرتي !

رأيت ••• ماذا رأيت ؟ يا للهول !

وجه كقناع رسم عليه مجنون كل فواحش الجسد ! كـل مبتذلات الجسد ••• الرذيلة ، والشهوة ، والفسق ••• والجشع •• يـا للهول ، والجوع •••

وأغمضت عيني حتى لا أرى هذه النقمة ، هذه اللعنة • ولما تشجعت وفتحتهما ، شاهدت الدموع المدرارة تنبجس مـن الثقبين اللذين همـا العينان !

وكانت لورا تشتمل بعباءة الليل ، وكـانت العباءة متهدلة عليها •• كانت بيضاء ، ولكن ألوان الطعام لوثتها كلها ••• وفي موقـع البطـن انتفخت العباءة كأن صاحبتها حامل في شهرها الثامن !

لم اصدق ما وقع عليه نظري • ومددت يدي فلمست مكان الانتفاخ • ثم رفعت طرفا متسائلا الى وجهها المشوه الذي كان وجه انسان !

وانفتحت شفتاها واطبقتا لتكونا كلمة « طفل ! »

وكررت انا مشدوها : « طفل ؟ طفل من ؟ »

« طفل لورا ••• انظر ! »

وانحنت كما ينحني الثمل وامسكت بعباءتها مـن طرفها ، ثم رفعتها واستمرت ترفعها ، حتى علت يداها رأسها •••

وشخصت الى الجسد العاري •• ورأيت ، ويا لهول ما رأيت ! رأيت وسادة مربوطة بجسدها ، بل لاصقة به بمواد اللصاق !

وارتخت يدا لورا فتهدل الرداء •• ثم رفعت يديها ثانية الى وجهها ، واهتز جسدها اهتزازا عنيفا تبعه نشيج مرعب ، وزفير لم اسمع مثله مـن انسان •

ولما خفت النوبة ، ارخت يديها ونظرت الـي وهي تقـول : « اريد طفلا » •

وسقطت على الفراش واستغرقت في النوم ! »

غطيت جسد لورا بدثار ، وانتقلت الـى الحجرة الثانية حيث كـان الهاتف ، فاتصلت بممرضة أعرفها ورجوتها ان تأتي •

ولما اتت بعد قليل ، اطلعتها بايجاز على القصة ، وافهمتها ان عليها في البدء ان تنظف الحجرة وتنقيها وتطهرها • ثم عليها ان تستدعي الطبيب

المقيم في البناية ليعنى بلورا ! وبعد يومين تأتيني بها الى عيادتي .

بعد يومين ، كانت الممرضة في الغرفة الخارجية ، وكنت أنا ولورا في الغرفة الداخلية منهمكين في وضع آخر حجرين في أحجية عصابها .. وكالعادة ، لم تعرف الا امورا سطحية مما جرى اثناء نوبتها الاخيرة ، وقد ساعدتها لانعش ذاكرتها .. اما عن حبلها الوهمي هذا فلم تستطع ان تذكر شيئا !

لقد اتضح ان لورا كانت تواقة الى طفل .. وان الشعور بالفراغ سببه هذه الرغبة .. وان تشنجها المجنون وجوعها المسعور ، هما الرغبة اللا واعية في خدع النفس بوجود الجنين ، وبالتالي باقناع الذات بأن الرغبة قد تحققت ..

اما الشيء الذي لم افهمه فورا فهو لماذا عمدت لورا ــ والرغبة في الطفل امر نسائي طبيعي ــ الى هذه الاساليب المقبوحة المشوهة ؟ لماذا لجأت الى طرق رهيبة لا يسفر عنها الا الدمار ؟

وعرفت السر ... فبعد اسبوع كنت مع لورا نراجع الحادث ، علنا تتذكر امرا غاب عن بالنا . وذكرت لها صدفة الملاءة التي ارتدتها لتظهرها بمظهر المرأة الحبلى ، وطلبت اليها ان تحدثني عنها .. وفكرت لورا مليا ، واخيرا تذكرت ، قالت :

« لقد صممتها في وقت سابق ، عندما كان جنون الاكل على أشده ! »

فقلت : « وهذه أول مرة تضعين شيئا كهذا ؟ »

قالت : « لست متأكدة .. لعلي صنعت غيرها ومزقتها قبل ان انصلت من الضبابة.. ولقد وجدت شيئا مثلها بعد نوبة اصابتني قبل سنتين، ولكني لم أعرف ، بل لم اشأ ان اكتشف ما هي ولم هي .. وهكذا فاني مزقتها وأنسيت أمرها ! »

وقلت مداعبا : « القي نظرة طويلة على كل مكان في شقتك ، فلعل هناك واحدة اخرى مخبأة ! »

فأجابتني بمزاج هادىء ، وبمرح :

« اشك في ذلك •• وأظن انه ينبغي لي ان آتي بمايك كل ••• »

واندفعت يدها الى فمها تخرسه ، واستتلت :

« يا ألله ! هل سمعت ما نطقت به ؟ »

★ ★ ★

مايك كان اسم ابيها ••• وهي ولا غرو ارادت الطفل منه •

ولورا لهذا الطلب المستحيل ، لهذه الامنية الخيالية تضورت جوعا !

والآن ، لم يعد ينتابها أي جوع !

لقد مضى ذلك السعار الى غير رجعة !

الاندفاع نحو التفوق

ألفرد أدلر
ALFRED ADLER

مشكلة عصاب كان الحزن فيها
حافزا للشعور بالتفوق

ألفرد أدلر

توفي الفرد ادلر في سنة ١٩٣٧ . كان من مؤسسي جمعية التحليل النفساني في فيينــا ، وقد اختاروه رئيسا لها . عمل مــع فرويد بين سنــة ١٩٠٢ و ١٩١١ ، ولكنه كون آراء وافكارا تختلف الى حد بعيد مــع آراء وافكار فرويد ورهطه في جمعية فيينا . ولما اتسع الخلاف عرض اراءه ونظرياته على الجمعية ، وكنتيجة لما واجهه من نقد وتجريح استقال منها وانشأ مدرسته الخاصة تحت اسم (سيكولوجية ألفرد) .

واشتهر اسم ادلر وذاع صيته ، ليس في حقل التحليل النفسي فحسب ، بــل ايضا في حقول العلم والجريمة والدواء ، وكذلــك ساهــم الــى حــد كبير فــي تطوير التحليــل النفسي الاميركي .

راى ادلر نتائج الشعور بالنقص ، أيقن ان نتائجه الصراع لبلوغ مرتبة متفوقة . واهتدى بعد لأي الى النظرية الصحيحة القائلة بأن احلال الاهتمام المجتمعي محل الصراع لبلــوغ مرتبة التفوق ، هو العوض الوحيد عن ذلك الشعور المرير بالنقص !

الاندفاع نحو التفوق

قضية عجيبة من قضايا الكآبة عالجتها مرة ، توضح بجلاء كيف يلجأ الانسان الى الحزن لاذكاء نار الشعور بالتفوق • تلك كانت قضية رجل في العقد الخامس ، قال انه صحيح الجسم قوي البنية ، الا متى كان في وضعية مريحة جدا •

ففي الحفلة الموسيقية مثلا ، او في المسرح ، مع اسرته ، تنتابه نوبة الكآبة ، فينوء بها كاهله •• وكأنها تهبط عليه فتغرقه بغيمة من غبارها القاتم • وفي كل مرة تداهمه الكآبة يتذكر صديقا حميما له توفي وهو يناهز الخامسة والعشرين • وكان الصديق هذا منافسه ومزاحمه ، ليس في العمل فحسب ، بل ايضا في الزواج •• وكان مزاحما غير موفق ، فهو عندما اصيب بالمرض الذي قضى عليه ، كان مريضي هذا قد تفوق عليه ، في العمل ، وغلبه في قلب المرأة فاختارته •

كان النجاح من نصيبه قبل موت صديقه وبعد موته • كان الاثير عند ابويه يفضلانه على اخوته واخواته •• وكان يعيش في رخاء وبلهنية • اما زوجه ، فكانت ذات طموح ، لم تعجز عن حل أي معضلة من معضلات الحياة •• ونشب الصراع بين الاثنين بطبيعة الحال ــ صراع دائم مستمر ، وحاد متأجج • وكانت الزوجة احيانا تهيمن ببراعة، ليس بالخصام والتلاحي، او بالسيطرة والتسلط ، بل بالتهيج العصبي والتوتر في ظروف لا تمالئها ، فتغلبه بحالتها المؤلمة •

لم تعبر قط عن غيرتها المفرطة ، ولكنها كانت تفله وتشل حركته بنوبات القلق • فالرجل الفالح في كـل مضمار الا في مضمار هذه العلاقة ، شعر بالتردد ، وبالوجل •• انه لـم يحقق أمله من التفوق ، وطموحه اللامتناهي كان يتطلب التعويض !

أعرف ان العديد من علماء النفس وأطبائها قد يجنحون الى التنقيب عن (عقدة الذنب) لتفسير هذه الكآبة • قد يتحرون عن طفولة المريض يعثروا على حافز باكر ، او على رغبة باكرة لقتل احد ــ ربما الاب • هذا لمريض كان المختار لدى ابيه ، ولم يكن هناك سبب يجعله يتمنى موته ، لانه ان ينال منه ما يبتغي دون مشقة •

فالتنقيب الخاطىء هذا عن (عقدة الذنب) يقود عالم النفس الى الظن أن المريض تمنى في السر ان يقتل صديقه ومزاحمه ، وانه بعـد انتصاره عليه ، وتحقق رغبته في موته ــ وان القدر اماته ــ لـم يشعـر بالرضـا والقناعة • فان كان الامر كذلك ، فقد تتطور عقدة الذنب فيه بما يبذله المريض من جهد ليرى نفسه في رؤية متوهجة •• فقد يود لو عبـر عـن مشاعره الطيبة تجاه مزاحمه الراحل بأعظم قسط من الاخلاص والوفاء ، وفي الوقت نفسه ، قد تهز مشاعره وعواطفه ذكرى مزاحمه ونهاية مزاحمه ، وما أضمره له قبل ان يتخرمه الموت •

وهذا تتوفر فيه ولا غرو ظروف اتهام الذات ، والتندم ، مما يعرف عندنا بعقدة الذنب ، الا وهي الكفاح للتفوق في الناحية العقيمة من الحياة ، وهو كما ذكرت يعني :

« انـي بلغـت ذروة الخطـأ • » ، او

« فضيلتي سامقة لا تقتلها وصمة باهتة • »

ومهما يكن الامر ، فاني لم أجد في هذه القضية اي دلالة على هذا

الذي ذهبت اليه ، وتقدير الرجل للنزاهة كفضيلة لم يكن مغالى فيه ، ولم يكن فائقا في تطوره • فكآبته كانت محاولة ليظهر بمظهر المتفوق امـــام زوجه• فالكآبة في ظروف مؤاتية ، في أوضاع لا يكون فيها للكآبة ضرورة في مسرح ، في مغنى ، في قاعة موسيقاء، يسترعي الانتباه الى حظه الحسن في الحياة ، اكثر كثيرا مما يسترعيه تمتعه بما قسم له من هناء وبلهنية •

كل من عرفه تعجب لما انتابه من كآبة ، وهو سأل نفسه علـــى نحـــو متواصل :

« ايها الكائن السعيد ، لماذا الاكتئاب وانت تحوز كـــل مـــا تتـــوق اليه ؟ »

اما الزوج العاصية الصعبة القياد فهي الاسى الاوحد في حياته الرفهة، وهو عوض عن هذا بذكرياته (انتصاره) في أصعب وجه من أوجه تاريخه ـ عندما تقدم صاحبه وفاز بالمرأة • ولكن الوفاء منعه من التهليل ، فصديقه متوفى ••• بيد انه يستطيع ان (يتغذى) علـــى ذكرى انتصاره بالركون للكآبة في المسرح ••وكلما زاد انقباضه في المناسبات المشرقة الزاهية ، زادت مقدرته على التفكير بانتصاره الماضي ، وتصعيد وعيه لحالته •

واثبت البحث المستفيض العميق صحة استنتاجاتي • صديقه قتلـــه الشلل الذي دهمه بعد السفلس ، وهو المرض الزهري الوبيل الذي اصيبا به في وقت متزامن • بيد ان مريضي شفي منه ، وهو الآن وقد أحاطت بـــه زوجه ، واحاط به اولاده الستة ، لا يملك الا ان يستعيد الـــى الذاكرة مع ذكريات انتصاره على صديقه ، ذكريات قهره للمرض •

هذا كان عزاءه وسلوانه • في زواجه لم يشعر الرجل بالتفوق ، الا ان زوجه على الاقل كانت المرأة التي اشتهاها صديقه ، وهي اصطفته هو دون صديقه • والتأمل فـــي كارثة صديقـــه بمزاج منقبض صعّد مـــن شعوره

بالانتصار •• والسلوان هذا هو من الناحية الهبائية الهوائية ولن يفضي في النهاية الا الى المرض •

رجل فــي السادســة والثلاثين أتاني يستشيرني بعُنتّه ، أي بعجزه الجنسي ، بعد ان جرب اكثر من علاج • كان رجلا عصاميا ، ويحتل منصبا رفيعا • وكان قوي البنية متين التركيب ، ولكن علمه قليل • وقد تعلق قلبه بفتاة مثقفة •

كان الوسط بين اختين ، مات ابواه وسنه لا تتعدى الخامسة • تذكر ان اسرته كانت مدقعة، وانه رغم ادقاعها كان الطفل المدلل ، لجماله وهدوئه، وكان الجيران يغدقون عليه الهدايا •• ولكنه استغل كرمهم ، فجعل يتصرف كمتسول •

من ذكرياته الباكرة تجواله في الشوارع ليلة عيد الميلاد ، وتوقفه على واجهات المحال التجارية المزدانة ، وتأمله الطويل في شجرة العيد المصنوعة (لغيره) •

في الميتم الذي نقل اليه عقب وفاة ابويه ، عومل معاملة صارمة ، بيد ان قابليته وانسجامه السريع ، وطبيعته التي اكتسبها كولد ثان ، كــل هذا مكنه من استباق الغير •

واستسلامه ، او (ذله) جعله ينجح في أي مضمار يختاره • وسرعان ما اضحى الخادم الاهم في المعهد •

في عمله هذا كان لزاما عليه احيانا ان ينتظر مدة طويلة في محطة سكة حديد قديمة مهجورة ، وفي تلك الاثناء لم يكن يقطع حبل السكون الطويل الا طنين اسلاك البرق ، فيخفف عنه هذا شيئا من الشعور بالعزلة والوحشة• واحتفظ بهذه الذكرى ، لم ينس تلك التجربة • ولن ينساها مهما مد الله في أجله •

وكثر ما ، بعد سنين ، اشتكى من طنين في اذنيه ، لم يعرف له اطباء الاذن سببا • وأثبت هذا التحامه مع نمط حياته • فعندما يشعر بالعزلة ، وهذا كان يتكرر ، تعوده ذكرى الاسلاك الطنانة بحيوية الهلوسة الشديدة• وبعد ان شرحت له هذا ، شعر بشيء من الاطمئنان، وشجعه الشعور بالراحة على الزواج بحبيبته •• وقد تزوج ، وبارحه الطنين •

من الطبيعي ان يخفي نزيل الملجأ الحقيقة ، من الطبيعي ان ينكر بأنه نشأ في ميتم ، لأنه يعتبر الامر مذلة ومهانة •• وهذا الرجل برر محاولته لابقاء الامر سرا بأن الايتام في غالبيتهم لا يفلحون في مضمار الحياة • انه اعتبر الفشل في الحياة هو مصير اليتيم الذي لا يرحم ؛ وهذا أعطاه دفعا قويا في مجال العمل ، واتاح لـه دفقـا متواصلا مـن عناصر النجاح •• وللسبب نفسه توقف مترددا ومحجما امام مسألة الحب والزواج ، وكانت عنته العصابية السبب المباشر لهذا التردد العميق •

نمط هذا الرجل في الحياة ، كما رأينا ، ان يكون متسولا • ففـي مجال العمل (كما سبق في الميتم) ، عبّد التسول له طريق الهيمنة • فـي العمل لم يبهجه شيء اكثر مما ابهجه موقف التسول متى وقفه من هم أدنى منه مرتبة ، او من يرئسهم هو • ظل متسولا الى ان غدا غالبا : وقد لعب الدور الثـاني بحماسة لعبـه للدور الاول • ولا موجب لاقحـام فكـرة الخصائص (التكافؤية) ، كما قد يفعل بعض النفسانيين دون ابطاء •

فالعملية كلها ، العملية الذهنية هذه ـــ الناشطة من تحت الى فوق ، والمعبرة عن شعور النقص ، ولكن المعوضة عن الاغراق في فكرة التفوق ـــ لا تعتبر عملية تكافؤية ، بل اتحادا ديناميكيا • واننا متى عجزنا عن فهمها ككل فقد نراها وجودين متناقضين متنازعين • في عمله أظهر الرجل (عقدة

التفوق) ، ولكن لو قدر له ان يفقد منصبه ليبدأ من جديد ، فسيعود حتما الى موضع الشعور بالنقص ، ليجمع رأس المال منه •

وفي قضية حبه ، أو في مشكلة قلبه ، كـان حتى الآن فـي منطقة التحرك المذعن الخاضع ، يستجدي الحب ، ولكن يسعى الى بلوغ مرتبة التسلط • حبيبته احبته ورغبت في الزواج به ، ولهذا فانها لبت نداء تردده بنزوعها الى مزيد من المواقف الاستجدائية تجاهه ! وكان مغذا السير في الواقع الى المنزلة التي يبسط منها سيطرته •• وفـي الواقع مارس هـذه السيطرة في بضعة شؤون •

ولم يكن بعد قد تغلب على موقف التردد ، ولكن بعد ان شرح لـه اتجاهه في الحياة ، وصادف الكثير من التشجيع ، تحسنت حاله ، واختفت عنّته • ثم تكونت فيه مقاومة اخرى ، هي ان كل امرأة فتنة ، وكانت هذه الرغبات المتعددة في النساء المتعددات مهربا من الزواج • في تلك الاثناء حلم انه كان مضطجعا على اريكة في حجرتي ، فاهتاج جنسيـا ، وأصابه تلوث •

لا يوجد في عيادتي اريكة • والمرضى يجلسون ، ويقفون، ويتحركون كما يشاءون • ولكن الاريكة في الحلم كانت في غرفة طبيب سبق ان عالجه فترة من الزمن ، ربما مدة شهرين • وهذا الحلم انتزع منه اعترافا لم يسبق له ان أدلى به • فهو اعتقد ان الطبيب ذاك وانا ننتمي الـى جمعية سرية ، هدفها شفاء المرضى امثاله بتوفير الاتصال الجنسي لهم • ولهذا السبب كان يحاول معرفة المرأة التي قد نختارها له • وعدم وجود اريكة عنـدي كـان بمثابة الاتهام ضدي • لم أكن الطبيب الملائم • هو أتى متوسلا ، متوقعا ان أثمّد صعابه ، وازيل اوصابه، واتحمل المسؤولية عنه، واساعده على التهرب من الزواج •

كان يريد ان اتمادى الى حد توفير النساء له ــ ولكــن دون ذكــر الزواج ــ واقع تضافر على تجسيده عوامل كثيرة ، منهــا عنتــه وميوله للتعددية ، وذعره • والا فهو يشبــع غريزته الجنسيــة بالتلــوث ، كمــا يشبعها غيره بالاستمناء او الانحراف •

وتزوج ، ولكن كان من الصعب منعه من تكوين (مواقف) طاغية مع زوجته المسالمة المسترضية •

★ ★ ★

حالة اخرى من حالات (التسول) جيء بها اليّ •• رجــل ينــاهز الخمسين ، اصغر عضو في اسرة فقيرة متربة • وكانت امه والجيران ، قد دللوه وتساهلوا معه لضعف ظهر عليه، فتكوّن لديه طبع مذعن، مستسلم ، شديد الخضوع • وكان دائما يعتمد على أمه ، ويستجير بأشخاص ضعاف ، فسيتدر حدبهم وشفقتهم ، خاصة في اوقات الشدة ، عندما تفاقمت كآبته، فاستخرط في بكاء مرير ، لا يقطعه الا ورود العون !

رأينا آنفا فائدة البكاء لدى الصغار والكبار ، عندما يذرفون الدمع ! ذكريات هذا الرجل تفيد انه سقط وآذى نفسه • وتخلد الحادثة في ذاكرته دون العديد من الحوادث ، يفسر ما رغب فيه وعيا ولا وعيا من اشراك ذاته باخطار الحياة • كان اسلوبه في الحياة الاندماج في دور المتسول ، ليجتذب التأييد والعون ، وليضمن الحنان والشفقة بما يعرضه من وهن وضعف •• وكل حادثة تالية استغلها لذرف الدموع •

كطفل كان بطيئا في التعلم والتكلم ، وامه ــ كما يحصل في حالات كهذه عادة ــ اعارته من عنايته النصيب الاوفى •• وبذلت جهدها لتعرف ما يسيل اليه وما يطلبه • بهذه الطريقة شعر بأنه ملك صغير ••

وكما قال (ليسنغ) : «المتسول الحقيقي هو الملك الحقيقي الوحيد» •

وغدا صاحبنا هذا سيد فن الاستجداء ، معبرا عن نقصه من خلال حدب الغير عليه •

« كيف اجعل الفتى البائس المخذول ملكا ؟ »

كانت معضلة حياته •• قضية حياته الاولى •• قضية الحيـاة كمـا رآها ، وقد اجاب عليها بتطوير اسلوبه الرفيع في التسول •

ولن يبدل من اسلوبه ابدا • هذه طريقته في العيش ، وهـو معلـم واستاذ، لن يبدل الا اذا كان الثمن مرتفعا، أي عندما يفهم ويقتنع ان اسلوبه الطفولي لا يسد فراغ المشكلات التي تطرأ على الانسان في اثناء ترعرعه• والا فالتبدل محال ، لأنه يعزو كل نجاح اصابه الى فن التسول ، وكل فشل الى عيب يتخلل هذا الفن •

ومثل هذا الهدف لا يتأتى بعوامل وراثية ، ولا يتواجد من حوافز وحوافز بيئية ، لان نظرة الصغير للمستقبل هي العنصر الاساسي المهيمن ، ونظرة هذا الصبي بالذات وفطرته بعد ان شب عن الطوق هي فكرته بأن التفوق لا ينال وطره منـه الا بارتكاب الخطأ ، او باحداث الفوضى ، او التورط في شيء وبذلك كانت مشاعره جملة موجهة نحو الهدف لبلوغ شيء دون تضحية مهما كانت نزرة •

بعد ايام من العلاج لان الرجل وتأثر مما قلته له ، وما عتم ان ارسل لي كراسة كتبها قبل بضع سنين ، عنوانها : « جمعية شحاذين » •

ان الانتقاد الموجه ، والغيظ ، والحسد ، هي ادلة دامغة على الكفاح العقيم لبلوغ درجة متفوقة • انها الحوافز نحو كبت الغير وضغطهم ، في الواقع او الخيال ، لكي يصبح الانسان فوق الجميع • والانتقاد البناء هو دائما على علاقة عميقة الجذور مع الشعور الاجتماعي ، انمـا حيثما كـان

الحافز رفع النفس والقدر بالحط من مكانة الغير ، فهذا يكون ميلا عصابيا ولا غرو •

فالعصابيون في غالب الاحيان يستغلون الصدف للحط من قيمة الغير، ومن الاهمية بمكان عند مراجعة نقد عصابي عدم الاغضاء عن عنصر الصدق في الملاحظة او الملاحظات النقدية •

والغضب عادة هو العلامة على ان الغاضب يشعر بالغضاضة ــ موقتا على الاقل ــ والعصابي يلجأ اليه ويستعمله كسلاح يخضـع بـه او يرعب اولئك المسؤولين عنهم •

ومع ان الغضب العرضي او السببي هـو موقف مفهوم فـي بعض الحالات الدقيقة ، ولكنه قد اصبح عادة متكررة فهو يكون مؤشرا للقلق، ونفاد الصبر ، او الشعور بالعجز أو القهر •

ومرضى هذه العادة هم في الغالب دهاة في اختيار النقاط الواهية في الغير لمهاجمتها ، وهم ايضا مخططون عظام عندما يعدون مثل هذه الاوضاع، فيجعلون الغير يهفو هفوة صغيرة قبل ان يشنوا الحرب •

والحسد بالمفهوم العالمي تعبير عن النقص ، مـع انـه احيانـا يكون المحرض على عمل مفيد • والحسد في العصاب لا يصل الى حد المحاكاة أو المنافسة ، فهو يقف كالترام قبل انتهاء الرحلة ، تاركا المريض في حالة تبلبل وتوغر واكتئاب •

★ ★ ★

في تمثيلية احدى قاعات الموسيقاء يأتي (الرجل القوي) فيرفع ثقـلا عظيما باهتمام وصعوبة بالغين، ثم ، واثناء الهتاف الشديد والتصفيق، يأتي فتى صغير فيفضح السر ويوقع بالزائف ، وذلك بحمله للثقل الموهوم •• حمله بيسر بيد واحدة ! كثير من العصابيين يخدعوننا بأثقال زائفة كهذه ،

وقد مهروا بفن الظهور بمظهر المحمل بالاثقال • وهم يستطيعون في الحقيقة الرقص بالعبء الذي يترنحون تحته كأطلس الذي حمل السماء على كتفيه• ومع ذلك فلا سبيل الى الانكار بأن العصابي يشعر بالعبء ثقيلا جدا • فهو قد يصرف الساعات والايام تعبا منهكا •• وهو احيانا يتصبب عرقه ، واعراضه احيانا توحي بأنه مصاب بالدرن •

كل حركة يأتيها تتعبه، وقلبه في ظروف متقاربة يجب وجيب المرض•• والكآبة لا تكاد تفارقه ، فيطلب ويتطلب ، يطلب حدب الغير ، ويتطلب شعور الغير •• ومهما وجد في الغير ولقي من الغير فلا يكفي ، لانه يعتبره غير كاف ولا واف •

جاءتني حالة من (رُهاب الخلاء) ، رجل في الثالثة والخمسين من عمره اكتشف انه لا يستطيع أن يتنفس جيدا متى كان في رفقة أحد • كان يقيم مع شقيقة له ، وله ابن صفاته متشابهة الى حد كبير •

عندما بحثت في حالة هذا الرجل، في سبب تركيز اهتمامه غير الطبيعي في نفسه ، اكتشفت انه مُني باليتم وهو في العاشرة ، وكان له اخوان يفوقانه سنا • وقد أصيب بالنوبة اول مرة على أثر مشادة وقتال جرى بين الاخوين • وهذا يبين سبب الميل الى مواجهة وضعية صعبة بالانهيار • الرجل كان اصغر الاسرة المكونة من ثمانية اعضاء ، وجده أشرف على تعليمه • ومعروف ان الجد يدلل الحفيد ويفسده بحنانه الشديد • كان الابوان يعيشان حياة ترفل بأثواب السعادة ، تميز فيها الاب عن الام وتفوق ، ولذا تعلق قلب الفتى بأبيه •

العلاقة الودودة تبدأ اول ما تبدأ بين الطفل والام ، واذا مالت اكثر الى ناحية الاب ، فلنا أن نفترض بأن الام لا تعيره اهتماما كافيا : فهي على الارجح ليست لطيفة ولا مؤنسة ، وبالتالي هي منصرفة عنه ربما ، الى طفل

أصغر سنا • في هكذا حالة يتحول الصغير الى أبيه •• أما في حالة صاحبنا فقد كانت مقاومته لأمه بينة واضحة •

يعجز الناس عادة عن تذكر ظروفهم الاولى ، الباكرة ، بيد ان الخبرة تمكننا من بناء العلاقة في مخيلتنا ، اعتمادا على بعض المؤشرات ـ بعض المعلومات ـ رجل قال انه يتذكر فقط ثلاثة حوادث مـن طفولته الباكرة ؛ وان هذه الذكرى محفورة حفرا في ذاكرته • اولاها حصلت وعمره ثلاث سنوات ، حين توفي اخوه • وكان مع جده في يوم الدفن ، عندما آبت امه من المقبرة وهي تنتحب وتذرف الدمع ، وعندما قبلها جده مؤاسيا معزيا ؛ وهو يهمس بكلمات لطيفة مصبّرة •• ورأى الفتى ان أمه ابتسمت ابتسامة باهتة ، فآلمه هذا واقلقه ، ولمدة طويلة بعد تلك الساعة احتقر ابتسامة امـه في يوم موت ابنها •

والذكرى الثانية العالقة في مخيلته كانت التأنيب الذي وجهه اليه عمه، حين قال له :

« لماذا انت شرس مع امك ؟ »

والذكرى الثالثة تتعلق بشجار نشب بين أبويه ، وبعده تحول هو الى أبيه قائلا :

« كنت شجاعا يا ابي ، كجندي ! »

وقد اتكل كثيرا على أبيه ، وقوبل اعتماده هذا بكثير مـن التدليل المعبر عن الموافقة والتأييد •• دائما هو معجب بأبيه ، معجب به اكثر مـن اعجابه بأمه ، مع تأكده مـن ان طبع امه اسمى من طبع أبيه •

جميع هذه الذكريات المستمدة مـن الطفولة الباكرة اظهرت الموقف العدائي تجاه الام • اول وثالث هذه الذكريات تحكم بهمـا بوضوح هدفه الرامي الى انتقاص الام وتبرير تحوله الى الاب • وسبب تحوله من الام الى

الاب سهل معرفته : كان المدلل الاثير لديها ، فما كانت نفسه تتحمل الدخيل الجديد ، الطفل الوافد الذي لم يحسب له حسابا •• هذا الاخ البريء نفسه الذي تصور في ذكرياته الاولى •

وتزوج المريض وهو على عتبة السنة الرابعة بعد العشرين ، وخيب الزواج ظنه وامله ، بسبب متطلبات الزوجة • فالزواج بين مدللين لا يكتب له النجاح . ولا يصادف السعادة المتوخاة ، لان الاثنين يتمسكان بموقف (الآخذ) الاول ولا يبادران الى العطاء • وهـذا الرجل خضـع لتجارب واختبارات وعمل اعمالا شتى ، وكان الاخفاق حليفه في كل مسعى • ولم تشعر زوجه معه ، وجهرت مرارا بأنها تفضل ان تكون خليلة رجل ثري على ان تكون زوجة رجل فقير • وانتهى الاتحاد بالطلاق • لم يكن الرجل فقيرا بالمعنى الصحيح ، الا انه كان مقترا على امرأته ، وهي لذلك طلقته على سبيل الانتقام •

وغدا بعد الطلاق عدوا كارهـا للنسـاء ، واكتسب ميـولا جنسية شذوذية • لم يمارس علاقات جنسية فعلية مع الرجال ، ولكن شعر بالرغبة في معانقتهم • وهذا الاتجاه اللواطي كان كالعادة نوعا من الجبن • فمرتين مني بالهزيمة على يد المرأة ، الاولى كانت امه ، والثانية زوجته ــ وهو الآن يهم بتحويل جنسانيته نحو الرجال تجنبا للنساء ، وتفاديا لأي مذلة جديدة تقع له على ايديهن •

وتعزيزا منه لخطوته هذه ، يستطيع الرجل بكل يسر تحريف وتشويه الماضي بتضخيم تجارب معينة خضع لها ، ليتخذ منها أدلة على تأصل الميول اللواطية في أعماقه • وهكذا فقد تذكر هذا المريض انه عشق معلم مدرسة، وانه في حداثته أغراه رفيق له بتبادل الاستمناء •• هذا لذاك وذاك لهذا !

والعنصر الفاصل في تصرفات وسلوك هذا الرجل كان تعرضه للتدليل

وهو طفل ، مما جعله ينتظر الكثير ، ولا يعطي النزر اليسير •• و (رهاب الخلاء) الذي مني بـه تسبب عن خوفه من مقابلة النساء من ناحية ، ومن الناحية الاخرى الخطر من مقابلة الرجال وما يتوجس خيفة من اظهار ميوله الشهوانية تجاههم •

ومن جراء هذا الفزع الدائم ـ الفزع من مغادرة المنزل ـ نشأ عنده ألم في المعدة ، وصعوبة في التنفس •• فالكثير من الناس يبتلعون الهواء عندما تتوتر حالتهم ، مما ينشأ عنه امتلاء البطن بالغازات ، وألـم المعدة ، والخفقان السريع ، والصعوبة في استنشاق الهواء • وعندما كشفت لـه بوضوح عـن هذه الحالة وأكـدت انهـا مطابقة لحالته ، طـرح السؤال التقليدي :

« ماذا افعل لاتفادى ابتلاع الهواء ؟ »

وقد اجيب على هذا السؤال بقولي :

« أبين لك كيف تمتطي جوادا ، ولكن لا أستطيع ان أبـين كيف لا تمتطي جوادا ! »

أو قد أجيب بقولي :

« اذا أردت ان تخرج لتشعر بالتناقض ابتلع الهواء بسرعة » •

وهذا الرجل أسوة بسواه من المرضى ابتلع الهواء ، حتى اثناء نومه ، ولكنه بعد نصيحتي بدأ يتحكم بنفسه ، ويقلل من العادة • فابتلاع الهواء في الليل والتقيؤ لـدى الاستيقاظ يصيب المرضى المتألمين مـن امعائهم ومعدهم عقب اضطراب من تفكير بمعضلة يواجهونها بعد يوم •

وهذا المريض بدأ يتعافى ويسترد صحته عندما فهم انه كطفل مدلل توقع ان يأخذ ويستمر في الاخذ ، وان يبخل في العطاء ويستمر في عدم

العطاء • وادرك الآن انه انقطع عن حياته الجنسية ــ يوم انقطع ــ رغبة منه في العثور على البديل الأهون ، ثم تبنى لواطا وهميا لا وجود له ، كان يستنكف عنه متى اقترب فعلا من الممارسة •

وآخر عقبة وجب ازالتها خوفه مـن الاختلاط بالغرباء الذين لـم يكترثوا به ، مثال ذلك السابلة ، اي المارة في الشارع •• فهذا الخوف نشأ عـن الحافز الاعمق (لرهاب الخلاء) ، الا وهـو استثنـاء جميـع الحالات التي لا يكون فيها المرء محور اهتمام !

المراهقة الغاضبة

كارل روجرز
CARL ROGERZ

قضيـة تنشىء فيهـا المريضة ممـرا
نافذا لبصيرتها الـى اسبـاب بليتهـا

كارل روجرز

احد اقطاب علم النفس وطب النفس في اميركا . اشتهر باسلوب خاص بـه من اساليب العلاج ، كان قد ابتكره وطوره مستمدا من اعمال (اوتو رانك) مادة لا تنضب مـن المعلومـات المعينة .

ويعتقد ، بل يؤمن ايمانا راسخا ان المداوي يجب ان لا يكون بالنسبة للعميل (قلما يشـير اليه كمريض) عالما يحقق في موضوع ، او طبيبا يحاول ان يشفـي ، بـل مجرد شخص عـابىء بمشاعر شخص آخر . كما انه يعتقد اعتقادا راسخا ان التفهم يأتي مـن داخل الشخص نفسه الذي يعتبره عميلا .

هذه قضية لم يضطلع بها ، انما اشرف بنفسه على ملاحقتها وتدوينها ، مبينـا اهميـة (اشراق البصيرة) في حياة الناس عامة والعصابي منهم على وجه الخصوص .

فالبصيرة هي الحجة ، انها تبصّر الانسان ... تجعله بصيرا ... ترفع عن عينيه ووجدانه عصابة الجهل وقلة الدراية ... تجعله محيطا بجميع الجوانب والاطراف ، فـلا يبقـى ذلـك الاعشى ، الذي لعشاه يتعس ويشقى « ويحبط امره على غير بصيرة ! »

المراهقة الغاضبة

نشأة البصيرة لا تشتمل الاعتراف بالدور الذي يؤديه الفرد فحسب ، بل ايضا تشتمل على تبين ومعرفة المشاعر والخلجات المكبوتة في داخل النفس . وما دام الفرد ماضيا في انكار مواقف معينة يجدها في داخله فلن يحجم اطلاقا عن ابتعاث مواقف بديلة يعتاض بها وتعوض عليه . ولكنه عندما يواجه بوضوح ، ويتقبل بقناعة ، هذه المشاعر الاقل جدارة بالاطراء، فان الحاجة الى رد الفعل الدفاعي تصبح مرشحة الى الاختفاء .

وخير مثل لنشأة هذه البصيرة النافذة يستمد من قضية (كورا) ، الفتاة المراهقة ابنة السابعة عشرة ربيعا التي جاء بها زوج امها الى مستوصف الارشاد ، والى محكمة الاحداث ، بسبب تصرفها العصي في البيت . كانت امها مقعدة ، قضت فترات متعددة في المستشفى والمصح ، وحمل زوج الام مسؤولية تربية (كورا) ، وكذلك وقف موقفا معاديا من اصدقائها ، موقفا ينضح بالغيرة ، ويدل على اهتمام جنسي مباشر بها .

ولما اصبح الاحتكاك في البيت لا يطاق ، وضعت كورا من قبل المحكمة في بيت الاحداث . وما لبثت بعد مدة ان سمح لها بمقابلة الطبيب النفساني الذي عرفته وعرفها يوم كانت تحضر الى المحكمة . ولما سمح لها وذهبت ، اعربت عن رغبة في التكلم عن الاسرة ، ودار معظم الحديث حول زوج امها . سردت باشمئزاز واحتقار كيف كان يستوضح عن مسلكها، حتى

في بيت الاحداث ، وبينت مدى ما كان يستحوذ عليه من اضطراب متى علم ان لها علاقة واتصالا بصديق ••

واستمرت المقابلة :

قال الطبيب النفساني : « لماذا تقع هذه الامور ، أتعلمين ؟ »

وقالت كورا : « أظنه يفعل هذا عن ضعة ونذالة • لا افهم لماذا لا تصده امي •• لماذا تصدق كلامه دائما ؟ »

قال الطبيب : « كلمت امك ، وامك خاضت في الموضوع • هي فاهمة عارفة ، وقد تحيطك علما بالامر في يوم من الايام • أتحبين ان اسرد على مسمعيك ما دار بيني وبينها ؟ »

ولم تظهر كورا اهتماما ، ومضت تتحدث عن زوج امها ومسلكه معها • قالت :

يخيل الي انه يريدني ان اقيم في البيت ، وان اساعد في اعمال البيت •• أظنه يشعر بالغيرة • عدد من الناس قالوا هذا عنه • المستشار في المدرسة قال هذا ، وانت تذكر •• فقد سبق ان اعلمتك • فلماذا يشعر بالغيرة ؟ مم يغار ؟ ان أكره ما يكرهه خروجي مع فتى • لا ادري كيف افسر الامر • لا يحب ان اصادق الايطاليين ، لا يحب ان أصاحب أي فتى • لا أفهم سببا لغيرته • لو كان في سني لفهمت ، لعلمت انه يغار من لداته ويود لو استأثر بي • ولكنه رجل كهل ومتزوج بأمي • لا افهم •••

« الفتى يأتي ويقول ما خالجه صراحة ، ولكنه هو لا يتكلم • يتصرف بهذا الاسلوب •• يتصرف كأن في نيته مصاحبتي ومرافقتي • هذا أمر لا أكاد أصدقه • انه متزوج بأمي •• وقد آلمها ما رأته ، ولكنها أخلدت للصمت ولم تنبس ببنت شفة ، وكانت بعد ذلك تظهر الانفعال والتوتر • »

الطبيب : « استمري في الكلام • »

كورا : « ماذا أقول • انه جور اصاب امي ، ان صدق حدسي • هــو تزوج امي ، هذا لا يجوز ، وانا لا يخامر صدري أي شعور بالميل نحوه ، فلماذا يفعل هذا ؟• أشعر بالخبال والوبال متى لمسني بيده ، يبدي الوفاء لأمي • أظنه وفيا • أقر بأن حالته صعبة ، امي في المستشفى • فان كـان مضطرا ، فلم يختارني انا دون الغير ؟ ليخرج مع امرأة لا نعرفها ولم نسمع بها • »

الطبيب : « لماذا مال اليك دون سواك ؟ »

كورا : « ليس لأني اشبه امي • الناس تقول اشبهها ، وهــو يقول اشبهها ، ولا أظن اني اشبهها • ولكن ، قد اشبهها • لا شيء غير هذا يمكن قوله ، أشعر بالرعب ــ أمي الحبيبة • السبب الوحيد هو اني اذكره بها • »

ووصفت امها واثنت عليها ثناء عاطرا :

« هو متزوج بأمي ، لا يليق به ان يشعر بهذا الشعور ، لماذا لا يقول شيئا ؟ لماذا يأحن علي ؟ او لماذا يتوجه الي بتفكيره ، فيكون توجهه هــذا سبب احنه ؟ لماذا لا يخصها بحبه كله ؟ ربما لأني أصغر سنا ، وأقوى صحة، وأغض اهابا •• ولكن لا أظنه يفكر بالجنس ، فيما يتعلق بي ، لأنه ••• »

وساد صمت طويل استتلت بعده :

« اعرف انه لا يمارس الجنس مع أمي • انها مريضة • ولا أحب ان اخوض في هذا الحديث •• فماذا بقي ليقال ؟ »

وجرى تبادل المزيد من الاحاديث المشابهة ، كان الجزء الاكبر منها يدور حول زوج أمها وتصرفاته •

وبعد يومين جاءت كورا لمتابعة ما قطعناه •



بدت كورا هادئة رصينة عندما دخلت • قالت :

« ما برحت في دوامة من الضباب • تأملت ، وقدحت زناد الفكر ، الامر مستحيل ، لا أصدقه • أرى صدقه ، واحتماله ، وما هو ناتج عنه ، ومع ذلك لا اصدق • ولكن كيف وانا أرى الامر معقولا • »

وبيّن لها الطبيب شيئا عن السر الذي حيرها ، قال لها بأنها قد تفهم كيف يجوز شيء ، ومع ذلك لا تقره عاطفيا واحساسا • وقالت (كورا) :

« ما أصعب التصديق احيانا • يصعب ان أصدق انها الحقيقة ، فلم يتسرب الى رأسي شيء من هذا القبيل •• وانا على كل حال لا أفكر بهذه الامور • »

الطبيب : « ما الذي يصعب تصديقه ؟ »

كورا : « يصعب التصديق وأصدق ، يصعب التصديق بأن الناس تختلجها مشاعر كهذه • لا يبدو انه نظيف • وكلما فكرت بالامـر ترتعد فرائصي •• هذا لم يتضمنه تعليمي • يجب ان تلقن البنات هذا العلم، يجب ان تعرف كل فتاة بأن هناك امورا كهذه ••• تجاذب زوج امـي أفكـار كهذه ، مراودة هذه الافكار له • انا لست مثـل امـي ، فلـم يشعر هذا الشعور ؟ لست ادري ماذا أقول • »

وتكلمت خلال ما تبقى من المقابلة عن الاحتكاكات بين افراد الاسرة، وعن يقينها من انها لا تتمنى العودة •

وتخلفت (كورا) عن الموعدين التاليين المعطيين لها • ويبدو ان الالم الناجم عن تزايد حدة بصيرتها كان السبب في تخلفها •• ولكنهـا بعـد اسبوعين حضرت في الموعد الثالث المعين لها •

قالت بأنها اخطأت بموعد المقابلة : « لـم أحـاول ان انسى ، كانت

مصادفة • كنت مستغرقة في التفكير بما دار بيننا من حديث ، كله معقول ، ولكني لا أصدقه •

الطبيب : « عندما كنت هنا آخر مرة ، كنت تحاولين الرد على السؤال الاهم ، عن دورك في خلق هذه الحالة • »

ولم يكن الطبيب قد ذكر شيئا عن هذا السؤال في ملاحظاته عن المقابلة السالفة • فاذا كان هذا السؤال قد اثاره الطبيب فعلا ، فهو يفسر لماذا تخلفت كورا عن الموعدين •

كورا : « لا ادري ما هو ، ولا أستطيع ان ادري • »

الطبيب : « هل فعلت شيئا لانسان جعله يظهر البهجة والمتعة ؟ وكيف كان شعورك ؟ »

وتأملت كورا قليلا وفكرت ، ثم قدمت امثالا عن قيامها بأشياء للمربية في بيت الاحداث •• وعلقت على امثالها تقول :

« فرحت لانها ابتهجت ! » • واستغرقت ثانية في الفكر واستأنفت :

« ولعلي احببتها ان تكون اصلب لبضع دقائق عقب ذلك ! »

الطبيب : « عودي بالذاكرة ثانية الى الوقت الذي قضيته في البيت مع زوج امك اثناء غياب أمك في المستشفى • »

وتكلمت (كورا) عن الامور التي فعلها زوج امها بها ، ومعها •• وخاصة عن مصاحبته لها الى شتى الاماكن :

« فعل هذا ارضاء لأمي ، لا اكراما لي • وقد اغتبطت ، واظهرت اغتباطي • واغتبط هو لان امي اغتبطت •• ولما اغتبطت هي اظهر استعدادا للقيام بأي شيء أجد فيه مسرة ومتعة • ثم تكوّن في أعماقي شعور نحوه ، (عبادة البطل) • كلا ليس هذا •• شيء يختلف •• احيانا تأكدت انه كريم

النفس طيب القلب ، واحيانا أخرى نفرت منه . وقد شعرت بالغيرة ايضا لأنه تزوج أمي .. كنت شاكرة له ثم حدثتني نفسي بأن الواجب يحتم عليه اسداء الخدمات لي .. كلا ، لم تكن (عبادة البطل) . لا استطيع تحديده بدقة ، لا استطيع وصفه ... »

وصمتت هنيهة ، وما عتمت ان استطردت :

« اظن انه كان من نوع (سانتا كلوز) .. متى اسدى الناس اليك الخدمات ، تتعود الانتظار والترقب والتوقع .. ولكن المسدي يسأم في النهاية .. وانت تتعلم كيف تحصل على الاشياء .. أجل هذا ما فعلت ، تعلمت كيف احصل على الاشياء منه . »

الطبيب : « ماذا فعلت ؟

وظهر الارتباك على ملامح (كورا) . وانتظرت طويلا قبل ان تجيب . ولكنها قالت أخيرا :

« لا أدري ، كنت واسعة الحيلة دائما ، ولم يصعب علي استدراجه الى الخروج . لم يكن يحب المكث في البيت . كنت افعل امورا كثيرة ، اذا أردت ان اصاحب فتيات ، اختار الفتاة التي يميل اليها ، فلا يلبث ان يوافق . »

وصمتت صمتاً طويلا .. وانتظر الطبيب . ولما لم تتم ، قال :

« أي شيء آخر ؟ »

قالت : « أظن صوتي كان ناعما ومقنعا ، ووجهي له تعبير ينضح بالبشر ، وكنت أعرف ان هذا يغريه بالخروج ، ويغريه بفعل أي شيء أريد . »

واستمرت تتحدث عن هذا الامر ، واستمر قلقها في ازدياد ، وارتباكها في تكاثر .

وقال الطبيب : « وعندما ترغبين في مصاحبة فتى كيف تحصلين على غايتك ؟ »

كورا : « اظهر بمظهر عذب ، وضعيف ، أي ، عاجز عن الحماية ! لا أعي كل هذا ، ولكني افعله • اعرف كيف اكوّن الملامح والتعابير • وهذا لا ينطلي على امي •• ولكني تعلمته واتقنته ومارسته مع زوج امي كلما اردت شيئا لي • »

الطبيب : « هل تحبين هذا الوضع ؟ »

وتململت كورا في مجلسها وقد احرجها السؤال ، وتضرج وجهها • ولم تلبث ان قالت في تردد انسان غير متأكد :

« كلا ، ولكني أحب اهتمام زوج امي بي ! »

كانت معالجة الطبيب لهـذا الوضع عنيفـة بعض الشيء ومرغمة ، ومباشرة ، الا ان الامور التي تكشفت كانت عاملا عظيما في شحذ البصر والبصيرة •

(فكورا) تواجه بوضوح اكثر واقع رغبة زوج امها الجنسية فيها ، وما يتأتى عنها من شعور الغيرة •• ثم شيئا فشيئا بدأت ترى انهـا هـي بالذات كانت تشجعه ، وتحفز اهتمامه الجنسي بها ، وانها تحقيقـا لهذا توسلت بمختلف الحيـل والاساليب ، ليستمر فـي أداء دور (الصديق الكبير) ، أو (المتيم الكبير) !

والمثير للعجب انها طالما كانت بصيرتها محدودة تقتصر على المـدى الاقل ، فانها تكلمت عن زوج امها باشمئزاز وبلهجة غضوب •

« لا يبدو نظيفا ! »

وعندما كانت تتعرف على مشاعرها لم تتكلم عنه باشمئزاز وغضب••• وسألها الطبيب قبيل انتهاء اللقاء :

« ماذا كان شعورك نحوه ؟ »

وأجابت كورا :

« كأنه سانتاكلوز ، ومع ذلك أمقته ، ولكن احبه ايضا ! »

★ ★ ★

لقد كسبت في نهاية فترة التحليل والعلاج بعد نظر ، اصبحت تنتمي للفئة المتبصرة من الناس ، اصبحت تؤدي دورها كفتاة نامية ، دورها في الحياة ، ودورها في التفكير ، ودورها في تعليل الاحوال .

رأت ما لم تكن تراه ، رأت العلاقة الحقيقية بينها وبين زوج أمها ..

ولكن أهم أمر ، أو أهم تبدل طرأ عليها ، هو ما أخذ يختضم في قرارة نفسها من مشاعر وأحاسيس تدل على العافية ، وانفتاح بصرها وبصيرتها على الدورين المختلفين اللذين أدت هي واحدا منهما ، وأدى زوج امها واحدا ، خالقين بذلك تلك الحالة !

العصرية دائمة التعب

كارين هورني

KAREN HORNEY

ما اصعب التضارب متى كـــان بين
مشاعر انســـان واحـــد • فصاحبه
يستشعر الحزن ويستشرف الهلاك !

كارين هورني

كارين هورني (١٨٨٥ ـ ١٩٥٢) مارست في البدء التحليل النفسي في المانيا . ثم نزحت الى الولايات المتحدة بعد قيام النازية وتسلمها مقاليد الحكم . شعرت بعدم الرضا على نمط التحليل الفرويدي ، ومع آخرين انشات الجمعية الاميركية للتحليل النفسي .

ومن ابرز نواحي معارضتها للمدرسة الفرويدية ما ذهب اليه فرويد في اجتهاداته من ان الصراع الداخلي لدى المراة مبعثه ذلك الشعور الغريزي بالتبعية للرجل ، وبالنقص النابع من حرمانها القضيب الذي يحوزه الرجل .

وقد اتبعت طريقة « التحليل الطبعي » او « الاسلوب الحياتي » ، أي منهج المريض في حياته اليومية .

الصورة دائمة التعب

كلير ، طفلة غير مرغوب فيها • زواج ابويها كان فاشلا • بعد مجيء ابنهما ، انصرفت الام عن الاولاد ولم تشأ ان تحمل بولد آخر • ولكن كلير ولدت رغم انف امها التي اجرت بضع محاولات لاجهاضها ولم تفلح • لم تعامل بمعاملة خشنة ، لم يهمل شأنها في أي مرحلة • بل ارسلت الى مدارس جيدة لا تقل مستوى عن المدارس التي انضم اليها اخوها • وتلقت من الهدايا ما تلقاه هو • كما انها تعلمت الموسيقى كما تعلمها هو •

المعاملة واحدة للاثنين • ولكنها في امور اقل اهمية ، في امور ثانوية ليست ملموسة ، كان نصيبها أقل من نصيب اخيها ، العطف اقل ، والاهتمام بالدرجات في المدرسة أقل ، والعناية في حالات المرض أقل ، والثقة بها أقل ، والاعجاب بمنظرها وادائها أقل •

المودة بين الام والاب كانت اوثق واشد • بينما الاب كان متغيبا بصورة شبه دائمة ، لا يأتي الا لماما ، فهو طبيب يعمل في الريف •

وسعت كلير الى كسب مودته وعطفه ، ولكن مسعاها باء بالفشل ، لانه لم يكترث كثيرا بها ، وبأخيها على السواء • فحبه محض الام به •• كان حبا املاه شعوره بالحاجة الى شريكة له في همومه واتعابه ، وفي قلة ثقته بنفسه • بيد ان زوجه كانت تحتقره علنا وتتيه دلا عليه•• فهي المتطورة والمنظورة لجمالها وكياستها •• وهي المهيمنة على الاسرة ومصائرها • وكان اشمئزازها من الاب الذي جاهرت به في كل مناسبة مقرونا بتمنيها الموت

اه ، حافزا لكلير على الميل بنفسها الى الجانب الاقوى .

كنتيجة لهذه الظروف غير السوية لم تتوفر لكلير الفرصة لتقوي وترسخ في اعماقها شعور الثقة بالذات . لم يكن ما لمسته من الظلم والحيف كافيا لتحريضها على التمرد ، فاكتفت باظهار ما تشبعت به نفسها من خلجات التذمر والنقمة وانعدام الرضا . وتبعا لذلك تعرضت دائما لعبارات الاستهجان والسخرية لانها تعتبر نفسها الشهيدة . ولم يدر قط في خلد الام او الاخ ان ما تشعر به من نقمة له ما يبرره . لم يشعرا ان موقفها السلبي مرده الى نزعة فطرية دميمة .

وهي ، وقد حرمت من الشعور بالاكتفاء النفسي ، استجابت دون تردد لهذا الرأي ، واخذت تشعر انها الملومة على كل أمر . وبالقياس الى امها الجميلة الجذابة المحبوبة من الجميع ، وبأخيها المرح المستبشر المشتعل ذكاء ، كانت البغيضة البشعة .. وهكذا تغلغل في اعماقها اليقين من انها الفتاة المبتورة غير المرغوب فيها .

وكان لتحولها من الاتهام الصحيح المبرر للغير ، الى الاتهام غير الصحيح وغير المبرر لذاتها ، نتائج بعيدة المدى ، كما سيتضح لنا بجلاء الآن . وهذا التحول جرّ اكثر من مجرد قبول لتقييمها الذاتي لنفسها ، وقد حمل ايضا في طياته جهدا جبارا بذلته عن وعي ودون وعي لكبت ظلاماتها كافة وتبرئة ساحة امها من كل مظنة . فهي الملومة ــ وقد اقنعت نفسها ــ وحري بها ان تنزع الغل الموجه الى الام ، وان تروض نفسها على استبعاد أي سبب من الاسباب ــ ولو في خيالها ــ التي تدين امها وتسمها بميسم المقترة بعواطفها ومحبتها .

وفي كل خطوة من خطى كبت مشاعر العداء نحو امها ، دنت من الفئة المعجبة بالام ، المفتونة بها .

وهذا الانسياق مع رأي الاكثرية كان الباعث القوي اليه عداء الام لكل ما هو ناقص غير مكتمل ،فآمن لها واضمن ان تجد النقص والتصور في نفسها لا في امها. وما دامت هي معجبة بالام فأملها معقود علـى زوال المحنة الناجمة عن عزلتها ، وعزلة شعورها ، وبالتالي على بلوغ الوطر مـن محبة حرمتها ، او على الاقل من تقبل لها ورضا •

رجاؤها في المحبة لم يعط اكله ، بيد انها حصلت عوضا عن ذلك على عطاء ـ عطاء ولكن مشكوك في قيمته وقدره ـ فالام اسوة بكل من يزهو ويزدهر على اعجاب الناس ، كانت سخية فـي بذل عطية الاعجـاب للغير ـ اعجابا باعجاب ـ وهكذا لم تبق كلير البغيضة البشعـة ، بـل الابنة الرائعة للام الرائعة •

وهكذا في مكان « الثقة بالنفس » المفككة ابتنت «الاعتداد بالنفس» المؤسس على الاعجاب الدخيل •• او هي نحلت هذا الاعتداد نحـولا ونحتته من تلك الثقة بالنفس المزعزعة المحلولة •

في عملية التحول هذه من التمرد الصادق الـى الاعجاب الكاذب فقدت كلير القدر الضئيل من الثقة بالنفس ، الذي كان بعد راسبا فـي قراراتها •• وبعبارة اخرى ، فانها فقدت نفسها ، اضاعتها ، اودت بها !

فاعجابها بما في الحقيقة رفضته واستهجنته، غدت غريبة عن مشاعرها. نأت عنها ، انصرفت كليا •• لم تعد تعرف ما تحبه وترغب فيه او ما تخشاه وتحتقره وتستهجنه • فقدت الطاقة على فرض رغبتها في المحبة ، او حتى اية رغبة اخرى مختلفة • وبالرغم من العجب السطحي الزائف فان يقينها من نأي المحبة عنها ، واحتلال النفور منها للواجهة في قلب الناس ما برح يعمق ويترسخ • ومن ثم ، عندما مال اليها انسان او آخر ، لم تأخذ هـذا الميل مأخذ الجد ، بل طعنت فيه ، واكتشفت المثالب والمآرب والغايات •

احيانا ظنت ان الشخص المتحبب هذا اخطأ في تكوين الرأي ، وغابت عن بصره وبصيرته حقيقة حالها واحيانا اخرى ، كانت تعزو الميل الى عرفان بالجميل على خدمة اسدتها او على خدمة يرجى ان تسديها .

هذه الشكوكية الممضة للروح وللنفس ، اخلت بكل علاقة ربطتها بانسان ، وافقدتها القدرة على الانتقاد متأثرة بالمبدأ اللاشعوري القائل بأن ابداء الاعجاب خير من سوق النقد . وهذا الموقف غل ذكاءها وكبله . وكان ذكاؤها من نوع ممتاز وقد ساهم الى حد كبير في ما استحوذ عليها من شعور الغضاضة .

واسفرت هذه العوامل والعناصر عن نشوء ثلاثة اتجاهات عصابية . احدها اعتدال قهري اكراهي في رغباتها ومتطلباتها . وهذا استتبعه ميل قهري اكراهي الى تصنيف نفسها تصنيفا متواضعا ، والى الاستخفاف بنفسها ، الى الاعتقاد بأن الغير على حق دائما وبأنها في ضلال دائما . بيد انها حتى في بؤرة هذا الغمط للذات لم تستشعر الامان ما لم يكن هناك من تعوّل عليه ، من يحميها ، من يدفع عنها ويدافع ، من يشير عليها ويوجه، من ينعشها ويحفزها ، من يرضى عليها ، من يكون مسؤولا عنها ، من يوفر لها مطالبيها ومحتاجاتها .

اعوزها كل هذا لانها فقدت الاهلية ، فقدت الامكانية ، فقدت الطاقة على تسيير حياتها وادارتها وتوجيهها . وهكذا نمت حاجتها الى « شريك » ـ صديق ، عاشق ، زوج ـ عليه تتكل ، ومنه تأخذ العضد . وهي متعاقدة مع نفسها على الخضوع له والرضوخ لمشيئته ، كما تطامنت لامها وصدعت بأمرها ، والتمست رضاها .. وهو في مقابل هذا ، ووفاء منه واخلاصا يعيد اليها كرامتها المهيضة .

والاتجاه الثالث العصابي استهدف ايضا استرداد الاعتبار الذاتي ،

ولكنه بالاضافة الى هذا امتص الحقد المتجمع الذي تراكم ، وزادته المذلة والاذية تراكما •

جاءت كلير للعلاج التحليلي لاسباب عدة • وكان عمرها يناهز الثلاثين من السنين • كانت تتعرض كثيرا لوهن يجمد اطرافها ، ويشل نشاطها العملي والمجتمعي • كما انها اشتكت من تقلص في حجم ثقتها بالذات •

كانت محررة في مجلة • ومع ان عملها كان جيدا ومستقبلها مضمونا ، غير ان طموحها الى تأليف المسرحيات والروايات ، صده صدا عنيفا عقبات لا ترتقى ولا تتخطى • كانت قادرة على مزاولة اعمالها العادية اليومية التي اصبحت من كثرة التكرار اعمالا رتيبة • ولكنها كانت عاجزة عن العمل الخلاق المبتدع ، وتبرر عجزها هذا فتزعم انها لم تبلغ المستوى •

تزوجت ولما تتجاوز الثالثة والعشرين ، ومات زوجها بعد ثلاث سنين• بعد الزواج وشجت بينها وبين رجل آخر علاقة حب ، لم تتفكك عراها ، وظلت في مجراها حتى اثناء التحليل • وقد أكدت ان العلاقتين ــ الزوجية والغرامية ــ كانتا مرضيتين من ناحية الصلة الجنسية ، ومن النواحي الاخرى المختلفة •

واستمر التحليل سنة ونصف السنة ، تبعه انقطاع دام سنتين • اقبلت اثناءه على نفسها تحللها • وما عتمت ان استأنفت ما قطعته من التحليل •

وفي الوسع تقسيم التحليل الذي اجري لها الى ثلاثة اطوار :

١ ــ اكتشاف تطامنها القصري •

٢ ــ اكتشاف جنوحها القسري للاعتماد على الغير •

٣ ــ اكتشاف حاجتها القسرية الى اكراه الغير على الاعتراف بتفوقها •

وهذه الاتجاهات او النزع لم تتضح حقيقتها سواء لها او لسواها من الناس ٠

في الفترة الاولى ، دلت المعلومات التي اظهرت عناصر القسر في نفسها على الآتي : كانت بكل وسيلة تقلل من قدر نفسها ومن طاقتها وامكانيتها ٠٠ لم تكن متشككة بامكانياتها الذهنية فحسب ، انما كانت كذلك تنكر بعناد وجود هذه الامكانيات او المواهب ، مصرة على انها ابعد ما يكون عن الذكاء ، وابعد ما يكون عن الاستهواء ، وابعد ما يكون عن تميزها بالفطنة ٠٠ وتضرب الامثال على هذا التجريد ! وتمادت ايضا في اعتبار غيرها متفوقا عليها ٠ وكلما ثار خلاف ، او حدث اختلاف وتباين ، ايقنت متسارعة من ان هذا الغير على حق ، وان الصواب يظاهره والخطأ يجانبها ٠ وتذكرت موقفها من زوجها حينما دخل في علاقة غرامية مع امرأة ـ لم تعترض ٠٠ لم تتذمر ٠٠ رغم انها بلت الامرين ، وشعرت بالنار تحرقها ٠ لقد اقنعت نفسها بأنه اختار المرأة وفضلها لأنها تفوقها جمالا ، وتبذها في مطارحة الحب ٠ وفوق ذلك كان مستحيلا عليها ان تنفق المال على نفسها ٠٠٠ كانت تسافر مع زملائها وزميلاتها فتقيم في الفنادق الفخمة على نفقة المجلة ، ولكنها وهي وحدها لم تستطع ان تقنع نفسها بانفاق المال على الثياب والرحلات ودور التمثيل والكتب ، وما شاكل ذلك ٠ ورغم ان منصبها كان تنفيذيا ، فانها لم تستطع اصدار الاوامر ، بل تطلب كأنها تعتذر ٠

من هذه المعلومات ، اتضح انها استحدثت في حياتها تطامنا قسريا ، وانها شعرت بحتمية قاهرة تكرهها على عصر حياتها ضمن حدود ضيقة ، والرضا بالمكان الثاني او الثالث ٠ وعندما اتضح هذا الاتجاه ، وبحث في منشأه ابان الطفولة ، شرعنا في تقصي مظاهره ونتائجه ٠ فأي

دور لعبه هذا الميل في حياتها ؟

لم تستطع ان تفرض نفسها بأي طريقة كانت •• في المناقشات كانت آراء سواها تجرفها . وبالرغم من ملكاتها وأصالة حكمها على الناس ، إلا انها لم تتخذ موقفا انتقاديا من احد او من شيء ، اللهم الا في عملها متى كان هذا الموقف مطلوبا منها • وما اكثر المصاعب التي واجهتها وآلمتها ، مثال ذلك عجزها عن تبين كيد زميل لها ومحاولته الايقاع بها ، ووضع الالغام في اساس منصبها •• فعندما يتضح هذا لسائر العاملين معها ، كانت تستمر في اعتبار الشخص المتربص بها صديقا ، وتعبر له عن مودتها الصادقة •

وقد كانت الالعاب برهانا دامغا على التحامها مع المكانة الثانية ، وكأنها تتشبث بها ! فلعبة التنس اتقنتها • واثناء لعبها ، ان هي لاحظت ان كفتها رجحت ، تسارع الى الاكثار من الاخطاء لتكون الخاسرة • اما رغبات الغير ، فهي أهم من رغباتها هي : تأخذ اجازتها في الفترة التي لا تلائم العاملين والعاملات معها ، هم يأخذونها في الصيف نشدانا للراحة والمتعة ، وهي تأخذها في فصل الشتاء ، عندما لا يطيب لانسان قضاء ايام في الجبال المثلجة ، او في رحلات ونزهات يصاحبها القر الشديد والمطر المنهمر ! والعمل الذي يعرضون عنه تقبل هي عليه ، حتى لو كان عملا مطلوبا من سواها •

والاهم من كل هذا ، قمعها لمشاعرها ورغباتها كافة • واثبت نشاطها الكابح هذا انها لا تتمنى شيئا بعد التحقيق •• كانت نظرتها تخلو من الواقعية ، فلا ترجو ، ولا تتمنى ، ولا تتوقع ، بل ابقت دائما رغباتها وامانيها تحت مستوى الممكن احرازه •

كانت غير واقعية في حياة تعمدت ان تبقيها تحت مستواها الاقتصادي ،

والاجتماعي ، والعملي ، والروحي • مع انها لـو نهجت نهجا قويما صالحا، لأحبها الجميع ، واعجبوا بها ، واستظرفوها •• ولكتبت ما يجعلها فـي طليعة المحررين •

بهذا الانجراف الكلي الشامل تقلصت ثقتها بنفسها حتى غدت لا ترى ولا يحس بها ، مما زرع في قرارتها شوكة تخزها وتلقحها بمشاعر عـدم الرضا • ولكن عدم رضاها هذا تموّه فلم يتضح لها بحجمه الحقيقي النامي مع الايام •• كما ان حبل رغباتها بتر من نصفه ، فلـم تعـد تعرف معنى للرغبة • ولم تعبر عن قلة رضاها الا في امور ثانوية صغيرة ، والا فـي نوبات من البكاء كانت تتعرض لها بين الحين والآخر ، ولا تكاد تفهم السبب المؤدي اليها •

لردح مـا رأت بصيصا من هذه الحقائق ــ بصيصا خافتـا ــ ففي الامور ذات الاهمية اظهرت بتحفظ صامت اعتقادها بأني ابالغ في تقديرها أو أشعر ان هذا التقدير يساعد على شفائها • واخيرا ادركت بصورة مفاجئة ان « الحصار العصابي » يكمن وراء هذه الواجهة من التطامن • وكان هذا حينما همت بتقديـم اقتـراح يتضمن وجهـة نظرهـا فـي تجديد المجلة وتحسينها •

عرفت ان خطتها جيدة لن تواجه مقاومة تذكر • وعرفت ان الجميع سيقدرون لها صنيعها في النهاية، ولكنها قبل التقدم باقتراحها، شابها شعور هائل من الفزع ، لم تستطع اقصاءه ••• في مستهل الحديث لـم يفارقها فزعها ، وغادرت الحجرة لشعورها باسهال مفاجىء • بيد ان الفزع ــ بعد عودتها ــ اخذ يزايلها شيئا فشيئا عندما تحول النقاش الـى تأييـد لهـا ولاقتراحها •

ووافقوا على مشروعها ، وكالوا لها الثناء وعبارات التقدير • وعادت

ادراجها الى منزلها يخالجها شعور بالتيه والبهجة • ولما جاءت فـي الموعد المحدد كان وجهها طافحا بأمائر الاستبشار •

وقلت بصورة عابرة ان هذا كان نصرا احرزته ، ولكنها تلقت العبارة بامتعاض • هي بطبيعة الحال سرها التقدير والمديح ، ولكن شعورها الغالب كان شعور من نجا بنفسه من خطر داهم • ولم تستطع الا بعـد سنتين ، معالجة العناصر الاخرى التي ابرزتها التجربة ، وهذه العناصر كانت متوازية مع الطموح والرعب من الاخفاق ، والنجاح والنصر • وفي ذلـك اليوم انصبت مشاعرها كلها على نزعة التطامن • احست يومذاك انهـا بقحة ، او بجرأة لا مبرر لها تقدمت باقتراحها •

فمن هي لتفوق معرفتها معرفة الآخرين ؟

بيد انها اخذت ببطء تدرك ان موقفها هذا ان دل على شيء ، فانه يدل على ان اقتراح اسلوب جديد للعمل ، معناه المجازفة للخروج من الحدود الضيقة المصطنعة التي حافظت عليها وصانتها بحرص مصحوب بالقلق •

ولم تقتنع عن يقين بأن تطامنها كان واجهة اتخذتها صيانـة لنفسهـا ووقاية ، الا عندما تبينت الحقائق • وكانت النتيجة لهذه المرحلة من العمل ، بداية انبعاث لايمانها بنفسها ، وبداية شعور بالجرأة على تحسس رغباتها والعمل على تحقيقها •

الفترة الثانية كرست في معظمها لمسألة اعتمادها على « شريك » • وقد عالجت وحدها اكثر المشاكل ، كما سيرد ذكـره بتفصيل فـي مكان آخر من البحث • هذا الاعتماد ، رغم استرسالها فيه ، ورغم قوته وطغيانه ، كان اكثر تعرضا للقمع من الاتجاه السابق • فهي لم تجد قط أي مانع مـن اختلاطها بالرجال ، بل بالعكس اعتبرتهم وقدرتهم وآمنت بهم • وقد بدئ التحليل بالتدريج هذه الصورة •

ثلاثة عناصر رئيسية دعمت هذا الاعتماد القسري • الاول هو ما كانت تشعر بـه من ضياع ، ، كالطفل في غابة ، كلما انتهت علاقة ، او حدث انفصال وقتي عن الرجل الذي احتل جانبا من تفكيرها • اول تجربة لها من هذا القبيل وقعت بعد مغادرتها لمنزلها في سن العشرين • شعرت يومذاك بأنها ريشة في مهب الريح ، فكتبت الكتب اليائسة لامها ، مجاهرة بأنها لا يمكن لها ان تعيش بعيدا عنها • هذا الحنين الى البيت توقف فور تعلقها بحب رجل مكتهل ، خطا خطى واسعة في مضمار الكتابة ، ولفته ما كانت تكتبه ، فشجعها ، ورعاها • ولا مراء ان هذا الشعور بالضياع الذي استحوذ عليها في وحدتها ، يمكن فهمه من الناحية الانسانية : كشعور فتاة غضة شرخة تغادر بيتها ، فتفقد طمأنينة لازمتها عشرين سنة •• تفقدها فجأة، وتنظر ، فترى الدنيا الواسعة ، وترى ذاتها نقطة في هذا البحر المتلاطم من الخلق •• بيد ان ردود الفعل التي تبعت هذا الطور ، لم تتبدل ، بل انها كونت تباينا عجيبا في حياتها ، كونت تناقضا لا يسع المرء الا ان يقف عنده ويفكر طويلا ••• ردود الفعل هذه لم تعقها عن التقدم في مهنتها ، وتسجيل النجاح الملحوظ في نشاطها •

والحقيقة الثانية المثيرة للعجب، هي انها في اية علاقة تشجها بالغير ، كانت الدنيا في نظرها غارقة ، مغمورة ، ليس فيها احد يستحق التفكير والاهتمام الا حبيبها • فالافكار والمشاعر تركزت حول اتصال ، او خطاب ، او زيارة يقوم بها • والساعات التي انفقتها في معزل عنه بدت لها خالية جوفاء ، لا يملؤها الا الانتظار والترقب ، الا التفكر بموقفه منها • واخيرا وليس آخرا ، بشعور يائس بائس مستمد من حوادث خيل لها انه اهمل امرها اثناءها ، واستخف بها، وتعمد اذلالها • في هذه الاوقات بدا لها عملها وحياتها ومصالحها كافة سرابا ، او غيما لا ماء فيه •

والعنصر الثالث كان الخيال الجامح •• رأت بعين خيالها الرجل العظيم المهيب الذي تكون له العبد الذليل عن رغبة ، والذي مقابل خضوعها منحها كل ما تريد — المادة بكل معانيها واشكالها — بكثرة •• والانعاش الذهني ، بكل ما يحمله من تقدم وتطور ، وبما يتبعه من تألق ككاتبة •

واخذت السجف تنجاب وتنحسر ، والستائر تتساقط تباعا ، ورأت هي الحاجة القسرية للاعتماد على « شريك » • وبدأنا نعالج الوضع بروية وصبر •

طابعها الرئيسي ، كان موقفا طفيليا مكبوحا ، رغبة لاشعورية في الاغتذاء من « شريك » في تزويده لها بما تريد ، في اشباع رغباتها ، في تحمل المسؤولية عنها ، في حل مشكلاتها وتمهيد الوعر في طريق حياتها ، في رفعها الى مصاف العظماء دون ان تتجشم هي أي عناء ، وأي مشاق • هذا الميل اقصاها ليس فقط عن الناس كافة ، بل ايضا عن « شريكها » ، لأن الشعور بخيبة الامل ساعة تهاوت الاحجار في صرح آمالها اشعل في داخلها نار المضض • ولكنها كبتت سخطها ، او كبتت جله ، خوفا من ان تفقد « الشريك » • بيد ان الباقي منه انطلق من عقاله في تهيج اتخذ له طابعا ناريا احيانا • وثمة أمر هام آخر ، هو انها لم يكن في طوقها الاستمتاع بشيء كثيرا كان أو ضئيلا ، الا متى اقتسمته مع « الشريك » • والنتيجة العامة لهذه الحالات كانت بلا استثناء ، تزايد شعورها بالخوف ، والكآبة ، وقلة الامن والسلام ، مما حداها الى مزيد من الاحتقار توجهه الى نفسها في تأجم واحتدام •

وكان التشابك مزدوجا بين هذا الميل والذي سبقه • فمن ناحية كان تطامنها القسري ، سببا من اسباب احتياجها الى « شريك » •

فما دامت عاجزة عن تحقيق امانيها ، فليفعل هذا رجل يقوى على تحقيقها .

وما دامت عاجزة عن حماية نفسها ، فهي تحتاج الى رجل يحميها ويقيها .

وما دامت عاجزة عن تبين قيمها ومميزاتها ، فهي تحتاج الى رجل يثبت لها انها ذات قدر وقيمة .

ومن الناحية الاخرى ، نشب صراع حاد بين التطامن القسري ، والتوقعات الغالى فيها من « الشريك » وطاقته الكبرى !

وبسبب هذا النزاع اللاواعي ، اضطرت الى تشويه او تحريف الوضع كل مرة خيب املها تهاوي التوقعات ، واتضاح معالم الاخفاق ، في مثل هذه الحالات ، شعرت بأنها الضحية ـ ضحية معاملة فظة مشينة ـ ومن ثمة انتابها الكمد ، ومعه شعور غير محدود بالبؤس والعداء .

الشعور بالعداء كان لا ندحة لها من كبته خوفا من ان يحفزه هذا متى رآه الى هجرها والنأي عنها . بيد ان وجوده زعزع العلاقة من اساسها ، وأحال توقعاتها الى طلبات يوحي بها الحقد ويمليها الانتقام .

والاضطرابات هذه الناجمة عن الوضع المتردي كان لها اليد الطولى في حشو احساسها بالالم والتعب ، وانعاش نشاط نفسها السلبي الناهي عن مزاولة العمل المثمر !

وكانت النتيجة حسنة في نهاية هذه الفترة : فاعتمادها الطفيلي تغلبت عليه ... وعثرت على حالها في هذا المجال واخذت تؤم مكاتب المجلة ، فتحيي بلسان طليق ، وتعمل كانسان لا يثنيه شأن ولا تعوقه عقد نفسية .. وكأنها طوت كشحها نهائيا عن تلك الطفيلية . وزايلها ذلك الشعور الممض بالوهن ، او كاد .. فالرعدة منه التي كانت تعاني منها ،

واقشعرار الجلد ، نبذتهما ، وكأنها تنفض عنها ثوبا من شوك يدمي جسمها، وكأنها اكتست لباسا من الطمأنينة والسلام .

وازدادت قربا من الناس واستئناسا بهم .. وعبرت بتصرفاتها عن تغير حالها ، بل عبرت عن هذا التبدل في احلام ألمت بها .. حلمت انها مع صديقها في سيارة ، وكان يقود السيارة ، وعولت ـ في الحلم ـ على طلب رخصة قيادة .. في الواقع كانت تملك الرخصة ، وتسوق كما يسوق هو ، بمهارة .. انما المهم في الحلم المتكرر هذا ما غدت تشعر به من حقها في الحياة والعمل .. في التصرف بحرية ودون اعتماد على احد .. في انعتاقها من قيود ارغمتها على البقاء ذيلا ملحقا .. لقد صدق توسمي حتى الآن ، وها هي الصخرة التي وقفت حائلا ، قد فجرتها ، او هي فجرت جزءا كبيرا منها !

اما المرحلة الثالثة من التحليل ، فقد كابدنا منها شدة .. كانت مرحلة معالجة الطموح المكبوت ، ذلك الكبت الذي بطش بمواهبها بعد تألق نجمها في بداية عهدها بالعمل . لفترة ما في حياتها كانت متشوقة الى اعتلاء القمة .. فتنقض انقضاضا على الفرص السانحة .. وفجأة زجرها زاجر ، فلزمت مكانها ، واختل ميزانها ..

طموحها العنيف دام بضع سنين ، ثم خمدت جذوته . وكأنها أطاعت داعي الكبت ، فلجمت طموحها ، ساحقة بذلك حقها في ميادين المنافسة ، ومزدرعة في قرارة نفسها غصة . ولكن الطموح لم يمت ، فهو كامن يعمل من مكمنه ، على الاقل ، ليثبت وجوده . وهذا عرفته من فرحتها العظيمة كلما اعترف لها المسؤولون في مكاتب المجلة بفضل ، وكذلك من هياجها وتوتر اعصابها اذا طرأ طارىء خيل اليها إنه نذير بالطالع المنحوس ، او بدا ما ينبىء عن فشلها في ممارسة العمل بحرية واستقلال .

كان هذا الاتجاه اكثر تعقيدا من سابقيه في بنيانه . فهو يمثل المحاولة أو المحاولات الرامية الى ممارسة الحياة العملية بنشاط ومبادرات ذاتية ، فلا يهن لها جلد في أي ظرف من الظروف .. وهذه الحقيقة كانت عنصرا فعالا في وجود الطموح وعدم زواله . فهي شعرت ان هنـاك قـوة سلبية فـي طموحها ، وتمنت ان تتمكن من انتشاله من براثن هذه القوة السالبة .

وعنصر آخر غذى الطموح هو ضرورة استعادة « احتـرام الذات » الضائع . اما العنصر الثالث فكان الرغبة في الانتقام ... اتخاذ النجاح سلما الى الارتقاء ، ومن ثم لترى كل من حقرها وامتهنها كئيبا حسيرا .. فالنجاح معناه الانتصار عليهم ، والفشل معناه الهزيمة المشينة .. فهـذا العنصر ، كان يشوقها الى امعاضهم ..

ولتفهم صفات هذا العنصر لا مفر لنـا مـن العودة الـى الماضي ، لاكتشاف التبدلات التي مرت بها .

فالروح القتالية التي صاحبت هذا الاتجاه ، ظهرت في سنين مبكرة ، قبل نشوء الاتجاهين الآخرين . في اثناء هذه المرحلة من التحليل ، استعادت الى الذاكرة حوادث من المقاومة ، والتمرد ، والولع في طلب ما تريد بالحاح ولو تحول الى خصام .. استعادت الى الذاكرة ما قادت اليه تصرفاتها مـن اضطراب وعناء . ولكنها كما نعلم، خسرت المعركة التي ارادت منها ان تتبوأ مكانها تحت الشمس ، فما كل سوداء ثمرة ، ولا كل صهباء خمرة .. وقد اخطأ ظنها ، فلم تر الافضليات والارجحيات في الكفة الثانية من الميزان .

ولقد تحيرت بين خوف يثبطها واشواق تنشطها ..وقد ألقي في روعها الاستسلام والانقياد .

ثم بعد سلسلة من التجارب الممضة ، ظهرت هذه الروح المتشوقة من جديد ، وكان عمرها احد عشر عاما ، برزت في شكـل طموح اكال عنيف

في المدرسة • وكانت كما ألفيتها ، محملة بالعداء المكبوت •• فقد امتصت النقمة المتراكمة على ما عاناته من عنت ، وعلى ما نزل بكرامتها من حيف • واستأثرت هذه الروح بعنصرين من العناصر الثلاثة ، فان هي اعتلت القمة تستطيع اعادة الاعتبار الى الثقة بالنفس ، وان هي تغلبت علـى الآخرين يكون في غلبتها جوهر الانتقام لما قاست منه •

هذا الطموح وهي تلميذة صغيرة بعناصره المكرهة المدمرة كان واقعيا، اذ انه بالمقارنة مع التطورات التالية تضمن جهودا بذلتها للتفوق على الغير ، جهودا صاحبها تنفيذ عملي • وعندما انتمت الـى المدرسة العالية تمكنت من احراز الدرجة الاولى• ولكن في الكلية ، حيث لاقت منافسة أشد من فتيات اقدر واكثر مثابرة ، انسحبت من الميدان •• اسقطت مـن حسابها الطموح الاكال•• كانت طورا تقف بالمرصاد لكل من تحدثه نفسه باجتيازها، فأمست بقية من قوة مزقتها المنافسة الحامية الوطيس •• انثنـى عزمهـا بسرعة ، فلم تنفق من الجهد ما يبقي لها مكانتها ومنزلتها ••• لقد انحدرت من أكمتها او من جبلها •

ثلاثة اسباب اساسية اعجزتها عن حشد قوتهـا وشجاعتها ، وبالتالي مواصلة الجهد • اول هذه الاسباب ، تطامنها القسري فقـد ارغمها هـذا التطامن على المقاومة باجفال ـــ مقاومة الشكوك ونـزع التردد ـــ كـانت متشككة في ذكائها ، متشككة في قدرتها على بلـوغ الوطر بحيلتها •• ووقفت في هول تنظر الى اشلاء بنيان اسسته ورفعته ، وما عتم ان تداعى وانهار ! واستفاقت هي من حلم اليقظة ، فلم تعرف بالضبط ما صرفها ، وقيل لها انها ضحية البنج من البداية الى النهاية ـــ بنج الطموح الذي لم تكن كما تراءى لناظريها ، اهلا له !

وثاني هذه الاسباب كان عجزها عن استغلال ذكائها استغلالا حرا ،

فقد عاقها عن ذلك الكبت الذي تعرضت له ملكتها العقلية •

اما السبب الثالث فهو احجامها عن ركوب ظهر المجازفة والتعرض للخيبة •• فالفشل شيء منكر يحمل في طياته المخزيات ، لان رغبتها الجياشة في التفوق على لداتها كانت قاهرة ، تعتبر كل شيء سواه سرا مستورا ان انكشف اسفر انكشافه عن نهاية مدمرة !

على ان تخليها عن طموحها الظاهر ، لم يقلل من عزم الدافع الى الانتصار على الغير • كانت اذن مضطرة الى البحث عن حل وسط ، وهذا الحل كان متمعجا في طبيعته ، بعيدا كل البعد عن طموحها المفهوم والمقبول في المدرسة • في جوهره كان حلا ارادت منه التفوق دون بذل الجهود •• حاولت تحقيق هذا الامر بثلاث طرق لاواعية • اولها اعتبار كل حظ حسن حالفها كنصر مؤزر لها على لداتها • وهذا يتراوح بين شعور واع بالنصر متى صفا الطقس اثناء نزهة ، وشعور لا واع بالنصر ضده « عدو » انتابه المرض ، او حانت منيته ! وضد ذلك ما شعرت به متى تعثر الحظ ، فهي لم تعتبره مجرد سوء طالع ، بل هزيمة مشينة !

هذا الموقف المهلك ضاعف رهبتها من الحياة ، لانه يبطن معنى واحدا ، هو الاعتماد على عناصر لا تقع ضمن سيطرتها •

وكانت الطريقة الثانية تحويل نزعة النصر ، او الاحتياج الى النصر الى علاقات حب •• فبقاؤها وحيدة هو الهزيمة التي تتمخض عن العار !

اما الطريقة الثالثة لتحقيق النصر دون بذل الجهد ، فهي ما حلمت به مرارا من بروز الزوج او العاشق بروز السيد المطاع ، ودفعها الى الامام ، بل رفعها الى فوق ووضعها في مركز مشرف دون ان تتكبد أي عناء •• ولا بأس عليها ان كان هذا يتحقق بالدمج الذي يحدثه الرجل ، فيشركها في نجاحه •

هذه المواقف اوجدت صراعا لا يرحم في علائقها ، وقوت من شعورها بالحاجة الى « شريك » ، لانه بطبيعة الحال سيتولى امر كل عمل ، فيعم جوده ويهطل عليها غيثه !

واتخذنا من النتائج التي ترتبت على هذا الاتجاه منطلقا لنا ، اتخذنا من تأثيره عليها وعلى حياتها فكرا نسعى منه الى تلافي الخطب المستشري • ولما وضحت لي الحقائق معيدة علاماتها ، طفقت احللها بالاناة والحلم من ربقة العناصر الناهية لها عن العمل • ولحظت في سرعة ما شاب هذه الموانع والكوابح من تفكك ، ولما يمض علينا ردح طويل •

ثم عالجنا شأن الاختلاط بين هذا الاتجاه وبين الميلين الآخرين • كان يتنازعها من ناحية صراع شديد ، وتضارب عظيم بين الاتجاهات هذه ، بينما من ناحية ثانية كان بينها تفاهم وتقارب واتفاق على الانتشار ، وهذا دليل قاطع على سقوطها في شرك متشابك الخيوط ، او بالاحرى سقوط بنيانها العصابي في هذا الشرك المعقد •

فالتعارض وجد بين الحوافز التي جعلتها تتخذ مواقف التطامن ، والحوافز التي حثتها على بلوغ الارب من التفوق ، والاعتماد في طفولية على الغير • والدافعان هذان اصطدما بقوة نشأ عنها شلل اصابهما معا •

وهذا التأثير المعيق المجمد ، اثبت انه المصدر العميق للوهن ، وكذلك للاحجام عن العمل • وكان من جراء هذا الشلل ان صاحبتنا شعرت بأن التطامن حاجة ماسة ، لانه رداء لها تتنكر فيه وهي تسعى الى النصر • كما ان الشريك اضحى حاجة حيوية ، لانه بطريقة ما يلبي مطلبها ، ويحقق ما تتوق اليه من تحقيق النصر •

ولا مرية ان شعورها بالضعة والصغار النابع من حاجتها الى العيش دون مستوى طاقتها العاطفية والذهنية ، ومن تعويلها على « الشريك » ،

اثار مشاعر جديدة من مشاعر النقمة المتشهية للانتقام ، مما عزز حاجتها الى النصر !

التحليل استهدف تمزيق هذه الحلقات الشرسة حلقة اثر حلقة • لم يكن بد لي من الاتجاه هذا المتجه • ولما تقلقلت دعائم تطامنها القسري ، وبدأت تثبت بطريقة او بأخرى وجودها وذاتيتها ، قلت تبعا لذلك حاجتها الملحة الى النصر • ولما وصلنا الى قضية نقمتها ورغبتها في الانتقام ـ وكان هذا مزعج لها ، منغص لحياتها ـ استطاعت ، وقد تحررت من قيود كثيرة ، ان تعالج بنجاح معضلة بدأت هي الاخرى تتناقص وتتقلص ، ولهذا لم يشق عليها المضي في محاولتها •

وتحررت طاقاتها تحررا شاملا •

كلير ترجت ، فأتت •• ولما تصدت بروح صادقة ، وارادة ماضية تسنى لها استرجاع الطموح الذي تقهقر ، ولكنه طموح مختلف يستحق التقدير لانه خلا مما يريب •• وقد تحسنت علاقاتها بالناس ، لأنها تنقت من التوتر الذي كان يخلقه الاختلاط السابق بين التطامن المتكلف والغطرسة الدفاعية التي تعمدتها •

اخيرا تحول ليلها صبحا !

أجل ، بعد لأي تحول غسق كلير الى فلق !

والوهن ذاك الذي فت في عضدها ، ذهب الى غير رجعة كما أتمنى !

القرينة العاجزة

هاري سوليفان

HURRY SULLIVAN

الانفصام الشخصي يجزىء ويمـزق •
وضم الشخصيتين في شخصية يتطلب
الجهد والصبر والمثابرة

هاري سوليفان

بعد الاين ، ركز هاري سوليفان على الاهمية العظيمة التي اعارها للعلاقات بين الاشخاص (العلاقات البيشخصية) ، في تحليله النفسي . لم يصدق ان الشخصية يمكن فصلها عن المواقف والعلاقات «البيشخصية» ، وان الشيء الوحيد الذي يمكن تفسيره وترجمته هو المسلك « البيشخصي » . وهكذا عرف ان المهم ليس الفرد بالذات ، بل التفاعل الجاري حوله بين الناس . اعتقد ان الناسك حتى ، يحمل معه ذكريات علاقاته بالغير .

رأى هاري كذلك ، ان التحليل النفسي وثيق الصلة بالسيكولوجية الاجتماعية . وشعر ان مهارة المحلل في المقابلة مع الشخص المريض لازمة ، كي يتمكن من سبر قريحة هذا المريض واختبار فهمه وميله واتجاهه .

اما القضية التي نسوقها فلم يعالجها سوليفان وان كان يشرف على خطوتها ، ويشير على تلميذه المضطلع بها بما يخلق به ان يفعل ، حتى لا يبقى مجال لفرطات او سقطات .

القرينة العاجزة

علق سوليفان على مشاكل العلاج اثناء افراغ الجهد لابراز التبـادل الافكاري وايضاحها وتفسيرها • ان مشكلة المداوي هي في العثور على طريقة تربط بين افكار المريض • ولا ريب ان تيار الافكار هذا شظوي ، ولهذا يعلق سوليفان على القضايا التي يبرزها زملاؤه فيصفها بالشظوية• ولهذا السبب اوردنا هنا حالة قياسية لاسلوبه العلاجي ، ولشروحه وتعليقاته على حالة انفصام منيت بها سيدة ، تمكنت رغم جمجمتها وغموض لفظها ، من اطلاع المعالج على ما استحوذ عليها وألمّ بها •

هذه اذن حالة انفصام ـ امرأة شابة متزوجة فاق توترها كل بعد من التوتر ، واظهرت من القلق ما لا مزيد عليه ، وكما قلنا كانت مصابة بحصر اللسان والجمجمة •

صعوبتها الرئيسية كما شرحتها هي في جهلها شؤون المنزل وما يتطلبه من تدبير، وفي قضائها سحابة النهار خارج المنزل في تسكع وتجوال• وكانت تنظر الى نفسها نظرتها الى امرأة فاشلة مخفقة • وتوقف العلاج بعـد بضعة اشهر ، او على الاصح غاص في مستنقع من اوحال المصاعب والعقبات، مما اثار السؤال الكبير : « أي اسلوب ينبغي اتباعه لتحريك هذا التجمد ؟ »

المريضة نتاج طفولة معطوبة ، هجرتها امها ، ثم وضعها ابوها في رعاية جديها لامها ، وكان هو ايضا لا يعتمد عليه • في منزل جديها عوملت مثلما

تعامل الخادمة ، ولكنها كانت موهوبة ، مشتعلة الذكاء ، فتقدمت في مدارج العلم وحازت شهادة الدكتوراه في علم الاقتصاد • وتزوجت بزميل لها لتصبح ربة منزل •

وكان زوجها لا يفتأ ينتقدها كمدبرة منزل ويقص عليها ما كان يقوم به من مغامرات غرامية مع النساء ، مبينا لها دائما ما اتصفت به هذه او تلك من براعة غرامية ، وكأنه لم يتبادل الهوى الا مع المتمثل فيهن الغرام بقوة، ليرتع معهن في خصب رفقتهن •

خلال السنين العشر التي مضت على الزواج ، رزقت بطفلين ، ولكن العلاقة الزوجية بلغت احط درك من الخلاف والتنابذ ، وكان زوجها يتهددها بالطلاق ، وينغمس في اعماله حتى يبقى بعيدا •• بينما هي مضت تحيا حياة مملة لا لون لها ولا رونق ، في عزلة وفي خمول •

سوليفان : عندي بعض الآراء ، حبذا لو باليت بها • اولها لفت انتباه المريضة ، انهما حتى قبل ترقية زوجها الاخيرة ، كانا قادرين على استخدام فتاة تقوم بشؤون المنزل ، وتحمل اعباءه • وحيث ان المريضة تبدي كل صباح استهجانا لما تحمله من اعباء ، فاني لو كنت مكانك لبدأت العلاج بهذا السؤال اوجهه اليها ، « لماذا لا تأتين بخادمة ؟ » واريد ان اعرف بطريقة واضحة صريحة لماذا لا يلحقان فتاة بخدمتهما ، فان لم يكن المبرر كافيا والتفسير وافيا ، فاني عندئذ اقول ، « ما قولك باستخدام فتاة ؟ »

واني اواصل الكلام فأقول ان تمرينها يبدو فريدا لامرأة قبلت بدور منزلي محض ، وان شعورها باليأس والعجز عن الاستمرار في مسيرة الحياة — هذا الشعور الذي يخامرها كل صباح — هو في الحقيقة يشجعني ولا يثبط عزمي • ألم تسمع بامرأة تفعل شيئا بديلا عن الاعمال المنزلية ؟ واني لاسألها مستفهما ، « ألم يدر هذا في خلدك، ام انه عنّ على بالك مثل شيء

ناشىء عن مرض ، مثل شيء مستغرب؟ » (ولا اخالها فكرت في هذا ابدا) •

ثم اني اسعى الى معرفة سبب اختيارها لعلم الاقتصاد ، مع ان النساء الحائزات على شهادة الاقتصاد قلة لا يعتد بهن • واتبع هذا بالتلميح الى انها ولا غرو قد اطاعت حافزا طبيعيا نشأ في فكرها • وقد يتضح بعد تداول الافكار ان عمة امها كاترين حبذت هذا الموضوع ، او شيء آخر من هذا القبيل ، وان هذه العمة تثيرني ، او تثير فضولي ، لما تبديه من اراء وتتقدم به من افكار •

ما احاول تحقيقه هنا هو جعلها تنبذ التعمية والتعتيم ، جعلها تنفتح قليلا ببصيرتها على ما يكتنفها ، فترى وضعيتها غير المستحبة ، وتشعر فعلا بأنها غير مستحبة • وباستدراجها الى التدليل على تميزها عن سواها بما حصلته من علم ، وعلى ارتمائها في احضان الكآبة والقلق اللذين يضاعف من حدتهما الاستمرار في التألم من حالتها المنزلية المقيتة ، املت في شق الصدفة التي تضم مشاعرها كافة في داخلها ، وما لم تحول بصرها الى شيء آخر ، فان المحاولة لتبيان مقدار نفورها من زوجها ــ أي محاولة ــ تكون مجرد رياضة عقلية ••• فهي تفطن الى الفكرة بسرعة ، فتؤثر التمنع ولو كان السقم هو البديل •

ولكن ان انا بدأت الطريقة الثانية فجعلتها تتساءل عما فعلت وتفعله ، ولماذا لم يكن لها الحق في الاعتراض على أي شيء ، عند ذلك يحق لي ان اتوقع انهيار بعض الجدران ورؤية شيء من الغضب الحقيقي•

سأكثر من ذكر اشياء مألوفة اعتيادية ، ليس لاهتمام شديد بالحقائق ذاتها في هذه الآونة، بل رغبة مني في اخراج فكرها من دائرة العزلة السحرية التي فرضتها على نفسها • والا فلن نحظى الا بالتفكير الجميل •• لا بد من بعث حركة خارجية ، حركة تسترعي انتباهها ، بداية شك • « هذا ليس في

الحقيقة ضروريا ولا محتما ، » قبل ان اتوقع منها ان تلاحظ باقبال لعبة الحركة الشخصية التي اصبحت صفة لازمتها في جميع مراحل حياتها • فغياب كل ملامح الالم ، وعدم ظهور ما ينم عن حزن قلبها ، يدلل على قبولها الباكر بالعبودية في بيت جديها ، وعلى ما رضيت بـه مذعنة مـن العزلة التامة ، والابتعاد عن الناس ، لعجز او عي او لان قسمتها ضئزى ! وقد استدرجها الى التحدث قليلا عن كيفية فرض الحظر الضمني ، وقد تزودني بالشرح عن هذا القمع الضمني من الاتصال بالناس ، كما يتصل الناس عـادة بعضهم بالبعض الآخر ، وقد انتظر منها تلميحا الى تقبل الامر الواقع ، او الى تقبل عدم كفايتها وانعدام اهليتها لحياة حرة مستقلة • وهنا قد اطرح السؤال :

« ماذا تقولين عن الكلية ، واختيارك المبتكر لفرع الاقتصاد الذي نجحت فيه ايما نجاح ؟ وما رأيك بالاقتصاد ؟ وكيف اختفى اهتمامك هذا ، وكأنه اهتمام بعيب ؟ تخرجت بدرجة ممتازة ، واقترنت برجل حاز الدرجة نفسها ، وما لبثت ان تفرغت له عن كل ما يمت بصلة الى الاقتصاد •• فهل لاءمك هذا وارضاك ؟ هل كان هذا نتيجة اصرار ابداه ؟ هل جاملته فنزلت على رأيه بأن من المحرج ان يتخذ زوجة ملمة بنواحي وخوافي عمله ؟ ام مـاذا ؟ »

بهذا الطريق المتصل بها بعد دورة طويلة قد ابدأ فـي اثـارة نـزع الاستهجان في قلبها ومشاعرها • هذه الدورة تمر بأيام ماضية ، بعوامل ماضية ، بتجارب ماضية ، فلا يبقى هناك أي احتمال لانفجار فوري ثـم هدوء وعودة الى الاستسلام •• بل في هذه الدورة تركيز لطيف خفيف ، يحصل بعده الانفجار بالتدريج •

ان مشكلة المعالج الكبرى مع انسان مثل هذه المرأة ، هي مقدرته على الاقتراب من مناطق نفسية يستطيع بمناوراته ان يفتح مصاريعها ، فيشرع

ذلك المريض في تقييم واعادة تقييم ما سلم به جدلا ، او ما اعتبر قانونـا رسمه الله .

اردت ان تقول لي هذه المرأة انها بحثت مع زوجها عن سبب قيـامه بكتابة الرسائل لها واصفا حبه العظيم لامرأة اخرى ، ولكني اردت فـي الوقت نفسه ان تنظر الى الامر نظرتها الى تحقيق او استقصاء لا اكثر .

فأقول: «هذه مسألة طلية جديرةبالبحث.. زوجكيغادرك ويشغفحبا بامرأة غريبة ، ويكتب لك واصفا تعلقه الهائل بالهة ما .. فماذا كان يفعل؟ او ماذا ظن انه يفعل ؟ »

هي لا تعرف طبعا ، لم تختبر حياة تكون فيها الزوج ..

ثم اسألها : « ولكن لم لا تسعين الى المعرفة ؟ »

هنا ثانية ارجو ان اكون محرضا لها ، ان اثير في داخلها شعورا كامناء فسيتفيق من سباته، ويحثها على استيضاح زوجها وطرح الاسئلة عليه . أنا لا ابرر خيانة أي زوج مهما كانت الظروف والملابسات . ومن يدري ، قد يبدي من الارتباك قدرا كبيرا وهو يحاول تبرير فعلته ، وقد تناجي نفسها عند ذلك فتقول :

« هذا الطير الذي زعم دائما انه لم يشعر بالدفء والامان ، ما برح غير شاعر بالدفء والامان .. فلماذا يشن علي غاراته ؟ لماذا يستخف بي ويذلني ؟ لماذا اكون كبش الفداء ؟ »

واني لموقن من انه سيبادر الى الاقرار بكفاءتها وحسن ادارتها ، متى ادرك انها لا تستعذب التعذيب . قد اكون مخطئا في حدسي ، ولكنه كما اظن اشبه برجل قتل ونجا من العقاب ، لانه عثر على زوجة لم تعرف يوما معنى السعادة .. ولا تعرف ان في الحياة متعة وبهجة .. ولا تعرف ان الدنيا فيها اخذ وعطاء .

لا اريدها ان تظنني راغبا في تحريضها عليه الى درجة اللاعودة ، ولا اريده ان يجزع من غضبها فيولي الادبار •• انه ولا جرم يقود حياة مضطربة خالية من كل شعور بالامان والسلام، وان هذه البلبلة التي غـرق فيها ، ستدفعه دفعا مميتا اليها ، وستعرف هي ساعتذاك والامتنان مستول عليها ان في وسعها العيش معه في تفاهم ووئام ، ان هي تحسست الطريق الذي رسمته لها ، ومشت فيه بروية واحتراس •

اريد ان ارفع بصرها الى فوق المنطقة الوعرة التي تعيش ضمنها • فلا مندوحة لها من رؤية حياة العبودية التي عاشتها ، وارضت بها جديها •• لا مندوحة لها من معرفة حقيقة الحياة ، وما لها وما عليها ، وما لغيرهم وما عليهم •• فتسأل نفسها :

« لماذا لم اعرف ان هناك مجالات اخرى ، ودروبا اخرى ، ومنهجا آخر ؟ واين كنت ؟ واين هي الجريمة التي من اجلها تقضي علي ان اقيم في الجحيم بخضوع واستسلام ؟ »

ولا استبعد ابدا ان يكون الزوج مصابا بالانفصام ايضا ، وفي حاجة ماسة الى العلاج التحليلي • واظنه قادرا متى صمم وعزم علـى الارتفاع ببصره وبصيرته •

واني لعلى يقين من انهما متى تفاهما وتجانسا ، لن يعتما ان يخرجا من الضياع المريع الذي خنقهما وازهق روحيهما •

ومتى تواردت الخواطر ، وتوافقت الاشياء ، فانـي اجوّز صـدق زعمي ، فنرى بعد برهة وجيزة زوجين يفكران بما يكشف لهما الحقائق ، فيميزان بين الصالح والطالح من الامور ، ويجدان في الدنيا ، ليس مـا يبكي فحسب ، بل ايضا ما يضحك !

فهرس الكتاب